

# شارل و عبّاس والرحمون

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الثامنة من سلسلة روايات تاريخ الإسلام

تتضمن فتوح العرب في بلاد فرنسا إلى ضفاف نهر لوار  
بيوار تورس . وما كان من تكافف الأفرنج  
هناك على دفعهم بقيادة شارل مارتل  
والأسباب التي دعت إلى فشل  
العرب ونجاة أوروبا منهم

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الملال

مطبعة الخان بالقاهرة مصر

سنة ١٩٠٤



مقدمة

هذه الحلقة الثامنة من روايات تاريخ الإسلام التي أخذنا على عائقنا تأليفها ونشرها بين قراء العربية . ويسرنا أن نرى ثمار هذا المسعى قد أخذت في النضج وهي عبارة عن تشويق الناس إلى مطالعة التاريخ الإسلامي وهو تاريخ الشرق وأدابه وعلومه بعد عصر الرومان . والفضل في ذلك التشويق راجع إلى سبك التاريخ في قالب الرواية على نحو ما تفعله في رواياتنا التاريخية . إذ يقدم القاريء على مطالعة الرواية لما فيها من الحوادث الغرامية الشفقة فلا يفرغ من تلاوتها إلا وهو مطلع على حادثة تاريخية مهمة بتفصيل وإيضاح لا يجد لها في كتب التاريخ . لأننا نمثل في سياق القصة كثيراً من عادات أهل ذلك الزمان وأخلاقهم وأدابهم الاجتماعية وسائر احوال معاشرهم — ناهيك بما يتخلل حوادث الرواية من الحكمة والعبرة ونقد الأخلاق ونحو ذلك مما لا يتعرض له التاريخ إلا باختصار موضوع هذه الرواية زحف العرب على فرنسا في أوائل القرن الثاني للهجرة وما الذي حملهم على ذلك وما كان من فوزهم حتى قطعوا إكياناً كلها إلى ضفاف نهر لوار بجوار مدينة تورس حيث لقيهم شارل مارتل جد شارلaman العظيم وتفصيل المعركة التي انتشت بين الأفرنج والعرب هناك والأسباب التي دعت إلى فشل العرب وكلها مسندة إلى شواهد تاريخية وادلة عقلية . ويتحلل ذلك شرح داخلية بلاد الأفرنج وعلاقة الشعب بالأكليروس وعلاقة كلية بالحكام . وقد بسطنا ذلك على وجهٍ يمثل الحقيقة تمهلاً صحيحاً لمخرج في اساسه عن الحقائق التاريخية الثابتة مع ثقيد الحوادث بالزمان والمكان . ونطلب إليه تعالى أن يأخذ بيدهنا لإنعام هذا المشروع وهو حسينا



الفصل الأول

فنون العرب في بلاد الأفريقي

فتح المسلمين اسبانيا سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) بقيادة طارق بن زياد البربرى كما يذكر ذلك في رواية «فتح الاندلس» . وكان طارق من موالي موسى بن نصير عامل بنى امية على افريقية اي من اتباعه وموسى يومئذ شيخ قد ناهز الثمانين من عمره . فلما فتحت الاندلس اصبحت من توابع تلك الولاية او فرعاً من فروعها . وعامل افريقية يقيم في القيروان وهو الذي يولي عممال الاندلس . وما زال ذلك شأن الاندلس حتى استقال على عبد الدولة الاموية الاندلسية بعد ظهور العباسيين في المشرق  
فهنا تهيات اسباب النجاح لموسى وهو في افريقية استشار اخليفة في ذلك فوافقه وحضره فلم يثأر موسى ان يفرط في جند العرب وهم يومئذ قليلون بالنظر الى اهل البلاد الاصليين في معظم البلاد التي نجحوا وخصوصاً في افريقية فاذن في تلك المهمة حملة اكثراها من البربر سكان افريقية الاصليين وقادتهم مولاهم طارق . فلما حصلت الواقعة بين طارق ورودريك في فضيحة شريش وقتل رودريك سنة ٩٣ هـ اصبح فتح الاندلس امراً مقتضاً ولم تمض سنة حتى فتحت قرطبة ومالة وطبلطة وغيرها من مدن الاندلس العظمى وتآيدت شوكة المسلمين هناك

فِلَمَا بَلَغَ خَبْرَ ذَلِكَ النَّصْرِ السَّرِيعِ إِلَى مُوسَى تَمَنَّى أَنْ تَكُونَ لَهُ يَدٌ فِيهِ فَكَتَبَ إِلَى طَارِقَ  
أَنْ يَتَوَقَّفَ رِيَثًا يَأْتِيهِ هُوَ وَجْهًا جَنْدًا أَخْرَى مِنَ الْعَرَبِ وَالْبَرْبَرِ وَقَدِمَ إِلَى إسْپَانِيَا مِنْ جَهَةِ  
أُخْرَى فَفَتَحَ مَرِيَدَةً وَسَرْقُوْسَةً وَغَيْرَهَا . وَلَمَّا رَأَى سُهُولَةَ الْفَتْحِ عَلَيْهِ أَوْغَلَ فِي إسْپَانِيَا حَتَّى  
تَحَازَّ جَبَالَ الْبَيْرِينَةِ إِلَى فَرَنْسَا فَغَزَا إِلَادًا مِنْهَا إِلَى نَرْبُونَةِ وَقَدْ عَزَمَ عَلَى مُواصِلَةِ الْفَتْحِ فِي بَلَادِ  
أَورَبِيَّ حَتَّى يَعُودَ إِلَى الشَّامِ مِنْ طَرِيقِ الْقَسْطَنْطِينِيَّةِ<sup>(١)</sup> فَيَتَمَّ لَهُ فَتْحُ الْعَالَمِ الْمُعْمُورِ يَوْمَئِذٍ  
وَلَمْ يَكُنْ بَاقِيًّا مِنْهُ إِلَى ذَلِكَ الْحَيْثِ غَيْرَ أَورَبَا وَدَانَتِ فِي غَايَةِ الاضْطَرَابِ وَالانْقِسَامِ  
كَمَا سِيَّأْتِي

(١) المقرّي ج ١

فوقع في اثناء تلك المروء خلافٌ بين موسى وطارق واستغلو حتى اخطر الخلية في دمشق الى استقدامها اليه للنظر في امرها فشخصا الى الشام وولى موسى على اسبانيا ابنه عبد العزيز بجعل قصبه اشبيلية . اما موسى فانه اتى دمشق ومعه من الفنائين والسبايا ما لا يحصي وجاء طارق ايضاً (سنة ٩٤ هـ) وتحمّك الاثنان الى الخليفة الوليد . فتوفي الوليد في اثناء المحاكمة بخلفه اخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ وكانت بينه وبين موسى خفائن شدد النكير عليه وعلى اولاده فأُوعز الى بعض الامراء في الاندلس ان يقتلوا عبد العزيز فقتلوا رأسه منقطاً الى دمشق . وكان موسى في السجن فاستقدمه سليمان واراه رأس ابنه وسأله هل يعرفه فدعا موسى على قاتله وأثر ذلك المشهد فيه ثبات بعد قليل . ولا ندرى ما انتهى اليه امر طارق

ذهب موسى وطارق ولم يذهب من فكر العرب فتح اوربا فكانوا يربون الفرس ويتحول دون مرادهم ما انتسب من الخصم بين قبائلهم . على انهم عادوا الى مشروع موسى من طريق آخر فانقض الخليفة سليمان سنة ٩٨ هـ حملة كبيرة عن طريق القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك خاصتها . وطال حصارها حتى توفى سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ فاسترجع الجندي وقد امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق فعادوا الى السعي فيه بطريق الاندلس

وتولى على الاندلس عدة امراء فتحوا مدنًا كثيرة من جنوب فرنسا لم تثبت اقدامهم الا في قليل منها : ثم اضفت الامارة الى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢ هـ (٧٣٠ مـ) وكان رجلاً حازماً كريماً نقياً محترماً غيرأ على الاسلام والمسلمين فأخذ على عائقه استئناف العمل لفتح اوربا عن طريق غاليا (فرنسا) فالمانيا فالملكة الرومانية الى الشام . وكانت قصبة الاندلس يومئذ قد انتقلت الى قرطبة فأخذ عبد الرحمن في اعداد الجندي للخروج على بلاد الانفرنج وكانوا يسمونها يومئذ الارض الكبرى وكان عبد الرحمن حذراً شفاف الفشل في مهمته كما فشل سلفاؤه وكان قد عرف علة فشلهم فعمد الى تلافيتها فطاف اسبانيا بنفسه وتعهد احكامها فعمل الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابد لهم برجال ذوي دراية وحمل ليحسنوا سياسة الناس من اهل الندية والنصف هو للاء فرد عليهم ما كان سلفاؤه قد اغتصبوه من كنائسهم واماكنهم <sup>(١)</sup> واعادهم الى ما كانوا عليه من العهود من زمن موسى بن

(١) رينو (عن ايز بدور الباقي)

نصير لعله انه لا يفوز في مهمته الا اذا احسن سياسة الرعية وعاملهم بالحق والرفق والا فانهم يكونون عنوان عليه . وكان عبد الرحمن وهو في ذلك الطواف يخطب المسلمين في المساجد ويحرضهم على الجهاد في سبيل الله انشح غاليا وما وراءها حتى يعم الاسلام كل العالم (١) وكان لكلامه تأثير عظيم في المسلمين من العرب وغيرهم فتفاولوا من افريقية ومصر والشام والمحجاز واليمن وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوربين على اختلاف القبائل والشعوب وقد تكاثروا وقاموا جهاداً في سبيل الدين اجابة لدعوة عبد الرحمن وهم ائم وشيوخ لما اشتهر من حزمه وكرم اخلاقه وعدله وصدق اسلامه وتآلفوا حوله فرقاً باعتبار قبائلهم واجناسهم وهو اميرهم الـ اـ كـ بـ ر

## الفصل الثاني

وكانت فرنسا في ذلك الحين تسمى بلاد الغال او غاليا وكانت الدولة الرومانية قد نقص ظلها عنها وتولتها عائلة من قبائل الجerman بسمها المؤرخون ميروفنجيان اول ملوكها كلوفس (Clovis) حكمها سنة ٤٨١ م وتابع الحكم في اولاده الى اوائل القرن الثامن وقد ضعف امرهم وانقسمت مملكتهم وافتى التفوذ الى رجال دولتهم شأن الدول في ادوار المخطاطها . وكان وزير الملك في ذلك الحين رجل اسمه شارل من قبيلة الافرنجي وكانت غاليا تقسم الى مقاطعات كانوا يسمون الجنوبية منها سبتانيا قصبتها نربونة وكانت قد دخلت في حوزة المسلمين يليها من الشمال اكيتانيا وقصبتها طولوز وهي مقاطعة كبيرة حاكها امير افرنجي اسمه اود وحدودها من الشمال نهر الاوار ومن الشرق نهر الرون ومن الجنوب جبال البيرينية ومن الغرب الاوقيانوس . ويلي اكيتانيا من الشمال مقاطعة نوستريا ووراءها اوسترا시ا وحاكمها شارل المذكور فضلاً عن اقسام اخرى . وكان كل دوق او حاكم يربد الاستئثار بالسلطة العامة لنفسه . وكان عبد الرحمن قد ادرك اختلال امورهم او جاءه البشير بذلك فعزم على فتح بلادهم

(١) رومي ج ٣

فأَمر عبد الرحمن بالرخيال للجيواد فبلغه وهو في الطريق أَنْ أحد قواد المسلمين على الحدود الشرقية في جبال البيرينية مخالف لذلك الرأي . وكان الامير المذكور قائداً بربرياً يسمى المنيدر<sup>(١)</sup> وكان شجاعاً بأسلاً غير أنه كان قليل الاتحاد بالعرب ينظر إلى أمرائهم نظر الحسد مثل أكثر قواد البربر . وكان المنيدر قد أَبْرَم عهداً مع أود دوق أكيتانيا فاز وجاه أود ابنه له جميلة اسمها لماجة<sup>(٢)</sup> فلما علم عبد الرحمن بذلك المعاهدة أوجس خيفة من المنيدر فبدأ به فبغته في امارته وقتلها وقبض على امواله ونسائه وامر بارسال لماجة إلى الخليفة في الشام فلما اطأَن بالعبد الرحمن من المنيدر وامن على الاندلس حمل برجاته وقواده على بلاد الأفرنج فاخترقها شمالاً وجنده ينخون البلاد ويحرزون الغنائم وليس من يدفعهم . وقد استولى الوعب على الأفرنج وخانوا على بلادهم وأود لا يقوى عليهم حتى وصلوا مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها ففتحوها بالسيف وقبضوا على الكونت حاكها وهم يحسبونه أود نفسه فقطعوا رأسه ليرسلوه إلى الخليفة في الشام على جاري العادة وبوردو كان اسمها يومئذ بورديغالي وهي واقعة عند نهر غارون على ضفته اليسرى وكانت من المدن الحصينة يحيط بها سور مربع الشكل عليه الإبراج العالية . وكان الرومانيون يدعونها من أكثر مدن غالياً علىًّا وادباً وفيها امثيبياتر روماني عظيم كانوا يسمونه امثيبياتر غاليوس وكنيسة كبرى اسمها كنيسة الصليب ولا تزال آثار هذين البنائين باقية إلى اليوم فلما جاءها المسلمون خيموا في ظاهرها ثم فتحوها عنوة وامعنوا فيها نهباً وسبباً فلما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والأسرى والسبايا إلى ساحة كبيرة أمام المعسكر فأمر عبد الرحمن أميراً من أمرائه اسمه هاني، كان قائداً لفرقة الفرسان وهي أهؤ فرق الجندي عندهم - لات مهارة العرب في الفروسية كانت من حملة ما ساعدتهم على الفتح وخصوصاً في بلاد الأفرنج وكان هاني، شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره اشتهر في معسكر عبد الرحمن بالبسالة وشدة البطش وقد شبَّ على ظهور الخيل فإذا ركب لا يبالي من يلاقى ولو كذنوا مئات . وكان عبد الرحمن يحبه جباراً شديداً ويقدمه على سائر القواد مع صغر سنه ومع كونه من غير قبيلته . لأن عبد الرحمن من قبيلة بني غافق وهي من القبائل اليهنية<sup>(٣)</sup> وهاني، من

(١) ساد ايزيندور (Munuza) وظنه روبي المؤرخ «ابو نسعة» وهو عثمان الحمي وعندنا أنها تحريف المنيدر لانه افريقي وأما ابو نسعة فانه ثني اي من العرب (٢) رينو

(٣) بهاءة الارب في قبائل العرب (خط)

قيس وهي من قبائل الحجاز وكان التناقر متكتناً يومئذ بين البينية والقيسية فلم يبال عبد الرحمن بذلك . وكان هانئ من الجهة الأخرى يحب عبد الرحمن ويحترمه احتراماً شديداً للكرم أخلاقه وسعة صدره . وكان قد تحالفوا مسراً على الاتحاد المتن في اثناء هذه الحرب حتى يفرغا منها لعلها ان الذين حاولوا فتح اوربا قبلها اهانوا كان سبب فشلهم الانقسام . فكان عبد الرحمن بالنظر الى ثقته بهانئ يهدى اليه بكل ما ينذر الى الثقة وحسن الفان ومن هذا القبيل اعتقاده عليه بعد فتح بوردو بقسمة الغنائم وتدبير امر الاسرى

وكانوا يومئذ في اوائل الخريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) وضواحي بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت اعنابها وكان هانئ قد ابل في ذلك النزح بلا حسناً حتى ہر الناس ولم يتحول عن جواده طول ذلك اليوم وهو يجول ذاهباً وجائياً يحرض رجاله ويتحث القواد على الثبات والصبر ولم يكن في امرأ ذلك الجندي من لا يحب هانئاً وبعجب يسألته واقدامه الا من حسده لتقربه من الامير الكبير مع صغر سنّه لكن حсадه لم يجدوا سبيلاً الى اذيته بسبب شدة محبة عبد الرحمن له . وكان هانئ طويلاً القامة عريضاً الصدر اذا مشى عرفه الناس من طوله وعرض كتفيه واذا أقبل اليك توسمت مناقبها مصورة في تحياته فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامع بارز الحاجبين والوجنتين حاد العينين صغير الانف والفم بارز الذقن خفيف العارضين اسود الشعر لainك وجهه باسماً مع وقار . وركب في ذلك اليوم على جواد ادهم لا يحب الركوب على سواه لخفتها حركته وجمال مشيته وصبره في ساحة الونغى وقد توسم فيه الخير لانه لم يركب في قتال الا عاد منصوراً وما في معسكر عبد الرحمن من لا يعرف تعلق هانئ بادهمه حتى توهموا انه شغل به عن ملاذ الدنيا . وبالحقيقة انه لم يكن هؤلاً الا مراءاة ذلك الجواد والقان عدته حتى البسه تماماً مذهبها وسلسلة وركابين من فضة وعلق على جيشه لؤلؤة كبيرة عثر عليها في بعض غزوته في غاليا فصاغها في شكل نجمة وعلقها هناك . وكان الادهم شديد التعلق بصاحبه اذا ناداه اتاه صاغراً اذا استنه في ساحة الونغى اسرع حتى تظنه طائراً فاذا استوقفه وقف بغتة

## الفصل الثالث

### الغنائم والسبايا

فأقبل هانىء في أصيل ذلك اليوم على اداته كأنه جبل يسعى وقد تعم بعامة حمراء وزمل بعباءة حمراء ونجلد حسامه وقد نقش اسمه على نصاله ورصف قبضته بالمحاجرة الكريمة وامر بعض رجاله ان يفرزوا الغنائم كل صنف منها على حدة يخلوا الاسرى في جانب والسبايا من النساء والاطفال في جانب والغنائم من الاسلحة والآنية والاموال والمجوهرات في جانب . واستدعى هانىء امراء الجند وهم جماعة كبيرة وفيهم البربر من اهل افريقيا وهو لاء كثيرون . لان العرب كان معتمدهم في حروفهم بالاندلس وفرنسا عليهم وكانت هؤلاء اهل بطش وشدة ولكنهم لم يكونوا على قلب واحد في نصرة الاسلام لما كان من امتحان العرب يومئذ لغير العرب ولو كانوا مسلمين <sup>(١)</sup> فكان البربر يصحبون العرب في حروفهم رغبة في المغافلة اكثر مما في نصرة الاسلام . على ان بعض قبائلهم كانوا يرافدون العرب في الجهاد وما هم من الاسلام على شيء او ربما ظاهروا به وهم يهود او وثنيون . ويقال نحو ذلك في سائر فرق الجند غير العرب . فقد كان في جملة رجال هذه الحملة اناس من الاسرى او العبيد اشتراهم العرب وربوهم في حجر الاسلام وهم في الاصل من القبائل (السلاف) او من الافرنج او الروم او غيرهم <sup>(٢)</sup>

فلا اجتمع القواد على خيولهم بين يدي هانىء امر بالغنائم من الآنية والاموال بغية بهما فامر بالخمس وهو حق بيت المال فافرزه جانبًا وفرق ما بقي على الامراء باعنبار تعداد رجال كل منهم . وكان اذا رأى اختلافا بينهم على قسمة بذلك من شهده واسهم رجال في سبيل التوفيق

وبعد الفراغ من قسمة الغنائم تحولوا الى جهة الاسرى وكانوا عدديين وقد شدوهم بعضهم الى بعض بالحبال او السلاسل وساقوهم سوق الاغنام وجاؤا بهم حتى اوقفوهم بين يدي هانىء فالثفت هانىء الى القواد وقال لهم «ان هؤلاء الاسرى من جملة الغنائم واقتسامهم لا يمكن فاعرضوه للبيع . اين التجار . . . ؟» ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ (٢) روبي ج ٣

وقرطبة وغيرها من مدن الاسلام كانوا قد صحوا الحلة للتكتسب من امثال هذه التجارة - واليهود لا تقوتهم هذه الفرص . فلما حضروا ثقلم واحد منهم وعلى راسه عامة سوداء واسعة ولحيته مسترسلة على صدره وانفه اعطف كبير عليه قباغ واسع ووراءه اجمال من الدراهم والدنانير . فقال له هانيء « بكم تشتري هؤلاء الاسرى يا هرون » قال « بالذى يأمر به مولاي »

قال « لولا عزمنا على السفر الى الحرب ما بعنام بل كنا نستخدم في منازلنا او نتوقع الفداء من اهلهم اذ ربما كان بينهم من اولاد الاغنياء من يفتديه اهله بالاموال الطائلة ولكننا على اهبة المسير للحرب ولا وقت لنا فاشتر » قال هانيء ذلك عن بساطة وانفة ولكن هرون تمسك بقوله وصم على الاختيال الابتهاج بأقل الامكان فقال « صدق مولاي ولكن ابتهاج هذا القدر من الناس خطر علينا اذ لا ندرى كيف نقلهم الى اسبانيا او الى افريقيا او الى الشام حيث يعرضون للبيع وفي ذلك من مشقة والنفقة ما فيه . . . »

فضجر هانيء من المطاولة وهو يود الفراغ من هذه البيعة لامر يهمه في البيعة التالية - بيعة السبايا - فقال « اشترا الاسير بدينار كباراً مع صغار على ان تكون اسلامهم لنا غير ما يكسو عوراتهم »

فضحكت هرون وهو يشط لحيته ثم يقبضها بيده ويرسلها على صدره وينظاهر انه استكثر المبلغ وقال « ألا يكفي ان ادفع اثمان هؤلاء وهم مئات ثم تطالبني باسلامهم وما عليهم منها الا الثياب . . . »

قال هانيء « قد بعناك فادفع المال الى هذا الكاتب وهو يخصي العدد ويقبض الثمن » قال ذلك وأشار الى كاته وساق فرسه الى جانب آخر من تلك الساحة حيث كانت السبايا وفيهم النساء والاطفال فتبعد هرون وهو يقول « لاتبع السبايا لسواي » فاعتبره تاجر آخر شهد بيعة الاسرى وصاح فيه « قد اشتريت الاسرى وحدك فدع السبايا لنا » فأجابه ذلك جواباً جافياً فانتصر بعض الوقوف من اليهود لمرون والبعض الآخر لريفيه وعلت الضوضاء فسمع هانيء ضوضاء هم فصاح فيهم وقال « لاتغبوا اننا نقسم البيعة بينكم على السواء » فلما وصلوا الى موقف السبايا ساق هانيء جواده الى اخر موقفهم وكانوا قد صفوه صفوفاً نساء واطفالاً فمر بهم المولينا وهو يتفرق في الوجوه كأنه يفتح عن ضائع والنساء يتضرعون اليه بالاعباء والبكاء لانهن لا يعرفن العربية وهو لا يلتقط الى احد حتى وصل الى آخر الصف حيث عثر على ضالته وهي فتاة لم يرَ الراؤون أجمل منها

وبيحانها امرأة في نحو الأربعين من عمرها والمحيبة والجلال ظاهران فيها . ومع عوبل سائر النساء والاطفال فانها كانتا هادئتين لا تبديان حراكاً وليس في ملائهما ما يدل على الخوف او الاضطراب . وكانت المرأة يضاء اللون شقراء الشعر زرقاء العينين وقد مللت شعرها وضفت في أعلى رأسها تحت خمار اسود واكتست رداء اسود بيمائها كأنها يحس بها الناظر اليها من سكان الاديار . وكانت جالسة حينئذ على حجر وقد اطرقت كأنها تفكري امر ذي بال وفي يدها محفظة من جلد قد حرصت عليها حرصاً شديداً

اما الفتاة فكانت واقفة بجانبها وعليها لباس اسود مثل لباسها وقد اسندت يدها الى كتف المرأة وهي مكشفة الندين الى الكوع وقد التف زنداما التناقاً بدليعاً . وكانت طولية القامة مع اعتدال ورشاقة وقد بدت الغضافة في تجاعدها مع النشاط . و اذا حررت عمرها ربما حسبتها في الخامسة والعشرين وهي في الحقيقة دون العشرين . سراويلون سوداء العينين كللا الجفون حادة البصر مع دعامة ورقة . ندل وقوتها على الصحة والقوه معاً و يتجلّى فوق ذلك كله لطف نسائي يسحر الالباب . وكان ثوبها الاسود بسيطاً وقد اذتع الرداء من اعلى الصدر فظهر عنقها الدال على الشحة والقوه بامتلاكه واستدارته . وضفت شعرها الكستنائي الجميل ضفيرتين مستطيلتين ارسلتهما على صدرها من جانبي العنق فبلغتا الى تحت الحصر فوق منطقة من جلد . وغطت رأسها بنقاب اسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها . والناظر الى الفتاة بجانب تلك المرأة يتبارى الى ذهنه انها والدتها وان اختلقتا خلقة وشكلاً لان المرأة كانت يضاء اللون شقراء الشعر والفتاة سراويل اقدم اقبل هانه اليها والفتاة تنظر الى والدتها وتحاطها همساً . فيما وصل اليها رفعت نظرها اليه وتقوست في وجهه وتفس هو فيها هنية لا ندرى ما دار في اثنائهما يينهما من حديث العيون . ثم امر بعض الغلام من في ركبها ان ينقلها الى مكان منفرد ريثما يفرغ من مهمته . فلم يستغرب احد طلبها لان ذلك من الامور العاديّة في مثل هذه الحال فالذالكون يختارون من غنائمهم ما شاؤا لانفسهم ويبيعون ما شاؤا

ثم عاد هانه الى اواسط الصف ونادي التجار وقال «كيف نقتنمون هذه السبايا» فتقدم هرون وقال «لا يمكن الاقسام في هذه الحال لان ثمن الفتاة او المرأة مختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وما تستطيعه من الصنائع كالغناء او الرقص او الخياطة او الطبخة وباختلاف صحتها وغير ذلك فالاحسن اذا شاء مولاي ان ينتقي كل مناً ما يشاء من هؤلاء على شرط ان من يختار اولاً يدفع ثمناً غالياً ثم يقل ثمن في الاختيار الثاني فالثالث»

فاستحسن هانى هذه الطريقة فقال « ان الذي ينقدم اولاً لا اختيار من يردد من هو لا تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير والغلام بدينار والذي ينقدم ثانية فانه يدفع نصف هذه القيمة . . . » قال ذلك والثنت الى الكتب وامرها ان يتم البيعة ويستولي على الثمن ويقسمه في الجند باعتبار العدد وساق جواده الى البيتين

## الفصل الرابع

### بسطام

وكانت الشمس قد آذنت بالزوال وتراجع المسلمين الى مدارهم وتركوا قسمة الغنائم الى امرائهم . وكان الامراء في انتظار الفراغ من ربع الاسرى والسبايا حتى يقتسموا ما يجتمع من اثاثها . بجلسوا في خيمة بجانب فساطط الامير عبد الرحمن لهذه الغاية وكان في جملتهم امير من البربرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته في الاسلام الا طمعاً في الکسب والتهب من الغنائم ونجوها . وكان قوي البدن فظ الخلق يكاد الناظر اليه يرتعد من منظره لخحامة هامته وسعة وجهه مع عظم انهه واتanax مخريه . وكان في عينيه احراراً وحدة خارقة حتى يوهمك اذا نظر اليك انه يخترق صدرك يصهره . وقد زاد منظره وحشة كثافة حاجبيه وبروزها بروز الطنف واقترانهما كأنهما خط واحد غليظ . فضلاً عن لونه الزيوني وعما يتجلى في جمل سخته من القسوة والخشونة وما يدل عليه غلط شفتته من المبل الشديد الى المذم الشهوانية . وكان بسطام رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر فلما سمع بحملة عبد الرحمن الى بلاد الافرنخ وكان يسمع بعنادها وخراطتها ظاهر بالاسلام وادعى انه انا يريد الجهاد في سبيل الدين - ولم يكن حال هذا امثاله ليغنى على عبد الرحمن ولكنها كثيراً ما كان يغفي عن ذلك رغبة في اكتساب القوة . لافت هو لا البربر ابوا في تلك الحروب بلا حسنة وخصوصاً بسطام فانه كان يهاجم الاسوار ويتلق السهام ويسقط الفرسان بقلب لا يعرف التلوف . وكان كلما فرغوا من معركة واقتسموا غنائمها انتخب ما يطيب له من السبايا وعبد الرحمن يتراهل في معاملته حذر امن غضبه لئلا تسوءه الحدة والخشونة الى الانقلاب على المسلمين فتتقلب معه قبيلته وقد يقتدي بها غيرها من قبائل البربر او غيرهم من غير العرب (المواли) ومن انتظموا في تلك الحملة

وفي ذئوبتهم حسد لما يميز به العرب انفسهم عن سائر المسلمين كلاستئثار بالسلطة واحراز الاموال ، وكان التحاسد سائداً ايضاً بين العرب انفسهم العينية في جانب والتجازية في جانب آخر ناهيك بما بين الاموالين والماشيين من النزاع على الخلافة . على ان المسلمين غير العرب اذا كانوا حسني الاسلام قد يغضون عن هذا التحاسد وخصوصاً في اثناء الجهاد . اما الذين كانوا يظهرون الاسلام رغبة في الغنائم فاذا فاتهم المقصود من انضمائهم انقلبوا الى الفد

فاتفق في واقعة بوردو ان بسطاماً جاهد جهاد الابطال وهو الذي هجم بنفسه على المنزل الذي كانت فيه هاتان المرأةن وقبض عليها وارسلها مع بعض رجاله الى المعسكر في جملة الغنائم على امل انه متى عرضت السبايا للبيع طلب الفتاة لنفسه وهو لا يتوقع ان يكون له مزاحم او معارض في ذلك . . . .

وكان بسطاماً في جملة الامراء الجشعين في ذلك اليوم ينتظرون اقتسام الغنائم وقد اوصى بعض رجاله ان يرافق تلك الفتاة لئلا تخرج من يده . فما رأى هائلاً افردها مع رفيقتها لم يجسر الرجل على منعه او الاعتراض عليه ولكنه اسرع الى بسطاماً فاخبره غضب وصاح فيه « اذهب وقل لذلك القيسبي ان الفتاة الامير بسطاماً لانها سبتي وقد نلتها بحمد سيفي »

فظل الرسول وافقاً ولم يجد جواباً فأدرك بسطاماً انه لا يجسر على تخاطبة هانئ بمثل ذلك فقال له « ما بالك لا تشي . . . . ؟ »

فتحول الرسول من الخيمة ومشي الموينة وهو يغرس انامله في شعر رأسه المتبلد المكاثف كالعامة السوداء ويحكيه وقد تأبط جرانياً من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من المواد الثمينة التي نهبتها في اثناء الواقعة او القطتها وهم يجمعون الغنائم ولم يكن يرى سبيلاً لحفظها الا ان يحملها معه مع ثقلها عليه . وكذلك كان يفعل اكثراً وخصوصاً الساعون في الجهاد رغبة في الغنائم - مشي ذلك البربرى وهو يتباطأ في مشيته ويهشم ان يلتفت الى الوراء كأنه يتوقع من يسترجعه . وكان بسطاماً ينظر اليه ويراقب مشيته بعينيه الحمراوين وقد حمي غضبه لما في ذلك التردد من الاستخفاف به فصاح فيه فوقف وترابع فقال له « يظاهر انك خائف منه . . . . لانكله بل اذهب انت ومن شئت من رجالك فأتوني بالفتاة سريعاً »

فتشى الرجل مثل مشيته الاولى فازداد غضب بسطاماً ووثب وفي يده خنجر روماني

كان قد قتل صاحبه طمعاً فيه لانقاذ صنعه فاستأله وشرب به الرسول فأصابت الضربة ظاهرة فقتلته . وكان بالقرب من الحيمة جماعة من رجال قبيلته واقفين لبعض الشؤون فصاح بسطام فيهم « هلموا الى غنيمة هذا الجبان فهي وكل ما في خيته من المهوبات ملك حلال لكم » فاسرعوا الى جثته وهموا باقسام ما في جرابه حتى كادوا يختصمون ويتصارعون اما بسطام فانه رد الخبر الى مكانه وشب الى جوارده فركبه واستخنه نحو الساحة . وكان قد علم بـ كان الفتاة ورفيقها فسار توسعاً اليه ولم يرجي اناني ولا خطابه بهذا الشأن . وكان هاني لا يزال الى ذلك الحين مستغلاً ببيع السبابيا .

فـ لما فرغ من مساومة اليهود ساق جواده نحو الفتاة وهي على مسافة ميل وبعض الميل منه والشمس قد توارت وراء ابنيه بوردو واخلطت اطلاقات القصور حتى صارت ظلاماً خيم على الغالب والمغلوب والقاتل والمقتول - خيم على المسلمين وقد اشتدت عزائمهم بما اوتوه من النصر فاشتغلوا باقسام غنائمهم . وعلى الغاليين من اهل بوردو وقد غلبو على ما في ايديهم فقتلوا رجالهم وسبت نسائهم ونهبت يومهم ومعابدهم . ولو لا اشغال هاني بما جاش في فواده من عوامل الغرام وما غشى بصيرته من عواطف الشيبة لاعتبر بما كـ افق بوردو من الشق وقد اشتد احمراره حتى يحسبه الناظر اليه رمزاً عن الدماء التي سفكـت في ذلك اليوم هناك . ولكنـه كان مشتغل اخاطر بشيء لا يعرفه غير الذي يعانيه - وهو الحب - ومن غريب امر الحب انه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لا يعلمون . وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة فلا تكاد تانقـ العين بالعين حتى تحيـش العواطف وتتجاذب القلوب تجاذباً لا سبيل الى دفعه . ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ولا في كل انسان وإنما هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب . فإذا تناهـت العينان استيقظ القلبان وتتجاذـ ما كانوا على موعد وقد تاهـا وكل منهما يبحث عن رفيقه ثم النقيـا بغـة وتعارفاً عن طريق النظر

## الفصل الخامس:

### التنازع

كـ ذلك حدث هـاني فـ انه لم يكن يعرف تلك الفتاة قبل ذلك اليوم فوق نظره عليها المرة الاولى وهو واقف بباب المدينة يراقب اخراج الغنائم والسبايا ويجهـها . وكانت الفتاة

في جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام باشارة منه كما ثُقِدَ . فرأَاهَا هانِي تمشي بشوبها ونقابها الأسودين وتحت النقاب خفِيرتها المُرْسَلَاتُ على صدرها وقد اطْرَقَتْ لَا تلتَفِتْ يَمِنًا وَشَمَالًا وَرَفِيقَتِهَا مَاشِيَّةً بِجَانِبِهَا . فَلَمَّا بَلَغَتِ الْفَتَاهَةَ إِلَى عَنْبَةِ الْبَابِ سَعَتْ هانِي، يَنَادِي كَاتِبَهُ وَيَسَّأَهُ عَنْ عَدْدِ الَّذِينَ خَرَجُوا إِلَى ذَلِكَ الْحَيْنِ ثُمَّ قَالَ لَهُ « لَا تَخْصُّ هَذِهِ مِنْ جَمِيلِهِمْ » فَوَقَعَ صَوْتُهُ فِي أَذْنَاهَا وَقَوْعُ السَّهْمِ فِي قَلْبِهَا . فَلَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَفَعَتْ بَصَرَهَا إِلَيْهِ وَحَدَّقَتْ بَهْ فَقَرَأَ فِي تِلْكَ النَّظَرَةِ مَا يَمْجُرُ الْخَطَيْبُ عَنْ أَدَاءِهِ فِي خُطَابٍ وَلَا يَسْتَطِعُ الْكَتَبُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ فِي كِتَابٍ — فَرَأَفِيهَا الْاسْتِعْطَافُ وَالْاسْتِصَارُ وَالْحُبُّ وَالْاسْتِلَامُ مَعَ الْإِنْفَةِ وَعَزَّةِ النَّفْسِ . فَأَجَابَهَا بَنْظَرَةٍ قَرَأَتْ فِيهَا جَوَابًا صَرِيمًا عَلَى مَا يَتَنَاهُ فَاجَبَهَا فَاطَّانُ بِالْحَمَاءِ — حَدَثَ ذَلِكَ كَلَهُ فِي لَحْظَةٍ وَالنَّاسُ حَوْلَهَا فِي غَفَلَةٍ بَيْنَ بَاكٍ وَنَادِبٍ وَرَاجٍ وَخَائِفٍ — إِمَّا دَانِيَّ، خَالِمًا وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْهَا صَمِّمَ عَلَى أَنْ يَسْتَأْثِرَ بِهَا لِنَفْسِهِ . ثُمَّ أَكْبَرَانِ يَتَخَذِّهَا سَيِّدًا لِمَا آتَسَنِيْهَا وَجَاهَهَا فَعَرَمَ أَنْ يَقْتُرُنَ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ قَدْ تَرَوْجَ وَلَا حَدَّثَهُ نَفْسَهُ بِالزَّوْجِ إِلَى ذَلِكَ الْحَيْنِ لَا شَغَالَهُ بِالْجَهَادِ مِنْذَ نَعْوَمَةِ اخْفَارِهِ فِي بِلَادِ الْأَفْرِنجِ الْمَهَاسِنَ لِتَخْتَمَ أَوْرَبَا . وَلَذِكَ فَلَمَّا دَعَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنَ إِلَى تِلْكَ الْحَرْبِ لَبَّى سَرِيعًا . فَلَمَّا أَحْسَنَ بَتْرُوكَ قَلْبَهُ لِمَ يَقْتَلَكَ عَنِ التَّفْكِيرِ بِالزَّوْجِ — وَالْغَالِبُ فِي طَالِيِ الزَّوْجِ أَنْ يَلْتَسُوهُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ . فَرَبِّيَا قَضَى أَحَدُهُمَا الْأَعْوَامَ الطَّوَالَ وَهُوَ لَبِيَ الزَّوْجِ وَلَا يَسْعَ فِيهِ فَإِذَا بَتْرُوكَ قَلْبَهُ بَنْظَرَةٍ أَوْ كَلَمَةً بَذَلَ جَيْهَهُ فِي سَبِيلِهِ — وَلَذِكَ فَانَّ هَانِئًا افْرَدَ الْفَتَاهَةَ وَبَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْبَيْعِ سَارَ إِلَى اسْتِلَامِهَا بِنَفْسِهِ . وَلَمْ يَعْهُدْ بِذَلِكَ إِلَى أَحَدٍ مِنْ رِجَالِهِ مِبَالَةً فِي الْحَرْصِ عَلَيْهَا فَلَمَّا شَنِي عَنَانَ جَوَادَهُ نَحْوَ ذَلِكَ الْمَكَانِ رَأَى بِالْقَرْبِ مِنْهُ فَارِسًا عَرَفَ بِنُورِ الشَّفَقِ مِنْ شَكْلِ الْفَرَسِ وَعَدَتْهُ أَنَّهُ بِرْ بَرِيٌّ فَاسْتَحْتَ جَوَادَهُ وَهُوَ مُطْمَئِنٌ الْمَاطِرُ عَلَى حَبِيبِهِ لِعَنْهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي جَنْدِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ يَحْسِرُ عَلَى تَخَاطِبِهِ بَعْدَ أَنْ اِرْهُو بِالْفَرَادِهِ . وَلَكِنَّ الْغَيْرَةَ مِنَ أَقْوَى ظَوَاهِرِ الْحُبِّ وَمِنْ أَكْبَرِ الْأَدَلَّةِ عَلَيْهِ . وَهِيَ عَمِيَّةٌ مَهِيَّةٌ لَا تَذَعُنُ لِلْعُقْلِ وَلَا تَهْنِي نَصْحَهُ — فَارَكَضَ هانِيَّ فَرَسَهُ وَقَلْبَهُ يَخْنُقُ غَيْرَهُ وَمَالَتْ أَنْ رَأَى الْفَارِسَ قَدْ وَقَفَ بِجَانِبِ الْفَتَاهَةِ وَسَمِعَهُ يَتَهَدَّدُ وَيَتَوَعَّدُ فَسَاقَ جَوَادَهُ حَتَّى تَطَافِرَتِ اطْرَافُ عَبَائِهِ فِي الْمَوَاءِ وَقَبْلِ الْوَصْولِ إِلَيْهِمْ عَرَفَ الْفَارِسُ فَنَادَاهُ « بَسْطَامُ » فَالْتَّفَتْ بَسْطَامُ وَعَيْنَاهُ نَقْدَحَانَ شَرِّاً وَهُوَ يَقُولُ « مَا بِالَّكَ أَيْهَا الْأَمِيرُ ؟ ؟ »

قال « تَنْجَحَ عَنْ هَاتِينِ فَانِي فَرَزَتِهَا لِنَشْيِي »

قال « وَكَيْفَ تَنْعَلُ ذَلِكَ وَهَا غَنِيَّتِي .. »

ولم يكن هانىء قد علق بالفتاة وتعقشها لما جادله عليها ولكن توقع ان يسترخي بسطاماً من باب آخر لعله يشره هو للاء البربرة للمال والغنايم فابتسם وهو يقول «هب انها غنيتك وقد رأيتك افردتها لنفسك فتجوز عنها لي ولبك على ما تطلبه من سهمي في الغنائم . . .» قال ذلك وهو يتضاعل بتسوية عرف ادھمه اظهاراً الاستخفاف بالمسألة واحفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة فأجابه بسطام وهو لا يقوى على كتم ما في نفسه «ذلك لا يكفي واذا كان لا بد لك من مقاسمت في هذه الغنيمة فانها امرأة ان خذ تلك وانا آخذ هذه» قال ذلك وأشار باصبعه اولاً الى الكبيرة ثم الى الفتاة

وكانت الفتاة واقفة بالقرب من رفيقتها وكلاهما صامتان تنتظران عاقبة ذلك الجدال . ومن الغريب انه لم يبد في وجه تلك الفتاة شيء من امارات الحوف كأنها وثقت بفوز حبيبها . ولكنها كانت اذا وقع بصره عليها ابسمت وفي ابتسامها اطرافه وتسبح فاذا حركت بصرها نحو بسطام قرأ هانىء في شفتيها كل ملاع الاستخفاف والبغض - وقد ادرك هانىء ذلك منها رغم ما نقاطر من جيوش الظلام . فلما سمع بسطاماً يعرض المقاسمة على هذه الصورة اعظم استخفافه به فأجابه بصوت هادئ ولكن ملته التهديد وقال «لا احب المقاسمة وانما هذه الفتاة لي فارجع الى معسرك وخذ سهمك مما بعناء من الغنائم والاسرى والسبايا»

فازداد بسطام هياجاً ووقف على الركاب بغلة حتى اجهل جواده وصاح قائلاً «لا يمكن لأحد ان يأخذ غنيمي مي ولو كان الامير عبد الرحمن نفسه . . . اما كفاكم معاشر العرب ما تسموننا من الخسف فستأترون بكل شيء دوننا لأن غير العرب ليسوا مسلمين - وانت تعلم اني قادر على ان اعرقل مسعاكم وارجعكم على اعقابكم فلا تتحققون بلداً ولا تكسبون غنيمة . . .»

فلما سمع هانىء ذلك التهديد كبر عليه أمره ولكن تصوّر ما يترتب على مجازاته من الضرار . وهو يعلم ان بسطاماً لا يفهم الاسلام ولا المسلمين فاذا غضب وغضبت قبيلته تتضخم الجند وهذا مالا يرضاه هانىء ولا عبد الرحمن . على ان حدة الشباب غلت عليه وانقضى بين يدي حبيبته فلم يتقلك ان هم بسيفه فاستلهم وهجم على بسطام لا يبالى اي عنزو يصيب منه . فإذا بالمرأة تقدمت بشوهرها الاسود وامسكت بعنان فرسه وخاطبته بالعربية قائلة « لا نقتلنا فما نحن غنيمة احد وقد كفى خاصاماً . . .» قالت ذلك بلسان اهل

الى من مع شيء من الجمدة . فبعثت الاميران وتعجبوا لما سمعاه بالعربية اما بسطام فانه ما زال مصمماً على طلبه وخصوصاً بعد ان سمع تهديد هاني له بين يدي تلك الفتاة وهي تفهم العربية . فقال لها « بل انتا غنيستي ... واداشت الانجيز الى هذا الامير فلا باس واما هذه فانها لي ... » قال ذلك والختن عن سرجه وتطاول وده بدء الى الفتاة وهو ان يمسكها فتباعدت وهي تنظر اليه شزراراً ولم تفطر . فتبعها فرسه فلما رأى هاني تلك الجسارة لم يعد يهالك عن الغضب وقد سرّه تباعد الفتاة لان في تباعدها تصريح بتفضيلها ايها وتغورها من بسطام . فاحسن ان تعقله وكظممه لا ينزعان مع هذا البربر ي شيئاً فهمز جواده والسيف لا يزال مسلولاً في يده فوثب الجواد وصهل كأنه شارك فارسه بعواطفه وتبعاً حادثة المرأة وقامها يختليج وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حواري جواد يudo نحوم من جهة المعسكر وصوتاً ينادي « هاني هاني احمد سينك » فالتفتوا فإذا بالفارس قد اقبل حتى دنا منهم وقبل ان يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه انه الامير عبد الرحمن . فاستغربوا قدمه في تلك الساعة على حين غفلة وبغتوا ولم يفه أحد منهم بكلمة ولم يهالك هاني عن اغداد سيفه

## الفصل السادس

مريم

وكان عبد الرحمن ربع القامة جليل الطاعة صبور الوجه عريض اللحية والجبة قد خالط شعره يياض . وكان كبير العينين مع حدة وذكاء غير يحظى افني الانف وقد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه عامة يضاً كبيرة . فلما وصل استولى السكت على الجميع فالتفت الى هاني وقال « اراكم تختصمون وتقترفون وكان قابي دلني على ذلك مذسحت بسطاماً يخاطب رسوله في خيستي فخفت الزراع بين امراء هذا الجند ونحن في اشد الحاجة الى الاجتماع فراقت رجوع بسطام فلما ابطأ اسرعت اليكم فآحمد الله على ذلك » فاعجب الجميع بهـر هذا الامير على مصلحة جنده وسعيه في جمع كلته واحسن هاني بتوييع خميره لانه تعاـدـه هو وعبد الرحمن على الاتحاد والاجتماع كما تقدم فقال « لم اكن

لَا خاصم مسلماً على شيءٍ وإن عرَّ ولكن بسطاماً يعترضني في سبيبة اختيارها من بين مئات بعنانِ إلا أن يبع السالم . فلو اتنا بعنانها بعض أولئك اليهود فما الذي كان يفعله . . . «  
فاعترضه بسطام قائلاً « كنت افتديها من شاربها بالذي يرضيه . . . »  
فتقصدت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجاش برابط وقالت « اظنني وافقة بين يدي عبد الرحمن الغافي أمير هذا الجند ؟ . . . »

فاستغرب عبد الرحمن نكلها بالعربيه وقال « نعم أني هو . وكيف عرفت ذلك . . . »  
قالت « عرفتك من سهرك على اجتماع جندك وقد كنت اسمع ذلك عنك - إن الاميرين يختصمان علينا وما نحن لواحد منهما ولكن لنا أمرًا انعرضه على الامير . . . »  
فراها عبد الرحمن تناطبه بمساراة لا تكون في الاسرى او السبايا فاجابها وزاده تهيباً  
ما آنسه من رزانتها وبساطة لباسها وسواده ووافت عينه في اثناء ذلك على الفتاة فاعجبه  
جمالها ومال بكريته الى استطلاع حقيقتها فقال للمرأة « قولي ما بدا لك »  
قالت « لا اقول شيئاً الآن وإنما اقصى حدثي على الامير في خلوة »  
وكان في ركب عبد الرحمن رجالان من خاصته فامرها ان يأتيها بفرسین يحملان  
المرأة ورفيقتها الى فسطاطه على انه لم يتكلّك وهو ينتظر قدوم الفرسين عن سؤال المرأة  
عن رفيقتها من هي فقالت « هي ابنتي . . . »

وكان هانئاً واقفاً صامتاً وقد وقع في حيرة من أمر الفتاة وامها وخاف ان يكون في حدثيث  
الوالدة ما يحول بينه وبين ابنته وقد ازداد تعلاقاً بها بعد ما عاينه من رغبتها فيه واحسن  
انها تحبه جداً شديداً فاغتنم اشتغال الامير بخطاب المرأة ودنى من الفتاة واراد ان يسمع  
حديثها ويستطيع امرها فقال وصوته يذلل على هيامه « ما اسمك يا فتية . . . »  
فأجابته بصوت ادل على لوعج الحب وبالسان عربي فصفع « اسيي مريم » فأعجبته غنة  
صوتها وزاد افتتانه بها للشقة في لسانها تطرق بها الراء غينًا فكانه سمعها لقول « اسيي معين »  
قال « وانا اسيي هاني . . . هل حفظته كلام حفظت اسمك ؟ . . . »  
فأدركت غرضه وقالت « لقد حفظته قبل ان اعرفه فكيف بعد ان عرفته ورأيت  
منه ما رأيته » ففرح بذلك اسرها وسرعة خاطرها واطمأن بالله من نحوها فاجابها وهو يقلد لشغفها  
تحبباً « انججو ان تكون معففة مباغكة »  
فابتسمت مريم ابتسامة اخذت يجتمع قلبها وتورّدت وجنتها . . . خجلًا واطرت اطراف  
الحياة وتشاغلت باصلاح ذيل منطقتها

اما بسطام فكان يراها يتكمان والحقن يكاد يختنقه وهو لا يجسر على الكلام في حضرة الامير ولكنها اخمر لهما الشر . وبعد دنيمة جاء الجوادان فركبت مريم وامها وساقوا الخيل الى المعسكر وكان هانئ لا يرفع نظره عن مريم فرأها امتعات الفرس باسرع من لمح البصر كأنها ولدت على ظهور الخيل فازداد هياماً بها . ولكنها ما زال موجساً من تلك الظاهرة حتى اذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن وهي اكبر الخيم وفي باهها الاعلام التفت عبد الرحمن الى هافه وقال « عد الى تدبير امر الجندي وكن كعبدي فيك فانتا في بلاد العدو » والنفت الى بسطام وقال « وانت يا بسطام امير ذو بعاش فامض الى شأنك وانس مدار يبنك وبين هانئ .. اتنا مقبلون على فتوح كثيرة وستهيبة من الغائم والسبايا ما يعرض عليك اضعاف هذه الخسارة .. »

فصار الاميران وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وامها للنزول فنزلتا ودخلتا الخيمة في اثره وفي يد الوالدة تلك المحفظة وقد شدتها الى زندها وقبضت عليها لكنها كأنها تخاف ان يخنطها احد من يدها

## الفصل الرابع

### الخلوة

فلا دخلوا الخيمة اشار عبد الرحمن الى من كان فيها من الامراء والحاشية فخرجوا جميعاً وبقي هو والمرأة وابنتها وقد تشوق لاستماع ذلك الحديث فجلس في صدر الخيمة على بساط ثمين كانوا قد خصوه به من غنائم ذلك اليوم واجلسهما بين يديه . فالتفت كل منهما بردايتها الاسود والنقاب الاسود على رأسيها . فنظر عبد الرحمن الى وجه المرأة على نور الصباح فرأى الجمال لا يزال بادياً في وجوبها مع تجاوزها سن الشباب . ونظر الى مريم فرأى بصره قد علق في عينيها الجذابةين وقد زادها التذكر والاطراق هيبة فسبح الخالق على ذلك الصنع العجيب . ثم غالب عليه شوقه الى استماع تلك القعة خول نظره الى المرأة فرأى الاهتمام ظاهراً في عينيها وهي تتنظر الاشارة للشرع في الكلام فقال لها عبد الرحمن « من انت يا خيبة وما خبرك وما هو غرضك؟ »

قالت «اما خبری فساطعک علیه في فرصة اخرى . واما غرفی فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق امانیه

فِيمَا سَمِعَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ كَلَامَهَا إِسْتَغْرِبُ تِلْكَ الْغَيْرِفَةَ مِنْ امْرَأَةٍ لَا يَعْرِفُ مِنْ هِيَ وَقَدْ تُوْسِمُ فِي كَلَامَهَا وَإِنْ كَانَ عَرِيَّاً شَيْئاً مِنْ الْجَمْهَةِ . فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَطِعْ حَقِيقَتَهَا فَقَالَ لَهَا «مَا الَّذِي حَمَلْتِ عَلَى هَذَا الْفَرْضِ وَكَلَامَكِ يَدْلِلُ عَلَى أَنَّكِ غَيْرَ عَرِيَّةٍ وَقِيَافَتِكَ وَلِبَاسُكَ يَدْلِلُانَ عَلَى أَنَّكِ غَيْرَ مُسْلِمَةٍ فَلَا يَعْقُلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ غَرْضُكَ فَاصْدِقِينِي»

فنظرت اليه نظر الاستغراب وقالت «لم امثل بين يدي الامير عبد الرحمن الغافقي لا اافق له حديثاً مكتذوباً ولا أرى فراسته في صحيحة لاني وان كنت غير عربية ولا مسلمة فليس ثمة ما يمنع غيري على نصرة العرب او المسلمين . وفي نفس هذه المدينة وفي غيرها من مدن النصارى والافرنج من يؤثر انتصار المسلمين العرب على انتصار النصارى الافرنج لاسباب لم اكن اظنهما تختفي على مولاي الامير»

فأطرق عبد الرحمن وقد تضاعف استغرابه ولكن صبر إلى النهاية لعله يستنشق شيئاً في عرض الحديث يكشف له الحقيقة فقال لها «لم افهم مرادك ..... هل يعني اهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم ؟ ..»

قالت « كانوا يتمنون ذلك مذ سمعوا بحال الاسبان بعد دخولهم في حوزة العرب  
لأنهم رأوا هم انقلوا تحت ظل الاسلام من الرق الى الحرية ومن الظلم الى العدالة . . . . . »  
قال « وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأي »

قالت «نعم»

فقال « ولماذا .. ؟ ارجو الافصاح »

قالت «لَا يخفى على مولاي ان المسلمين لا فتحوا اسبانيا منذ ٢٢ عاماً عاملوا اهلها بالرفق والحق فلم ينبعوا بيعه ولا سفكوا دمًا بريئاً ومن اختراب القاء على دينه حافظوا على عهده ومن اعتنق الاسلام وكان عبداً فانه يصير حرّاً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم - وكان حكام القوط يعدون رعاياهم ملوكاً لهم يستخدمونهم في منازلهم وحقولهم استخدام الارقاء فلما جاء المسلمين فتحوا بلادهم خير لهم بين الاسلام والجزية وان من اسلم وكان عبداً صار حرّاً فتهاافت جانب عظيم من اولئك الارقاء الى الاسلام استهلاكاً في سبيل الحرية لانها كانت عزيزة عندهم لانيالها الاَّ افراد قليلون مكافأة على شجاعة عظيمة او خدمة ذات بال . وعم ذلك فان المعتقين في ايام القوط والرومان لم يكونوا يتبعون بكل حقوق الاحرار وانما

كانوا وسطائهم وبين الارقاء . اما المسلمين فمن اسلم من رعاياهم عاملوه معاملة الاحرار تماماً ومن ظل على الصريانية تركوا له الحرية في معاطاة دينه وعاداته وأدابه وسائر معاملاته حتى الحكومة والقضاء<sup>(١)</sup> فأحسن الاسпанيون انهم انتقلوا بالفتیح الاسلامي من الضيق الى الفرج ومن الرق الى الحرية فشاع ذلك في سائر أنحاء هذه البلاد فرأى موسى بن نصیر سهولة الفتح عليه لهذا السبب فعزز على اقامته حتى يعود الى دمشق من طريق القسطنطينية بعد ان يفتح كل اوربا . ولكن المسلمين عبّروا عليه وعلى ابنته عبد العزيز رحمها الله مما لا يخفى عليك . ولو لا ذلك لتم الفتح للمسلمين من ذلك الحين وكانت هذه البلاد التي جئتم لفتحها الآن ملكاً لهم منذ نيف وعشرين سنة . ولكن الذين خلفوها على امارة الاندلس كان معظمهم من اهل المطامع فساواوا الى النصارى والى المسلمين من غير العرب ففسدت النيات وشاء خبر ذلك في هذه البلاد فاصبح فتحها صعباً لان اهلها لا يرون فائدة من الانتقال الى دولة غير دولتهم دينها غير دينهم ..

## الفصل الثامن

هاني

ولما بلغت الى هنا توقفت وتنجحت وتشاغلت بسع فها وعبد الرحمن ينظر اليها وهو يستغرب حدتها لما فيه من الحكمة وسعة الاطلاع وجعل يتأمل ملامحها ويفكر في من عسى ان تكون هذه المرأة وصبر لعل في خاتمة حدتها ما يكشف له الفناء عن حقيقتها ولكنه أراد ان يستنطقها خلسة فاغتنم سكوتها وقال لها « يظهر لي انك اكثر اطلاعاً على حقيقة الاحوال من معظم رجالنا واشدُّ غيرة على مصلحة المسلمين من المسلمين انفسهم ... ثم تنهى وقال « ان الامر الذي ذكرته يا أخيه هو الواقع بعيشه واظنك سمعت اني استدركته قبل اقدامي على هذا العمل فلم اخرج الى هذه الحرب حتى طفت مدن الاندلس وغيرها ففتحه المسلمون من بلاد الافريقي (فرنسا) وتعهدت احكامها وعزلت الضعفاء واهل المطامع من امرائها وابدلتهم برجال من اهل الدراسة والحكمة ليحسنوا سياسة الناس على اختلاف التخل

(١) دوزي ج ٢

ورددت على النصاري كنائس كان بعض الامراء المسلمين قد اغتصبواها منهم واعدت ما كان لهم من العهود من زمن موسى بن نصیر وابنه عبد العزيز<sup>(١)</sup> . وقد بذلت الجيد في هذا السبيل لعلی ان الاسلام يأْمننا بذلك وان الصحابة الاولين لم يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح الاَّ بما كانوا يتلوونه من الرفق ومعاملة اهل الذمة بالحسنى والعدالة . . .

فقالت وهي تصلح نقابها والتذكير ظاهر في عينها «قد عملت بكل ما فعلته وما تفعله وكل ما نويته وما تنويه ولذلك كنت اتوقع لك الظاهر . . . ولكنني رأيت خلاف ما سمعته فصرت أخاف فشلك . . . »

فقال وهو يستغرب حريتها وتعقابها «وكيف ذلك؟ . . . »

قالت «اذنك تعلم ما اعمله من هذا القبيل ويکفي ما شاهدته الان بنفسك ما بين هانىء وبسطام الم يکد يسكن الدم بينها من اجل هذه الفتاة؟ . . . » وأشارت الى مريم وكانت جالسة بجانب والدتها تسمع حدثها باهتمام وشوق كأنها لم تكن تعرف منه شيئاً

فلا سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل بصلاح شارعيه وحلَّ عنونه بين سبابته وابهامه وظهر التأثير في عينيه وجبينه . والنت الى المرأة وهو يحاذر ان يتنهى وقال «ان ما رأيته انما هو من قبيل المافسة بين اميرين على سبية حمillaة وما ذلك بالأمر الغريب . . . »

فضحكت ضحكة اغتصابية وقالت «الامير عبد الرحمن الغافقي لا يجهل ان سبب هذه المافسة انما هو فساد نيات الامراء فيما بينهم لاخلاف اغراضهم في هذه الحملة لاتكثفهم جاؤا للنهب والسلب وخصوصاً البراءة ومن على شاكلتهم - فهو لاء لا يفهمون معنى الجهاد او الفتح ولا يعرفون ما هو الاسلام لأنهم انما آتتوا اليه رغبة في الغنائم ومن كان هذا اغرضه لا يهمه رضي اهل البلاد او غربوا - بذلك على ذلك ما رأيته بنفسك في اثناء هذا النعم اليوم فان بعض رجالكم لم يميزوا بين المنازل والكنائس ولا بين الرهبان والغاية . فقد نهبو كنيسة بوردو وهي من اعظم كنائس الغاليين فأصبح هو لاء فضلاً عن نفوذهم من المسلمين يعتقدون ان صاحب هذه الكنيسة سيتقم لهم منكم . . . »

فلم يقال ذلك عبد الرحمن عن قطع حدثها فقال «نهبوا الكنائس؟ . . . نهبوا؟ . . . رغم ما اوصيتم به من المحافظة عليها واستبقاء كراهة القسس والرهبان . . . ؟ » ثم صدق وصاح

(١) رينو، ورومي ج ٣

« ياغلام » فدخل رجل من غلاته الذين يقفون ببابه خفيف اللباس خفيف العضل من يقتنونهم لمراسلة ونحوها . فابتدره حال دخوله قائلاً « ادعِ الامير هانئاً الساعة » فأشار الغلام اشارة الطاعة وخرج . فجعلت المرأة بالكلام قبل خروجه وقالت للامير « فاتني ان اطلب اليك الافراج عن خادي فإنه أخذني في جملة الاسرى على شيخوخته وعلى كونه عريباً . . . »

فنادى عبد الرحمن الغلام فوقف فقال له « وقل للامير هانئ انت في الاسرى شيخنا » والتفت الى المرأة وقال « وما اسمه . . . » قالت « اسمه حسان » فقال « قل للامير ان في الاسرى شيخاً عريباً اسمه حسان فليأت به معه . . . » ولا تسل عن مريم عند ما سمعت اسم هانئ فإنها أحسنت بنبضان قلبها بفترة وكانت جالسة مطرفة فتحركت واعتدلت في مجلسها . ولو انتهى عبد الرحمن لوجهها لرأى فيه احمراراً يشف عن شاغل قلبي ظهرت آثاره في بريق عينيهما

قضوا مدة غياب الرسول صامتين وخصوصاً عبد الرحمن فإنه لم يث مطراً وهو يلاعب لحيته بين اصابعه يبطأ كأنه يخاف العجلة ان تشوش على نجاري افسكاره فتقطعها او تعترضها . وسكتت المرأة تهيباً لنظر عبد الرحمن . وبعد قليل سمعوا وقع حوار جواد ثم سمعوا صهيلاً فعرف عبد الرحمن انه صهيلاً الأدم وان هانئاً قادم . ولم تمض هنئية حتى دخل ذلك الغلام وقال « ان الامير هانئاً بالباب » فقال عبد الرحمن « يدخل »

وقبل ان يرجع الرسول بالاذن اقبل هانئاً كأنه داشر الى بيته نظراً للدالة التي كانت له على الامير وكان لا يزال ثبوته الاحمر وسيفه المرصع وسائر سلاحه . فلما رآه عبد الرحمن داخلاً لم يتمالك ان بشّ له ورحب به ودعاه الى القعود بجانبه فقعد وبصره في مريم والدتها ولكنها تشاغل بالاتفاق بعباءته وهو يصلح مجلسه . اما مريم فانها اطرقت حياءً وعينها تسترقان النظر الى هانئاً وتراعي كل حركة من حركاته . ودخل في آخر هانئاً شيخاً ظاعناً في السن عليه لباس اهل غالياً وعلى رأسه عامة صغيرة وقد شباب شعره مع كثاثة واسترسالت لحيته كثيفة وخف عضلاته وتغضست جبهته وتتجدد خطاه ورقبته حتى يتوم الناظر اليه انه في حدود التسعين واذا تكلم او مشى او همس لحفنة حركة حركته وشدة عارضته انه في مادون الستين . فدخل الخيمة وعليه قبة الى الركبة بعضه مبطن بالجلد . واما ساقاه فكانتا عاريتين وقد غشاها شعر كثيف لا يبيان الجلد من تحته وقد شد بقدميه نعلين من صنع

بوردو - ووقف الشيخ بباب الفسطاط فلما رأه عبد الرحمن أشار إليه أن يقعد فقعد هناك متأدباً . أما هانيء فلما قعد قال له عبد الرحمن « اذنك تعبت في هذا اليوم يا هانيء . . . » قال « ما في الحرب من ثعب اذا كانت خاتمتها النصر كـما كانت خاتمة حربنا مع هذه المدينة بعون الله وسيف الامير عبد الرحمن . . . » قال « لم يكن عبد الرحمن يدُّ في هذا النصر وإنما تمَّ بك وب الرجال وسائر المسلمين . . . على أيٍ لم ادعك للبحث في ذلك وإنما دعوتك لامر ذي بال فارعني سمعك . . . » فاصاح هانيء بسماعه وتطاول بعنقه وقال « قل . . . » قال « أتعلم السبب الذي ساعد المسلمين على فتح الدنيا من أيام الصحابة إلى اليوم . . . » قال « أعلم ان الله نصرهم بالاتحاد والاجتماع وهذا هو الامر الذي نتوخاه في كل حركة من حركاتنا » قال « أنا أعلم ذلك وانني قد اتيتكم بـأكبر مساعد لي في جمع كلمة هذا الجند الكبير المختلف المقصود والأغراض وتحتمل معي مغضض التوفيق بين تلك المخلفات المتناقضات ولكن هناك سبباً آخر ساعد السلف الصالحين على الفتح وايد دولتهم . . . أتعلم ما هو ؟ »

— — — — —

## الفصل التاسع

فأَ طرق هانيء واعمل فكرته وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستجعى جوابه فقال هانيء « إن الذي أعلمك أن دولة الإسلام تأسست بالعدل والرفق . . . »

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « ذلك هو بعيئه . . . لأن العدل أساس الملك والرفق بالرعاية يدعوهم إلى الطاعة والمحبة وخصوصاً أهل الذمة من النصارى واليهود وعلى الأخضر والرّهبان والقسّيس اصحاب البيع والكنائس - فقد ورد النهي عن اذيّتهم في كتاب الله وفي حديث رسول الله ولذلك كان الحلفاء الراشدون اذا انفذوا جنداً الى حرب اوصوم

باهل الذمة خيراً ومنعهم من اذبتهم وامرهم بالكف عن الكنائس واصحابها<sup>(١)</sup> الا تعلم ذلك ؟ ..

قال « نعم اعلمه جيداً ونحن طالما تحدثنا في مافرط من بعض الخلفاء وامراء الاندلس من هذا القبيل وتواثقنا على منعه .. »

قال « فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو في هذا النهار ونهب آنيتها واذية رهبانها ؟ .. »

فظاهر الغضب في وجه هانيء مع الاستغراب واطرق لحظة ثم هزَ رأسه وهو يقول « قبح الله بسطاماً ما اطعمه وما اقلَ طاعنه .. اني نهيته بنفسه عن هذا الامر ونحن في اثناء الواقعه بعد ان رأيت منه ومن رجاله ميلاً الى النهب بلا مراعاة .. وقد علمت بما في كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب بخفت ان تسوقه الطعام او تسوق احداً من قبيلته الى نهبه فاستوقفته في وسط المعركة وقلت له احذر ان يتجراً احدمن رجالك على الكنائس او المعابد او القسس ونحوهم .. فاجابني بالسكتون فظننت من تلك الساعة انه لا يبني الا جابة لما تعلم من طمعه وقوته .. . . . . . »

فابتدره عبد الرحمن قائلاً « اطنن تلك فعلة بسطام ؟ »

قال « لا اطن احداً سواه يجرأ على ذلك بعد ما كان من تشديدنا في منعه .. وقد رأيت مع بعض رجاله في اثناء قسمة الغنائم صلباناً من ذهب وبماخر من فضة مما لا يكون في غير الكنائس .. »

فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل فقال « ادع الامير بسطاماً » وبعد خروج الغلام ثفت عبد الرحمن الى هانيء وقال « لا تخف من غضبي عليه فاني ساخاطبه باللين لما اعلمه من فظاظته وغلوظه والاً افسدنا الجند علينا .. »

فقالت المرأة « مالكم ولذا النصیر الخطير .. ما كان اغناكم عنه وعن قبيلته .. » فنهض عبد الرحمن وقال « لو شئنا ان ننقى جندنا من امثال هؤلاء الغلاط لاقتضي ان نخرجده من اشد رجاله واكثرهم عدداً ملان في جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط والانباط وغيرهم وفيهم من لا يزال على اليهودية او النصرانية او الوثنية او المحبوبة واما يتظاهرون بالاسلام<sup>(٢)</sup> - والبربر

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ٥٦ ج ١ (٢) البيان والتبيين للباحث ج ١

من اشجع الام لا يهابون الموت ولا يخافون العدد - والحق يقال انهم هم الذين فتحوا لنا اسبانيا وسلوها اليينا ولو اردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هذا الفتح لأن العرب لا يزالون الى اليوم قليلاً العدد بالنظر الى مثل هذا المشروع العظيم . فاستخدام البربر في هذه المروء يفيدنا كثيراً وانما يطاب منا ان نحسن السياسة في معاملتهم لثلاً نفذه لهم وهم انما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها وهذا امر ميسور لهم لأننا كثيراً ما تنازل لهم عن الغنيمة لخطفهم في الجهاد لمصلحة المسلمين وإن لم يكونوا كلهم مسلمين في قلوبهم .. .

فأعجبت تلك المرأة بتعقل عبد الرحمن وسعة صدره وقالت له « أخلاق بجند انت قائده ان يعود ظافراً منصوراً »

فلا سمع ذلك الاطناب مال يبناه الى هانئ والقى يده على كتفه وقال « هذا هو يدنا التي لانه قائد فرساننا » فتجلى هانئ لهذا الاطراء واراد ان يعتذر واذا بالرسول قد دخل وهو يقول « الامير بسطام في الباب »

فقال عبد الرحمن « يدخل »

فدخل بسطام وعباته مطلقة من الامام وسيفه يجر ورائه عمامة مع صغره منحرفة من جانب رأسه الى الاذن وفي يده بقية عنقود من العنبر كان يأكله في اثناء الطريق فلما رأى نفسه في حضرة الامير تراجع ورمى تلك البقية وعاد وفي مشيته وحمل منظره تيه واعجب به ولذلك لم يكن يستطيع مخاطبة عبد الرحمن الا بالاحترام لانه على كونه اميره لم يكن يسمع منه الا كل ما يطيب خاطره ويدعوه الى احترامه لما قدمته من حسن سياسة عبد الرحمن ورقه جانبه - وربما توهم بعضهم ان الرئاسة ائمه يتآيد نفوذ صاحبها بالغلظة والكربلاء وشدة الوطأ ولكن ذلك من الاوهام الباطلة لأن الرئيس الشديد الوطأ قد يملك السنة مرؤوسه واما الوديع الرقيق الجاذب فانه يملك قلوبهم ورفاقهم - فلما دخل بسطام حياً فبسأله عبد الرحمن ودعاه للقعود فقعد وهو يحيط نظره في اطراف الخيمة فرأى مريم وهائلاً فتوهم لأول وهلة انه دعي لا مر يتعلق بهما ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه قائلاً « دعوناك يا امير لنسألك عن امر مهمك كما يهم من الان المصلحة واحدة وهي رفع منار الاسلام وتأنيد كلة الله .. . »

فانشرح صدر بسطام لهذا الاطناب لات البربر لم يكن العرب يعاملهم الا معاملة المولى كما ثقى فلما سمع بسطام ذلك الكلام قال « يا امير يا ما يشاء وله ما يرضيه مني فاني اطوع له من بناته »

قال «بورك فيك ونفع المسلمين بسيفك .. اما الامر الذي استقدمناك لاجله فهو ان بعض نصارى هذه المدينة يشكون ما اصاب يعترض من النهب وهم كما لا يخفى عليك اهل كتاب قد اوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم ويعترضون وحده وصاً اتنا في احوال نفعي علينا بمحاسنة اهل هذه البلاد حتى يهون علينا الفتح وينحن سائرتون الى بلاد امنع ورجال اشد من اهل هذا البلد . فاذَا اعتقدوا فيما الرفق والعدل ساعدونا — ولذلك كنت كثيراً ما اوصيكم بالاعفاء عن اماكن العبادة على يد اخينا الامير هابي . فاذَا كنت على يينة من امر تلك البيعة ونبهها ارجو ان تسعى في رد ما نهب من آيتها وادواتها ..»

## الفصل العاشر

### العرب في اسر الافرنج

فقال بسطام «لا انكر على الامير سداد رأيه في هذا الشأن وقد كا الى اليوم ونحن نراعي هذه القاعدة ونتحترم البيع حتى رأيت في هذا الصباح امراً اقشعر له بدفي ولم املك عن الانتقام له بنهب تلك الكنيسة — رأيت في بعض منازل هذه المدينة رجالاً من المسلمين وغلانًا ونساء يستخدمون اهلها استخدام العبيد الارقاء ..» . نعم لا انكر حقهم في ذلك لأننا نفعل باسراهم مثل هذا الفعل . ولكنني رأيت بعض الاسرى المسلمين مقيدين بالاغلال الحديد في ارجلهم والاحمال الثقيلة على ظهورهم وقد ساقوهم الى العمل في الكروم سوق الدواب <sup>(١)</sup> فلم املك عند مشاهدي هذه القسوة من الانتقام بنهب كل مائفع يدي عليه — لم استثن كنيسة ولا ديرًا ..»

فما بلغ بسطام الى هذا الحد التفت عبد الرحمن الى المرأة كأنه يستفتها في ذلك فقالت «لا انكر على مولاي ان معاملة الافرنج لاسراهم من العرب اكثر شدة من معاملة المسلمين لاسراهم من الافرنج وان تسلي الافريقيان في اعتبار الاسرى ملوكاً للغالبين بيعونهم بيع السلع ومقى دخل الاسير في حوزة مالكة استعمله في ما ينفعه من فلاحه او زراعة او خدمة في شيء ولا يزالون عبيداً لهم واولادهم الى سلالات عديدة حتى يقتدي بهم اهلهم او اصدقاؤهم بالمال او غيره . اما المسلمين فان رجوع الاسرى الى الحرية عندهم اسهل مما عند الافرنج

(١) دينو

واما ثقييدهم بالسلسل فالغرض منه على ما اظن منعهم من الفرار اذ ربما حاولوه مرة ولم يظفروا فاثقلوهم بالاغلال ليمنعوهم منه .. . . . .

قطع عبد الرحمن كلامها ووجه خطابه الى بسطام قائلاً «هب انهم فعلوا ما نقول فالعبرة في الشيجة واذا كنا نأقى مثل ما اتاه هؤلاء فأي فضل لنا وبإذا نتوقع النصر في الدنيا والنعيم في الآخرة . فالذى يهمنا ان نعمل بقتضي الكتاب والسنة ونقتدي بالسلف الصالحين . و زد على ذلك ان طمعنا بالقليل من الغنائم قد يأول ال فشانا ويقف في سبيل الفتح فتخسر اضعاف تلك الغنائم ناهيك بالفشل وما قد يتحققنا بسببه من العار» ثم وجہ خطابه الى هانىٰ وقد بدا الاهتمام بين حاجية وقال «لا يخفى عليكم اننا ساعون في عمل اثن كثيراً من الذهب والفضة والآنية واعظم من ان يقاس بالحظام الذهانية . نحن ساعون في فتح هذا العالم الكبير – فإذا توفقا الى تفتحه كسبنا الاموال والارواح ونشرنا الاسلام في قبائل من اهل النصرانية والوثنية لا يخصيها الا الله فنملاك المدن والرقب وتحتفق رياياتنا على رومية والقسطنطينية وغيرها من عواصم النصرانية ويسير صعلوكنا اميرًا وفقيراً غنياً فتحز يا بسطام ما شئت من الذهب والفضة والجواهر وتملاك ما تريده من الجواري والغنائم . . . . . واذا كنت مخطئاً في قولي فنبهوني . . . . .

فأدرك هانىٰ ان عبد الرحمن انا ينتظر الجواب من بسطام احياناً عليه في اجابة الطلب فقال بسطام وقد سحر بلطف عبد الرحمن وتحيته «انك مصيبة كل الاصابة والحق يقال ان البربر وغيرهم من الموالي لم يتتصفو في حقوقهم بازاء العرب مثل انتصافهم في ايامك . فقد كان اسلافك ولا يزال كثيرون من امراء العرب الى اليوم يعدون المسلمين من غير العرب عبيداً فإذا حاربوا معهم في واقعة لا يقاسونهم الغنائم كما يقاسمون العرب<sup>(١)</sup> فلا تظنين غافلين عن هذا الفضل . . . . .

قطع عبد الرحمن حد بيته قائلاً «لم اعامل غير العرب الا بالعدل لان المسلمين اخوة . . . . . والآن اسرع الى الغنيمة قبل اقتسامها ومعك الامير هانىٰ فاستخرجوا آنية الكنيسة واحملوها اليانا لتنظر في اعادتها الى اصحابها »

خرج بسطام وهو متمنع الصدر بما آتته من الرعاية والاطراء ونبي ما كان في نفسه على هانى بشان مريم – واهل النظاظة والخشونة من اقرب الناس الى المصادفة مخلوق لهم من نتائج الكلم فإذا ساءهم احدٌ بعمل جاهروا بما في نفوسهم عليه فهم لا يحقدون . . . . . وخصوصاً في

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢

حال مثل حال بسطام بالنظر الى مريم فانه انما كان يطلبها لانه استطاعها وعد نفسه بها ولكن لم يعلق بحبها كما فعل هانى . اما هذا فانه سار في اثر بسطام وظل قلبه في ذلك النساطط اولعه استعراض منه بقلبه مريم لانها أحست عند خروجه كان قلبه اقتلاع من صدرها وخفت النضيحة لظهور اثر ذلك على وجهها فتشاغلت باصلاح الخمار الاسود فلما خرج الاميران التفتت المرأة الى عبد الرحمن وقالت « يا ذن مولاي الامير بارسال فتاتي هذه مع هذا الشيخ الى مقر نقيم فيه تحت حمايتها ربيأتم حديثي معك ونرى ما يكون » .

فصدق عبد الرحمن وصاح « يا غلام » فدخل احد الغلمان فقال له « شيع هذا الشيخ وهذه الفتاة الى خباء نسائي واوصي قيمة الخباء باكرامها وان لا تدعها في جملة الجواري واما هي ضيفة علينا اكرامها ورعايتها » .

فاستحسن المراة ذلك والتمنت الى حسان وقالت « سر يا عمه مع مريم في حيطة مولانا الامير وكن معها حتى آتيك » . فاشار مطيناً وخرج وهو يتوكى على عكازه وخرجت مريم في اثره والغلام امامها

## الفصل الحادى عشر

### بعض السر

فلما رأى عبد الرحمن من تلك المرأة التباس الخلوة توهم انها تستطلعه على سرّها فلما خلوا بادأها هو بالكلام قائلاً « اطلعني يا اخيه على اسمك قبل كل شيء ... لأن لديك به على الاقل ... » .

قالت « اذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمي فنادني سالمه » قال « لقد ادهشني يا سالمه ما رأيته من غريب شائق وأرافي كلما سمعت حدثتك ازداد رغبة في استطلاع حقيقة أمرك . وكأنني بك قد التمست الخلوة رغبة في مكاشفي بسرّك ... » .

فاصلحت سالمه من شأنها والتمنت بشورها وانفخت يديها في كمها وفيه المحفظة ونظرت الى عبد الرحمن والاهتمام باد في عينيه وقالت « اعلم ايمها الامير انك تحاطب امراة غير

عربية وغير مسلمة ولكنها من أشد الناس غيرة على العرب وعلى المسلمين . واستأذن مولاي الامير بالاقتصار على ماعرفه من أمر لا سباب ستبدو له قريباً ان شاء الله . واما الان فاني اهب نفسي خلدة المشروع الذي قدم لأجله فأبذل ما في وسعني في سبيله »  
فاستغرب عبد الرحمن تسرها وخوف ان يكون من ورائه خديعة او دسينة فقال لها « ومن يضمن لنا انك تقولين الصدق ؟ »

قالت « لقد اعجبني سوء ظنك في .. ولم يد ذلك منك لاستضعفتك لأن من كان قائداً مثل هذا الجندي الكبير لا ينجو من اهل الخداع والدسائس فان لم يسى ، الظن في كل احد بات في خطر من دسائسهم . اما دعواي فلو سرت لك بأمر يطعن عليك تصدقها واما الان فيكفي دليلاً على صدق ما أقول ان اجعل ابني ووحيدتي رهيناً بين يديك فان بدرت متى بادرة تدل على الخيانة او الغدر افعل بها ما شئت .. »

وكان كلام سالمة نبهه الى ما يحدهق به من اسباب الخداع والذكر بالغ في اساءة الظن بها فقال لها « ومن يوكل لك انها ابنته فان الشبه بعيد ينكم .. ويظهر انها عربية وما انت كذلك »

فأطرقت سالمة هنيهة ثم قالت « اما هذا فلا سبيل الى اثباته بغير الاستفهام من الفتاة نفسها والخادم الشيخ فانه عربي مسلم وهو وحده المطاع على سرى ولكن لا يروح به الا في حينه فاسأله .. » قالت ذلك ولائل الاخلاص وصدق الاهبة يتجليان في عينيها وبها يدا في وجهها من امارات الحياة والاهتمام فتحقق عبد الرحمن بفراسته انها تقول الصدق فاكتفى بقولها وقال « لقد صدقتك يا سالمة فأخبرني متى ياؤن كشف سرك .. »

قالت « وكشف هذا السر غير مقيد بزمان وانما هو مرهون بحدث لا يجوز كشفه الا بعد حدوثه »

قال « وما هو ذلك الحادث .. »

قالت « لا أقوله الان وانما يقربنا منه صدق النية في فتح هذه البلاد وسرعة التجاوز وهذا هو الامر الذي وهبت نفسي له فاذا اذن مولاي ان اساعدك فيه فعلت »  
فلبث عبد الرحمن ساكتاً وهو مطرق يذكر في ما سمعه ويحمله في ذهنه فرأى منتاج السر كله في معرفة والد الفتاة مريم فرفع بصره الى سالمة وقال « وهو يلاعب اطراف حمائل السيف بين انامله » لا باس من تاجيل خبارك وانما الترس هناك امراً هل تصدقيني

فہرست

قالت « اذا استطعت ذالك فعلته »

قال «أريد منك فقط أن تخبرني من هو والد هذه النبتة وain هو ؟ .»  
فلا سمعت سؤاله بفترة وتصاعد الدم الى وجهها وتغيرت سختها . وبدت الكآبة في  
جيئها وحول فمها وأطربت مدة لا تكلم ثم رفعت بصرها اليه وقد ابرقت عيناهما باغشها  
من الدمع وقالت «تسألني عن مكان ابيمها وانت تراني في هذا الشوب الاسود . . . ؟»  
قالت ذلك وامسكت طرف الخمار بين الابهام والسبابة وقد غصت بريقها

فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان فقال «لم يكن مرادي تذكيرك به صالح بوفاة زوجك وإنما أردت معرفة اسمه - ولا أرى مانعاً من اطلاعه عليه ونحن في خلوة ليس فيها ثالث واعاهدك على كرتان ذلك عن كل انسان . . . لا اطلب منك الاطلاع على سرك وإنما أريد معرفة اسم زوجك» قال ذلك وهو يتوقع اجابته على سؤاله

اما هي فلما رأت الحاحه في معرفة اسم زوجها بدا الغضب في وجهها وقالت « يظهر اني اخطأت في عرض نفسى لكم حتى لاقيت ما أرآه من الالاحاج على» والضغط على افكارىي - لو كان التصریح باسم ذلك المسكين ممكناً فعلت ولم اكتنفك هذا العناء في السؤال ثم اني لا ارى فائدة من ذكره الان وسيأتي وقت تعرف فيه كل شيء »

فاسئغرب عبد الرحمن تكتمها وازداد رغبة في معرفة سرها ولكنه لم يير الزاهي ذلك فهراً مراءعاً لحالاتها وطمعاً في الانتفاع من خدمتها فجاءها من جهة أخرى فقال «حسناً يقى سؤال واحد ارجو ان لا يكون حظي في الجواب عليه مثل حظي في سواه هل اقوله ؟ »

قالت «قل ما بدارك»

قال «أرى ابنكِ من الجمال في ماليـس بعدهـ غـاـيـة وـهـيـ فـيـ سنـ الزـوـاجـ وـاـنـتـ وـحـيـدةـ فـلـمـاـذـاـلمـ تـزـوـجـيـهاـ شـابـ تـعـيـشـيـنـ فـيـ حـمـاـيـتـهـ ؟ـ وـلـاـ رـيـبـ عـنـديـ انـكـ تـجـدـيـنـ مـنـ الطـلـابـ مـنـ نـقـرـءـ بـهـ عـيـنـكـ لـمـاـهـيـ عـلـيـهـ مـنـ الجـمـالـ وـالـمـقـيـمةـ »

فالافتتت سالمة وقد انقضت علامات الكآبة عن حياتها وتحولت انقباضها الى الانساط

وقالت «اما هذا السؤال فلا يأس من الجواب عليه . . .»

فاستبشر عبد الرحمن وقال «وما هو»

قالت «ان الابنة خطوبة من طفوليتها»

قال «من»

قالت «لرجل مسلم يغار على الاسلام وال المسلمين وبكره الظلم والظلمين باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس»

قال «وما اسمه؟»

قالت «لمست على يقين من معرفة اسمه الان . . .»

قال «وهل تعرفه ابنته؟»

قالت «لا اعرفه انا ولا تعرفه هي ولا يعرفه احد سوانا . . .»

فدهش عبد الرحمن لتلك المعميات وقال «كيف يكون ذلك يا سالمة . . .؟ يظهر انك

ترحين او تدافعين بالباطل»

قالت «اقسم بالرب العبود اني اقول الصدق»

فقال «وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسمًا ولا لقباً؟»

قالت «اما لقبه فانما نعرفه»

قال «وما هو؟»

قالت «بلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف، ومؤيد الاسلام فيه بالحق والعدل . . .»

فهم عبد الرحمن انها تريده هو اذ لا يصدق ذلك اللقب على سواه ولكنه أراد ان

يشحقق ظنه فقال وهو يتتجاهل مرادها «ومتي يكون الافتتان واين؟»

قالت «يمجوز الافتتان في اي وقت اراده الخطيب ولكنه لا يكون الا وراء نهر لوار»

قالت ذلك وهي تنظر في عيني عبد الرحمن نظر مستفهم كأنها تقول له «هل فهمت من هو؟»

## الفصل الثاني عشر

نهر لوار

فادرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الافتتان بذلك المكان تعجيز الفتح حتى يقطع المسلمين نهر لوار وهو آخر حدود اكيثانيا من جهة الشمال في الطريق الذي هم سائرون فيه . فثار في خاطره حب الفتح وأحسن من تلك الساعة ييل الى مريم بنت سالمه وكان قد استطعوها مئذ شاهدها في ذلك المساء وهو في شاغل من امر الحرب والنصر وتنظيم

الشُّؤون . فلما سمع ما قاله سالمه تذكر الفتاة وما في عينيها من الجواذب فشعر بليل إليها أحياه فيه الأمل بالحصول عليها – وذلك طبيعه في الناس في مثل هذه الحال فقد يرى أحدهم الفتاة مراراً ويستلطفها ولكنه لسبب من الأسباب لا يرجو الحصول عليها فإذا تنسى خبراً ينبه فيه عاطفة الأمل بالحصول عليها يشعر للحال بانعطاف بنحو فيه حتى يصير شعفأً . ولا تنتصر هذه القاعدة في الحب ونحوه بل هي تطاق علىسائر مطامع بني الإنسان باعتبار أميالهم . فقد يكون أحدهم نجباً للسلطة مثلاً ولا يكون له مطعم فيها لتقاصره عنها بضعفه أو فقره فإذا ظهر له من بعض ثقاته اعتقاد امكان ذلك له شغف به وبذل نفسه في الحصول عليه – وقد اصاب عبد الرحمن الغرضين معًا لأن عبارة سالمه نشطته ل تمام الفتاة واحت في الميل إلى مرجعه فاكتفى بما دار من هذا القبيل لثلا تظاهر منه خفة في هذا الموضوع . فتجاهله وعاد إلى تجاراتها في كتان اسم زوجها وغضها من الاستهلاك في مساعدتهم على أمل استطلاع ذلك في فرصة أخرى وقال لها «دعينا الآن من هذا وخبريني ما الذي تنوين مساعدتنا فيه من اسباب هذا النتيج»

قالت «ليس لي سيف ان افضل به عنكم او اشتراك فيه معكم ولكنني خبرت طبيعة هذه البلاد وعرفت من احوال اهلها ما لو عرفه المسلمين لتفتوها على اهون سبيل ...»  
 فقال «وما ذلك»

قالت «هل يخفى على الامير عبد الرحمن ان الغاليين اهل هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليتعوكم منها ... وان الدوق اود حاكم اكتانيا هذه وجنده ليسعوا اقرب الى قلوب الغاليين من قائد جند المسلمين ورجاله ...؟»  
 قال «وكيف ذلك ...؟»

قالت «ان سكان هذه البلاد اخلاق من الروم والغال ، ومعنى ذلك ان الغاليين اهل هذه البلاد الاصليين كانوا امة كبيرة ظلوا في حال البداوة والاستقلال حتى جاءهم الروم في القرن الاول قبل الميلاد ففتحوها على يد يوليوس قيصر القائد الشهير وما زالت في حوزتهم نحو خمسة قرون وقد تضعضعت دولة الروم فهاجمتها قبائل الجerman من الشمال كما هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب . والافرنج احدى قبائل الخرمان فتحوا غالياً هذه واستولوا عليها ويعرف حكامهم بعائلة ميروني نسبة الى اول من تولاها منهم . وتولى الحكم في هذه العائلة الى الامس وقد افضى الامر الى ملوك ضعفاً . طبع فيهم وزراوهم وأراو لهم فاقتسوا بالبلاد بثنيهم : ومن اقسامها اكتانيا التي نحن فيها وآخر حدودها من الشمال نهر لوار ويهكمها الدوق

اود صاحبكم ثم اوستراسيا وراء هذا النهر وحـاـكـهـاـ شـارـلـ (قارـاهـ) وزـيـرـ آخرـ مـلـوكـ المـيرـوـفـيـةـ وـكـلاـهاـ منـ قـبـائـلـ الفـرنـكـ . ولكنـ كـلاـ منهاـ يـنـظـرـ الىـ الـآخـرـ بـعـيـنـ الـهـذـرـ وـالـآهـالـيـ يـنـظـرـونـ الىـ كـلـيـهـاـ بـعـيـنـ المـقـتـ لـعـلـهـمـ انـهـمـ اـغـيـرـ غـبـونـ فيـ فـتـحـ بـلـادـهـمـ لـتـمـتعـ بـهـاـ - ثمـ جـئـتـ اـنـتـ وـالـنـجـعـ اـمـاـ لـكـ وـاـمـاـ لـمـ . فالـغـالـيـونـ حـكـوـمـونـ فيـ الـحـالـيـنـ وـلـاـ يـهـمـهـمـ لـمـ تـكـوـنـ الـعـلـبةـ مـنـ الـجـنـدـيـنـ الـاـ اذاـ رـأـواـ فيـ اـحـدـهـاـ مـزـيـةـ عـلـىـ الـآخـرـ بـالـنـظـرـ اـلـىـ مـصـلـحـتـهـمـ وـرـاحـتـهـمـ . . . . .  
فـلـمـ يـتـمـالـكـ عـبـدـ الرـحـمـنـ اـنـ قـطـعـ حـدـيـثـهـ بـقـوـلـهـ «ـ وـبـالـطـبـعـ هـمـ يـنـضـلـوـنـ الـافـرـنجـ لـاـنـهـمـ نـصـارـىـ مـشـاهـمـ »

فـابـسـمـتـ سـالـمـةـ وـقـالتـ «ـ لـيـسـ الـاـمـرـ كـذـلـكـ يـاـ مـوـلـايـ . . . . .ـ اـنـ الدـيـنـ لـاـ دـخـلـ لـهـ فيـ هـذـهـ الـحـرـبـ وـاـنـماـ سـاقـ قـبـائـلـ الـافـرـنجـ اـلـىـ هـذـاـ النـجـعـ حـبـ السـلـطـةـ وـالـطـمـعـ يـنـفـيـ السـكـبـ وـلـذـلـكـ فـانـهـمـ اـنـقـسـمـوـاـفـيـهـمـ فـانـ اـوـدـ حـاـكـمـ اـكـيـتـانـيـاـ الـتـيـ تـنـجـنـ فـيـهـاـ الـآنـ يـحـاذـرـ مـنـ شـارـلـ حـاـكـمـ اوـسـتـرـاسـيـاـ كـمـاـ قـدـمـتـ وـيـخـافـ سـاطـعـهـ وـكـلـ مـنـهـمـ يـجـتـبـدـ فـيـ تـبـغـضـ الـآخـرـ اـلـىـ الـآهـالـيـ - وـهـوـلـاءـ يـغـضـوـنـ كـلـيـهـمـ لـاـنـهـمـ لـمـ يـرـواـ مـنـ مـعـاـمـلـهـمـ مـاـ يـشـرـهـمـ بـرـاحـةـ لـاـ تـعـلـمـوـهـ مـنـ عـادـتـهـمـ فـيـ اـسـتـبعـادـ الرـعـيـةـ وـاـبـتـزـازـ اـمـوـالـهـ وـسـائـرـ قـوـامـ - خـلـاـقـ الـعـربـ عـنـدـ اـوـلـ النـجـعـ فـانـهـمـ لـاـ فـتـحـوـ اـسـبـانـيـاتـرـكـواـ لـاـهـلـهـاـ الـحـرـيـةـ فـيـ كـلـ مـعـاـمـلـهـمـ وـلـمـ يـتـعـرـضـوـهـمـ فـيـ شـيـءـ مـنـ دـيـنـهـمـ وـاـفـضـلـ اـمـرـاءـ الـسـلـمـيـنـ فـيـ ذـلـكـ مـوـسـىـ بـنـ نـصـيرـ وـابـهـ عـبـدـ العـزـيـزـ وـخـصـوـصـاـ هـذـاـ الـآخـرـ وـلـمـ يـعـجـلـوـاـ عـلـيـهـ رـحـمـهـ اللـهـ لـفـتـحـ هـذـهـ الـبـلـادـ عـلـىـ يـدـهـ . اـذـ اـحـسـ اـسـبـانـ فـيـ اـيـامـهـ اـنـهـمـ اـنـقـلـوـاـمـنـ الضـيقـ اـلـىـ الـفـرـجـ لـكـنـهـمـ مـاـ لـبـشـواـ اـنـ ذـاـقـواـ مـرـارـةـ الـظـلـمـ مـنـ بـعـضـ الـذـيـنـ خـلـفـهـ مـنـ اـفـرـاءـ الـمـسـلـمـيـنـ ثـمـ اـفـضـتـ الـاـمـارـةـ يـكـمـ . وـبـلـغـنـيـ اـنـكـمـ سـائـرـوـنـ عـلـىـ خـطـةـ ذـلـكـ الـفـاتـحـ الـعـظـيمـ فـيـ مـحـاسـنـةـ اـلـنـاسـ وـاـنـصـافـ اـهـلـ الـدـمـةـ وـرـعـيـةـ الـمـهـودـ مـعـهـمـ فـيـاـ يـتـعـلـقـ بـكـنـائـهـمـ وـدـيـانـهـمـ وـقـدـ تـحـقـقـ لـيـ ذـلـكـ الـآنـ - فـالـغـالـيـونـ اـذـ خـمـنـوـاـ سـلـامـتـهـمـ وـسـلـامـةـ اـهـلـهـمـ وـمـعـاـشـهـمـ عـلـىـ يـدـ الـسـلـمـيـنـ فـانـهـمـ يـكـوـنـوـنـ عـوـنـاـلـهـمـ عـلـىـ الـفـتـحـ . وـلـاـ تـنـسـ الـيـهـودـ فـانـهـمـ نـصـرـاـوـكـمـ فـيـ كـلـ فـتوـحـكـمـ مـنـ اـوـلـ ظـهـورـ الـاسـلـامـ . وـهـوـلـاءـ اـنـماـ نـصـرـوـكـمـ لـاـنـهـمـ تـحـقـقـوـنـ ماـ تـنـوـونـهـ مـنـ اـسـبـابـ الـرـاحـةـ لـهـمـ وـكـذـلـكـ الـدـصـارـىـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ اـهـلـ هـذـهـ الـبـلـادـ . وـاـمـاـ مـاـ يـدـوـلـكـمـ مـنـ شـيـراتـ الـنـصـرـانـيـةـ وـالـعـيـرـةـ عـلـيـهـ فـمـحـصـورـ فـيـ طـائـفـةـ الـاـكـلـيـرـوسـ وـمـنـ يـهـمـهـمـ نـصـرـةـ الـكـنـيـسـةـ مـنـ بـقـاـيـاـ الـرـومـانـ وـمـنـ اـنـتـيـ الـيـهـمـ مـنـ الـغـالـيـيـنـ . اـمـاـ قـبـائـلـ الـافـرـنجـ فـيـهـمـ مـنـ اـجـزـ الـدـيـنـ ذـرـيـعـةـ لـلـسـلـطـةـ وـكـسـبـ الـاـمـوـالـ كـمـ فـعـلـ بـعـضـ قـبـائـلـ الـبـرـبرـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ جـنـوـدـكـمـ »  
فـلـاـ سـمـعـ عـبـدـ الرـحـمـنـ قـوـلـهـ تـحـقـقـ سـدـادـ رـأـيـهـ فـيـ مـاـ شـرـعـ فـيـهـ مـنـ مـحـاسـنـهـ اـهـلـ الـدـمـةـ

وتخي العدل والانصاف وقال «انت تعليمي اني فاعل ذلك من تلقاء نفسي فما الذي تتعلمه  
انت في هذا السبيل ..؟»

قالت «اني اقدم نفسي للذهاب في اي مهمة تفرضونها علي والافضل على ما ارى ان  
القدمكم في البلاد التي تورون المسير لتخها فأغرس في قلوب اهلها الامان لل المسلمين  
وسلطانهم ويساعدني على ذلك وبالغتكم في اكرام نصارى بوردو وطائنة قلوبهم ومحاسنتهم  
واحترام شعائر دينهم والمحافظة على اعراضهم وارواحهم فاذا فعلتم ذلك هان علي اقناع اولئك  
ان المسلمين الفاتحين اهل حرمة وذمام يخافون الله ويعملون بالعدل وليس كابتوهم  
بعض ذوي الاغراض ان المسلمين قساة القلوب لا دين يريد لهم عن ارتكاب المحرمات  
ولا حنان في قلوبهم ينعنهم من الظلم والسف<sup>(١)</sup> - وقد حمل الناس على تصديق  
ذلك ما كان يرتكبه بعض الذين كانوا يرافدون جند المسلمين لمجرد الرغبة في النهب والقتل  
ولم يكن اميرهم حكياً عاقلاً مثل عبد الرحمن يصلح ما يفسدونه بما رأيـناه منه في  
هذا المساء ..»

فازداد عبد الرحمن اعجـابـاً بـتعـقـلـ تلكـ المـرأـةـ وـغـيرـهـاـ عـلـىـ الـمـسـلـدـيـنـ وـقـالـ «ـاـفـعـليـ  
ـمـاـيـتـرـاءـىـ لـكـ وـاـنـيـ فـاعـلـ بـنـصـارـىـ بـوـرـدـوـ مـاـتـرـيدـيـنـهـ فـاـذـىـ يـرـضـيـهـ ..؟ـ»

فـقـالـتـ «ـاـنـاـ يـرـضـيـهـمـ فـيـ الدـرـجـةـ الـاـوـلـىـ الـحـافـظـةـ عـلـىـ شـعـائـرـهـمـ الـدـيـنـيـةـ وـاسـتـبـقـاهـ كـنـائـسـهـمـ  
ـوـعـابـدـهـمـ ثـمـ ردـ اـسـرـاـهـمـ بـالـافـتـدـاءـ عـلـىـ جـارـيـ العـادـةـ .ـ وـهـنـاكـ اـمـرـ ذـوـبـالـ اوـجـهـ الفـاتـحـمـ اليـهـ  
ـوـذـلـكـ اـنـ يـعـ اـسـرـىـ النـصـارـىـ إـلـىـ اليـهـودـ مـاـ يـسـوـهـ النـصـارـىـ لـمـاـ تـعـلـمـهـ مـنـ الضـغـائـنـ بـيـنـ  
ـالـطـائـفـتـيـنـ وـخـصـوصـاـ بـعـدـ ماـ ظـهـرـ مـنـ مـعـالـأـةـ اليـهـودـ لـكـ وـتـسـهـيلـ الفـتحـ عـلـيـكـ ..»

فـقطـعـ عبدـ الرـحـمـنـ كـلـامـهـ فـائـلاـ «ـوـلـكـنـ اليـهـودـ تـجـارـ نـيـعـهـمـ الـاسـرـىـ بـالـمـالـ فـنـ اـرـادـ مـنـ  
ـاـهـ الـبـلـادـ اـنـ يـفـتـدـيـ اـسـيـرـهـ اـنـتـدـاهـ مـنـهـ بـالـمـالـ ..»

فـقـالـتـ «ـوـلـكـنـ بـعـضـ اليـهـودـ يـتـاعـونـ اـسـرـىـ لـلتـنـكـيلـ بـهـمـ تـشـفـيـاـ مـاـ كـانـ النـصـارـىـ  
ـيـسـوـمـهـمـ اـيـاهـ مـنـ قـبـلـ وـكـثـيرـاـ مـاـ كـانـ اليـهـودـ يـتـاعـونـ اـسـرـىـ النـصـارـىـ وـيـذـجـونـهـمـ  
ـصـبـراـ<sup>(٢)</sup> فـتـعـجـبـ هـذـاـ الـامـرـ مـسـتـجـسـنـ فـيـ كـلـ حـالـ»

## الفصل الثالث عشر

### الآنية

ولم ثُم سَالَةَ كَلَامَهَا حَتَّى سَمِعُوا قِرْقَةَ وَضُوْضَاءَ خَارِجَ الْفَسْطَاطِ ثُمَّ دَخَلَ بَعْضُ الْعَلَمَانِ وَهُوَ يَقُولُ «الْأَمِيرُ هَانِيُّ بِالْبَابِ وَمَعَهُ اَنَاسٌ يَحْمَلُونَ اَكِيَاسًا . . . . .» ثُمَّ دَخَلَ هَانِيُّ وَوَرَاءَهُ عُبَيْدُ يَحْمَلُونَ اَكِيَاسًا وَادْوَاتٍ وَهُوَ يَقُولُ «هَذِهِ اَدْوَاتُ الْكَنِيسَةِ لَمْ نَقْدِرْ عَلَى جَمْعِهَا اَلَّا بَعْدَ شَقِ الْأَنْفُسِ لَانَّهَا كَانَتْ قَدْ تَفَرَّقَتْ فِي اَصْحَابِ الْغَنَائِمِ» قَالَ ذَلِكَ وَأَمَرَ الرَّجُالَ أَنْ يَفْرَغُوا مَا فِي الْأَكِيَاسِ بَيْنَ يَدِيِ الْأَمِيرِ وَلَمْ تَمْضِ لَحْظَةٌ حَتَّى اَمْتَلَأَ الْبَسَاطُ بِالشَّمْعَدَانَاتِ وَالصَّلْبَانِ وَالْكَوْكُوسِ وَفِيهَا الْفَضَّةُ وَالْذَّهَبُ فَضْلًا عَنِ اَصْنَافِ مِنَ الْمَعَالِقِ وَالصُّحُونِ وَالصُّورِ الْمَذَهَبِيَّةِ وَالْمَفْضَضَةِ وَقَطْعَ مِنَ الْذَّهَبِ اَفْتَلَعُوهَا عَنِ الصُّورِ الْكَبِيرِيَّةِ الَّتِي لَمْ يُسْتَطِعُوا حَمْلَهَا وَعَنِ جَدْرَانِ الْمَهِيْكَلِ وَاسْطَيْنِيهِ فَلَمَا خَرَجَ الْحَمَلَةُ وَلَمْ يَقِنْ فِي الْخِيَمَةِ اَلَّا عَبْدُ الرَّحْمَنُ وَهَانِيُّ وَسَالَةُ النَّفَتِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِلَى سَالَةَ وَقَالَ لَهَا «هَذِهِ هِيَ الْآنيةُ فَمَاذَا نَعْلِمُ بِهَا؟»

قَالَتْ «أَرَى أَنَّ تَرْسِلَهَا إِلَى اَسْقَفِ الْكَنِيسَةِ فِي بُورْدوَ مَعَ رَجُلٍ يَخْبُرُهُ أَنَّ نَهْبَ هَذِهِ الْكَنِيسَةِ حَصَلَ بِغَيْرِ اِرْادَتِكِ . ثُمَّ يَعْتَذِرُ لَهُ عَنِ ذَلِكَ وَيَخْبُرُهُ أَنَّ الْاَسْرَى بِاقْوَنِ إِلَى مَسَاءِ الْغَدِ فِي هَذَا الْمَعْسَكَرِ فَنَرِدَ اِرْادَتَكِ . ثُمَّ يَعْتَذِرُ لَهُ عَنِ ذَلِكَ وَيَخْبُرُهُ أَنَّ الْاَسْرَى بِاقْوَنِ إِلَى مَسَاءِ اَذْهَبِ اِنَّا إِلَى اَسْقَفٍ فَاغْتَنَمَ اَعْجَابَهُ بِرَفْقِ الْمُسْلِمِينَ وَعَدَلَمْ وَاطَّلَبَ إِلَيْهِ الْمَسَاعِدَةَ فِي اِقْتَاعِ اَهْلِ الْبَلَادِ الْاُخْرَى الْوَاقِعَةِ فِي طَرِيقِكِ إِلَى نَهْرِ لَوَارِ بِالْمَرَاسِلَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ اَرْفَقُهُمْ مِنَ الْاَفْرَنجِ بَلْ هُمْ يَكُونُونَ فِي حُوزَةِ الْمُسْلِمِينَ اَحْرَارًا فِي دِيَانَتِهِمْ وَعَادَتِهِمْ وَحُكْمَوْتِهِمْ وَقَضَائِهِمْ وَسَائِرِ اَحْوَالِهِمْ كَمَا كَانَ اَهْلُ الْاِنْدَلَسِ فِي اُولِ الْفَتْحِ . . . . .»

فَلَمْ يُسْتَطِعْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَنْ يَزِيدَ عَلَى رَأْيِ سَالَةَ كَلَمَةً وَاحِدَةً وَلَمْ يَرْدَدْ اَلْأَعْجَابَ بِسَدَادٍ رَأَيْهَا وَسَعَةً اَطْلَاعُهَا فَقَالَ لَهَا «فَلَيَكُنْ كَمَا نَقُولُينَ وَبِالْطَّبِيعِ يَجِبُ أَنْ يَقِنَ كُلُّ مَا دَارَ بِيَنَنَا مَكْتُومًا عَنْ كُلِّ اَنْسَانٍ غَيْرِنَا لَئِلَّا يَفْسُدُوا سَعْيَنَا عَلَيْنَا» وَالنَّفَتُ إِلَى هَانِيٌّ وَقَالَ لَهُ «اَعْهَدْتُ إِلَى رَجُلٍ مِنْ خَاصَتِكِ ثُقِّ بِعَقْلِهِ وَحَسْنِ اسْلُوبِهِ أَنْ يَوْصِلَ هَذِهِ الْآنيةَ إِلَى اَسْقَفٍ وَيَبْلُغَهُ هَذِهِ الرِّسَالَةِ»

ولم يكن هانيء افلأً اعجباً سالمة من عبد الرحمن بل هو يفضله في ذلك بما في خاطره من امرابنتها التي ملكت له من اول نظرة فلا سمع رأيها استحسنها وزاد احترامه لها وجده لابنتها وbadر في الحال الى رجال حملهم الآنية وخرج لايجاز تلك المهمة ثم نهضت سالمة والتمسك من عبد الرحمن من يرسلها الى مقرابنتها لتبيت هناك الى الصباح ثم تخرج لمهمتها . فاراد عبد الرحمن المبالغة في اكرامها فاسترجع هانئاً وقال له ادع لي رجلاً من خاصتك يشيع سالمة الى خباء النساء حيث قيام ابنتها . « فعد هانئاً تلك المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال « ومثل هذه الفاضلة لا يليق في خدمتها غير الامراء . اني ذاهب الى قرب ذلك الخباء فانا اشيعها اليه » فاستحسن عبد الرحمن شعور هانئ في احترام سالمة تشجيعاً لها فابتسم وقال « بورك فيك . انت اهل لفوق ذلك . . . . . »

فشت سالمة في اثر هانئ وظل عبد الرحمن وحده وقد يهره ما شاهده في ذلك المساء من الغرائب وتوصم خيراً بنجاح حملته وزاد رغبة في تفقد جنده والسمير على جمع كلماته

## الفصل الرابع عشر

### الخباء

اما مريم فانها خرجت مع خادمتها حسان من خيمة الامير عبد الرحمن والغلام دليلها الى الخباء كما تقدم . وكان الليل قد نصب سرادقه فشت مريم وفكراها مستغلة بهانئ واحسست بمحاذيب يجذبها نحوه لا تدرى ما هو . وقد ذهب من خاطرها ما كانت تستمعه من والدتها عن اهمية مستقبلها وان كانت في الواقع لم تسمع منها شيئاً صريحاً بهذا الشأن . ولكنها كانت تحملها على انقاض الملفظ باللغة العربية وتعليمها ركوب الخيل وفنون الفروسية وسائل الاعاب الرياضية حتى تحسنت عظامها وقوتها عضلها وشببت على الحمية وعززة النفس والشجاعة ولكن اللطف النسائي ما زال غالباً على طبيعتها وانما زادتها تلك الرياضة صحّة واكتسب وجهها رونقاً واشرافاً

مشت في اثر الغلام وبجانبها حسان يتوكا على عكازه بنشاط وخففة وقد تزمل بقبائه

وعلى رأسه قبعة (طاقية) قد لصقت من كل اجزائها براسه وكان رأسه حليقاً فظهرت كأنها جلدًا ثابياً له . فروا في اثناء الطريق بجماعات من الرجال كل جماعة من قبيلة بعضهم في الخيام والبعض الآخر في ما بينها وقد علت الضوضاء : واكثر ما يسمع من اصوات الرجال عبارات الاختصار على قسمة الغنائم وخصوصاً ما كان فذا ثميناً من الاثواب المنشاة او الآنية الذهب او الفضة او الادراج او الطنافس فربما افضى الخصار في بعضها الى تجزئتها الى قطع وتفريقها في المختصمين واجزاؤها لا تفيدهم شيئاً . وكانت مريم تسمع اصوات الامراء يهددون رجالم او يوينونهم ولا تسل عن قلبهما لما سمعت صوت هانئ في خيمته على بعض خطوات منها وهو يحسن بعض الناس لاقناعهم بتسلیم آنية الكنيسة عملاً باشارة عبد الرحمن . فلما سمعت صوته اخلج قلبهما في صدرها وودت لو انها نفف هناك برهة لتسمع حديث حبيها وتسأنس بصوته وفتنت لو ان اثناء على مقربة لها اذا خرج هانئ من هناك يمر بها . فنادت الغلام وسأله عن موقع الخباء فقال « انه خارج هذا المعسكر يا مولاي »

قالت « وهل هو بعيد من هنا »

فتطاول الغلام بعنقه وهو ينظر نحو الافق ثم قال « ان الخباء يا سيدتي بقرب هذه النار » وأشار باصبعه الى نار موقدة وراء حدود المعسكر فنظرت مريم فإذا هي لا تزال بعيدة عن المكان فقالت « ولماذا جعلوا الخباء بعيداً بهذا المقدار »

قال « لانه دار النساء والعادة في هذه الدور ان ظهر خارج المعسكر ومتى وصلنا الى هناك ترين اخيبة عديدة لنساء الامراء والقواد وغيرهم من رجال الجندي . ولو لا من يقوم بخدمتهم من الخدم والخصيبيان والعيبي لحسبت نفسك في مدينة من النساء فصبرت مريم نفسها وسكتت وهي تجده في المشي وحسنان ماش وهو ساكت كأنه استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة . حتى اذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم اصواتاً آتية من اطراف المعسكر تشبه ان تكون تهديدية فاجفلت وتراجعت فطلياً عنها حسان وهي اول مرة نطق بها في اثناء الطريق فقال « لا تخافي يا بنية ان خفراً الجندي يطلبون منا شعار الليل فإذا لم تجيئ به استغشونا »

فقالت « وكيف ذلك ؟ وما هو الجواب »

قال « هو عند هذا الغلام » وابتعدت اليه ليسأله فإذا به يقول بصوت عالٍ جواباً

على ما قاله الخفراء « طليطلة وقرطبة » فتحوّل حسان نحو مريم وقال « هذا هو شعارهم الذي يتعارفون به اليوم » فسكت الخفراء ومشت مريم وحسان في أثر الغلام حتى انتهوا إلى الاخية فسمعوا من خفراءاً مثل ذلك النداء فاجابوا عليه مثل ذلك الجواب . وتحوّل بهم الغلام إلى خباءً منفرد أمامه نارٌ عظيمة فعلم مريم أنه الخباء الذي هي آتية إليه . فلما دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البعض من الصقالبة الذين يباعون في تلك البلاد والسود الزنوج الذين رافقوا الجماعة من إفريقيا وأكثربهم من الخصيـان . ولما أقبلت مريم على الخباء تأملت في بنائه فإذا هو عبارة عن بناءٍ من نسيج أحمر متين مربع الشكل قائم على أعمدة من الخشب مخيطة بالقماش . وربما بلغت مساحة الخباء خمسين ذراعاً في خمسين يكتفي سور من ذلك النسيج مستندٍ بالأعمدة ومشدود في الأرض بالأوتاد والأرسـاس . وسقف الخباء عبارة عن قبة كبيرة من ذلك النسيج قائمة على عمد متينة وقد قسم الخباء داخل السور إلى غرفٍ وأفنية يفصل بينها جدران من نسيج أخضر مستندٍ بالعمد أيضاً

وهي تتأمل في ذلك البناء إذ أقبل عليهم رجل من خصيـان الخباء أبيض اللون عرفت مريم من ساحتته أنه صقلبيٌّ فاستقبلاه الغلام وتعارفاً وتفاهمـاً . وكان الغلام افهم الحصيـيـ المهمـة التي هو قادر بشأنها فتركهُ وهو يقول بلسان عربـي تحالـطـه عجمـة « أيـ ذاهـبـ إلى الـقـهـرـ مـاـنـةـ قـيـمـةـ الخـباءـ اـسـتـقـدـمـهـاـ لـاسـتـقـبـالـهـاـ » ومضـىـ حـتـىـ دـخـلـ الخـباءـ فـوـقـتـ مـرـيمـ وـحـسانـ وـالـغـلامـ فيـ اـسـتـظـارـهـ ثـمـ عـادـ وـهـوـ يـقـولـ « تـفـضـلـ يـامـوـلـانـيـ بـالـدـخـولـ وـبـقـيـ خـادـمـكـ مـعـنـاـ فيـ اـكـرـامـ وـرـعـاـيـةـ »

فتشـتـ مـرـيمـ وـقـدـ التـفـتـ بـثـوبـهاـ الـأـسـوـدـ وـاصـلـحـتـ ثـقـابـهاـ الـأـسـوـدـ وـتـعـهـدـتـ شـعـرـهاـ استـعـدـادـاـ لـاسـتـقـبـالـ الـقـهـرـ مـاـنـةـ قـيـمـةـ الخـباءـ . فـدـخـلـتـ بـابـ الخـباءـ فيـ أـثـرـ الخـصـيـ فـرـأـتـ نـفـسـهاـ فيـ دـهـلـيزـ اـنـتـهـتـ مـنـهـ إـلـيـ شـبـهـ قـاعـةـ فـيـهاـ مـصـبـاحـ مـنـاثـ بـالـزـيـتـ قـدـ عـلـقـوهـ بـجـبـلـ فـيـ سـقـفـ الخـباءـ بـيـنـ عـامـودـيـنـ مـنـ أـعـدـتـهـ لـمـ تـشـكـ مـرـيمـ أـنـهـ مـنـ مـصـايـحـ بـعـضـ الـكـنـائـسـ فـيـ الـبـلـادـ الـتـيـ فـتـحـوـهـاـ . وـأـرـضـ الخـباءـ مـفـروـشـةـ بـاـبـسـطـةـ ثـمـيـةـ وـفـيـهاـ مـعـظـمـ مـاـيـحـتـاجـونـ إـلـيـهـ مـنـ الـآـيـةـ الـضـرـورـيـةـ كـانـ أـهـلـهـ مـقـيـمـوـنـ هـنـاكـ مـنـذـ اـعـوـامـ

فلـمـ دـخـلـتـ القـاعـةـ سـبـقـهاـ الـحـصـيـ وـاـخـبـرـ الـقـهـرـ مـاـنـةـ فـقـدـمـتـ لـاسـتـقـبـالـ ضـيـفـهـاـ . وـكـانـتـ الـقـهـرـ مـاـنـةـ كـبـيرـةـ الجـبـةـ ثـقـيلـةـ الـحـرـكـةـ عـرـيـضـةـ الـوـجـهـ كـبـيرـةـ الـعـيـنـيـنـ خـشـنـةـ الصـوـتـ مـتـدـلـيـةـ الـحـدـيـنـ مـنـ الـكـبـرـ غـلـيـظـةـ الشـفـتـيـنـ قـدـ نـبـتـ عـلـىـ شـفـتـهـاـ الـعـلـيـاـ وـحـولـ ذـقـنـهـاـ شـعـرـ مـتـفـرـقـ مـسـتـطـيلـ

وقد غطت صدرها وعنقها بالقلائد والعقود وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع وحول زنديها الاساور والدماج وفي أذنيها الاقراط وفي رجليها الحالاخل حتى يكاد الناظر اليها وهي تمشي وتتوكل على وركيها يتوهם انها تنوء تحت اثقال تلك الحلى مع ان دلائل القوة ظاهرة في كبر وجهها ووضوح تقاطيعها . وكان بينها وبين عبد الرحمن قربة نسائية وقد اتى اليها مقابليد خبائئه وفوضها في تدبير شؤون نسائه وجواريه وفيهن القوطيات والصلقليات والروميات والبربريات وغيرهن . فلما رأت مريم وما هي فيه من الجمال والاهية احبتها واستخفت روحها فاستقبلتها ورجحت بها وخصوصاً بعد ان علمت برغبة عبد الرحمن في اكرامها . وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك الهرمانة فلما سمعت ترحاها استأنست بها وهمت بتقبيل يدها فامتنعت وقالت لها « أهلا بك يا حبيبي ما اسمك »

قالت « مريم » ولفظت الراء غيناً

فاستلطفت تلك اللثنة منها ودعها الى الجلوس على البساط ثم دعت بعض الخدم بفأوها بالطعام وكانت لم تدق طعاماً من صباح ذلك اليوم فأكلت ثم جلست والاهرمانة تتحادثها وتسألهما اسئلة كثيرة ومريم تحبها وهي مشتعلة بالالال بما جال في خاطرها من أمر هانئ وكما تذكرته خفق قلبها وتسارعت ضرباته . فلما رأتها الهرمانة قلقة منقبضة حملت ذلك منها محمل الاستیحاش وتذكرت ما اوصى به عبد الرحمن من اكرامها ففكرت في سبيل تستأنس هي به . وبعد اعمال الفكر مدة ومريم صامتة قالت العجوز « يظهر ان حديث العجائز لم يرق لك وقد أوصاني الامير باكرامك ورعايتك ولعل من اسباب استيحاشك قرب عهلك من الاسر ويسوقك انك أخذت من اهلك فاعلمي انك تكونين عندنا كذلك بين اهلك . واني دائمة لك من نساء هذا الجبلاء امراة أصلها من اهل هذه البلاد وقد تعلمت العربية وهي بارعة في الجمال وهذا منزلة رفيعة عند الامير فاظنك اذا لقيتها تستأنست بها » قالت ذلك وصفقت فدخل خصي من الصقالبة وتأدب في موقفه فقالت له « قل لي ميونة ان الهرمانة تدعوك اليها » خرج الخصي فالتفت الهرمانة الى مريم وقالت « أظنك ستصنعني بميونة لأنها من أعز اهل هذا الجبلاء علي الامير وهي في الاصل من جواري لمباجة بنت الدوق اود صاحب هذه البلاد . أظنك تعرفين حكايتها مع المندبر الافريقي احد امراء المسلمين الذي كان والياً في الجبال على حدود اسبانيا و كان قد ابرم مع الدوق اود معاهدة لا نعرف فهو اها ولكننا اعلمنا ان اود ازوج ابنته

للعنيد المذكور خاف أميرنا عبد الرحمن من خفایا ذلك الاتفاق فرَّ بالحیال وهو قادرٌ  
هذا الفتح وقتل العنيد واغتنم الجندي أمواله ونساءه وارسلوا امرأته لمباجة الى الخليفة  
في دمشق . فكان من نصيب الامير عبد الرحمن ميمونة هذه . ويقال انها كانت أعز  
جواري لمباجة اليها وأشبعهنَ بها جمالاً وقداً وتعللاً وستريتها الساعة »

## الفصل الخامس عشر

ميمونة

ولم تم الهرمانة كلامها حتى دخل الحصي ولم يتكلم فعلم أن ميمونة قادمة في أثره .  
ثم دخلت ميمونة وعليها ثوب ارجواني واسع الكمين طويل الاردان بحرٌ وراءها مع  
طول قامتها واعتدالها ولها شعرٌ ذهبيٌ طويل قد ضمته حزمة واحدة وأرسلته على  
ظهرها ولو تأملته جيداً لرأيت لونه مختلف باختلاف الجهة التي تنظر اليه منها فإذا نظرت  
إليه وأنت تستقبل وجهها رأيتها ذهبياً ناصعاً وإذا تفرست فيه وأنت إلى جانبها رأيت فيه  
ميلاً إلى الشقرة اللامعة . ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعهما طولية الأهداب  
سوداءها . وترى في عينيها لمعاناً يدلُّ على الغنج والدهاء أكثر مما يدلُّ على الصدق  
والوفاء . وكانت صغيرة الافق مطمئنة الفم رقيقة الشفتين بارزة الذقن عريضة يضاهي  
البشرة وخصوصاً العنق مع صفاء اللون . فلم تهلك مريم عند وقوع نظرها عليها من  
الإعجاب بما يتجلّ في وجهها من إلهية وأجمال ورأت نفسها مظلومة منقبضة بما التفت  
بها من السوء الأسود

ثُمَّا دخلت ميمونة ووقع نظرها على مريم هشت لها وابتسمت بابتسامة انتفتح لها قلب  
الفتاة وأحسست للحال بانس انسها ما كانت فيه من القلق واجابتها بابتسامة يتوضّم المترفس  
فيها غير ما يتوضّم بابتسامة تلذّث ولا يميز ذلك الاً الناقد البصير . دنت ميمونة من مريم  
وحينها ورجحت بها كأنها كانت على موعد من لقاءها او كأنها كانت تعرفها من زمان  
طويل . فازدادت مريم استثناساً وطأنيتها ونسقت ما سبق الى ذهنها من التهيّب عند مقابلة  
الهرمانة . اما هذه فانها حال دخول ميمونة خاطبت مريم قائلة « هذه ميمونة التي اخبرتك  
عنها الساعة فارجوان تستأنسي بها وترتاحي الى مجالستها » وأشارت الى مريم وقالت

« وهذه ضيافة الامير عبد الرحمن قد بعث اليها بها واوصانا برعايتها»  
 فجلست ميمونة بقرب مريم وهي تقول « اهلاً بالضيافة الكريمة من اين اتيت يا حبيبي »  
 قالت ذلك بكلام عربي تحالفه لهجة افرنجية فتساءلت مريم من سجل سخنتها ونسق كلامها  
 انها افرنجية الاصل كما قالت لها القهرمانة فأجابتها « قد كنت في جملة اهل بوردو الذين  
 قضي عليهم بالوقوع في اسر هذا الجند »

قالت « هل قبضوا عليكِ وحدك وليس معك احد من اهلك .. ؟ »

قالت « كلاً . ولكنهم قبضوا على والدتي ايضاً وخدم شيخ غادرته مع جملة خدمة هذا  
 الخباء خارجاً »

قالت « اراك تتكلمين العربية جيداً ونقولين انك من اهل بوردو فكيف  
 ذلك .. ؟ »

قالت « لا ادرى السبب ولكن هذا هو الواقع » قالت ذلك وهي تعلم ان والدتها لا  
 تزيد التصريح باكثر منه

فقالت « وهل قتل ابوك في هذا الفتح ؟ »

قالت « كلاً »

فقالت « وهل اسر او فر .. ؟ »

فسكتت واومأت برأسها ان « لا هذا ولا ذاك »

فأدركـت ميمونة ان والدها ميت من قبل لكنـها لم تكتـف بذلك فـقالـت « وما اسم  
 والـدتك لـعلـي أـعـرفـهـاـ »

قالـت « اسمـهاـ سـالـمةـ »

قالـت « هي اذـاـ عـرـبـيـةـ »

قالـت « لا اـدرـيـ »

وـكـانـتـ مـيمـونـةـ فـيـ اـثـنـاءـ تـلـكـ المـحـادـثـةـ ثـنـفـرـسـ فـيـ وـجـهـ الفتـاةـ وـتـسـقـثـ ذـاـ كـرـتـهـاـ  
 لـتـسـتـخـضـرـ صـورـتـهـاـ اـذـ خـيـلـهـاـ اـنـهـاـ تـعـرـفـهـاـ مـنـ قـبـلـ وـاطـالـتـ السـوـالـ لـعـلـهـاـ تـسـتـدـلـ  
 عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ كـلـامـهـاـ فـلـماـ رـأـتـهـاـ قـطـعـتـ الـحـدـيـثـ بـقـوـلـهـاـ « لا اـدرـيـ » عـدـلـتـ عـنـ زـيـادـةـ  
 الـبـحـثـ وـالـثـقـفـتـ إـلـىـ الـقـهـرـمـانـةـ فـرـأـتـهـاـ قـدـ دـلـلـتـ رـأـسـهـاـ عـلـىـ صـدـرـهـاـ وـنـاتـمـتـ وـاخـذـتـ فـيـ السـخـيرـ

فـقـالـتـ لـمـرـيمـ « هـلـمـ بـنـاـ إـلـىـ غـرـفـيـ فـتـكـشـيـنـ عـنـدـيـ فـيـ اـثـنـاءـ هـذـهـ الضـيـافـةـ »

فـأـطـاعـتـهـاـ مـرـيمـ وـنـهـضـتـ مـعـهـاـ وـتـحـوـلـتـ إـلـىـ غـرـفـةـ مـنـ غـرـفـهـاـ فـجـلـسـتـاـ هـنـاكـ وـقـدـ

عادت ميوننة الى استئناث ذاكرتها لعلها تستحضر صورة ذلك الوجه واين شاهدته ومرى في غفلة عن ذلك وفي شاغل مما عاد الى ذهنها من المواجهات بشأن هانه وما غادره في نوادها من الواقع الحب فغلب الانقباض عليها وبدت في وجهها ملامع الاضطراب  
ظللت صامتتين مدة وكل منها في هاجس اذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهي  
تنادي «ميوننة ٠٠٠ مريم ٠٠٠»

## الفصل السادس عشر

### سرار

فذعرتا وخافت ميوننة من غضب القهرمانة لشألاً تعد خروجها من عندها على تلك الصورة ذنبًا فتشكوها الى الامير او تسيء معاملتها لانها الامرة الناهية على اهل ذلك الخباء — والقبرمانات نفوذ عظيم في بيت الامراء والخلفاء والسلطانين في كل العصور واذا كان الامير او الخليفة ضعيفاً اصبحت القهرمانة صاحبة الامر والنفي حتى في اعمال الحكومة تعزل وتولى وتقبض وتطلق كما تشاء — فلما سمعت ميوننة نداءها نهضت للحال فنهضت مريم معها ومشتاكا نحو القاعة ودخلتها واذا هناك امراة بلباس اسود يحملها من رأسها الى قدمها فحلاها رأتها مريم علمت انها والدتها فقد مررت اليها وسلمت عليها فقبلتها سالمة اما ميوننة فلم تكن تفترس في وجه سالمة حتى انجلت لها الصورة التي كانت تستحق الذكرة في استحضارها فبدت في وجهها امارات الاضطراب والبغة ولكنها تغلبت على عواطفها وفقدت للسلام على سالمة وهي تهش لها وترحب بها . اما سالمة فحلاها وقع نظرها على ميوننة عرفها بخنق قلبها دهشة لانها لم تكن تتوقع ان ترى ذلك الوجه هناك ولا في كل اوربا فرددت السلام عليها ببرود وهي تفترس في وجهها التتحقق ظنها فيها وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمحاجلة والمازحة كقولها «لقد مريتني كونك هنا سروراً مزدوجاً لسبعين الاول اني اسناني بك وفرحت لفرح حبيبي مريم بك وان يكن لم يسبق لي حظ بعرفتك والثاني لان نداء خالي القهرمانة لم يكن من غضب علىٰ ..» قالت ذلك وضحك وتشاغلت باصلاح شعرها هنيهة ثم عادت الى الكلام وهي تلاعب كم ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان وقالت «فرحجاً بك لقد اتيت اهلاً ووطئت سهلاً فعلى ان قضي مدة اقامتنا هنا معاً بسرور»

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها إليها وقالت « ولا تلوميني إذا علقت بحب ابنتك من أول نظرة فلما تُعشق بما خصتها به العناية من اللطف والجمال فلا غرو إذا لاقت من الأمير عبد الرحمن هذه العناية والاكرام »

وكانت ميمونة تتكلم وهي تضحك وتتلاطف سالمه تحدق فيها وتترين لهجة كلامها وغنة صوتها لتحقق ظهرها في معرفتها واستغرقت في التفكير وتحيرت في الذي تعامله بعد ان علمت حقيقة تلك المرأة التي سمت نفسها ميمونة وليس هي ميمونة وتظاهرت بأنها من جملة نساء ذلك الجند الداعيات بدعة المسلمين وقد تكون بلاه كير أعلى الجند وأهله فتحيرت سالمه بين ان تكشف امرها وتترين لها أنها عرقها او تكتم خبرها وتباهل على أنها لحظت من الجهة الأخرى ان ميمونة عرقها وعرفت حقيقتها فنافت ان تبوح بها الى احد وهي تود بقاء امرها مكتوماً كما علمت فزعت على التجاهل موقتاً لترى ما يكون فقالت « انه ليسبني أيضاً ان تكون ابنتي في حجر اخت حنون نظيرك وفي رعاية الحالة ايدها الله » قالت ذلك وأشارت الى القيصرة

فضحكت العجوز حتى بانت لثها وما فيها من الاسنان القواطع الا اثنان واحدة في الاعلى والاخرى في الاسفل وينهيا ثغرة مربعة الشكل ثم قالت « ان ابنتك ياسالمة ضيفة عندي وما للضيف غير الكرامة وليس هي من نساء هذا الجباء او سراريه او جواريه ليجري عليهما الامر والنهي »

فقطعت سالمه كلامها قائلة « لا اعد لها الا تحت أمرك و اذا شئت ان تعديها ابنة لك كان ذلك من زيادة فضلك » فهمت القيصرة بالوقوف وهي لقلها لاتستطيع الهوض إلا بالاعتماد على يديها والزحير والتوكؤ كأنها تحمل حملأً أثقل كاهلهما فلما قاربت الوقوف قالت « هي ابنتي واعز من ابنتي ولذلك فاني عهدت برعايتها الى اهل هذا الجباء الى الامير عبد الرحمن » وأشارت الى ميمونة

فأئمت ميمونة عبارتها قائلة « كوني مطمأنة ياسالمة فان مريم تكون عندنا كأنها في حجرك ومن يستطيع ان يرى هذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه ولا يغرك مجدها علينا باسم الضيفة فان الامير لا يلبث ان يراها حتى يتعلق بها ويؤد استبقاءها عنده فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها ينتها » قالت ذلك ونظرت الى مريم وتبسمت

فلما سمعت مريم ذلك بدت البغة في وجهها وخافت ان يصح قولها فتختسر حيلها وتضيء آمالها فتصاعد الدم الى وجهاها حتى اصطبغ واطرقت فظننت ميمونة أنها اطرقت

حياة على عادة البناء اذا خوطبن بمثل ذلك  
فقطمت الدهر مانة كل حديث بقولها « هلم الآن الى الرقاد فقد مضى معظم الليل » ثم  
صافت خالط صوت الصفيق خشخشة الاساور والدماج وجاء احد الحصيان فقالت له  
« اعدد غرفة خاصة بالضيوفين »  
فقالت ميمونة « اجعلها بقرب غرفة ان لم تكن هي نفسها لاني قد استأنست بالحبيبة  
مريم وهي استأنست بي » فأشارت الدهر مانة الى الحصي ان يفعل

## الفصل الرابع عشر

### العقد

وبعد قليل عاد الغلام وقال انه اعد كل شيء فانصرفوا جميعاً وسارت سالمة ومريم في آخر الغلام نحو الغرفة وقبل ان تصلا اليها سمعتا صهيل فرس اخراج له قلب مريم احتلاجاً متسرعاً لانه يشبه صهيل ادهم هانيء فلم تهمل ان سالت والدتها قائلة « كاني اسمع صهيل فرس الامير هانيء فهل هو هنا؟ »

قالت « لقد جاء معي الى هذا المكان و كنت احسبه عاد حالاً لانه سائر في مهمة ذات بال تتعلق بأسقف بوردو فالظاهر انه في شاغل موقت هنا ثم ينصرف »  
فتوسمت مريم من بقاءه هناك خيراً ودطا قلبها على انه أنها بقي لمشاهدتها فاشتعل خاطرها في ذلك وظهر الارتكاب في وجهها ولو تفرست امها فيها لرأت في عينيها ارتباكاً وتفكيراً وقلقاً ولكنها لم تتبه بشيء من ذلك لأن شغافها بأمر نفسها واستعدادها للمسير في العقد الى بوردو

اما الدهر مانة فلما خلت بنفسها اخرجت من جيبها منديلاً مصروراً على شيء في داخليه ومشت نحو المصباح وفتحت المنديل وأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ بسلامك من الذهب وفي وسط العقد صليب من الذهب مرصع بالياقوت والالماس على شكل بديع فوضعت العقد على كفها وأخذت تقبه وهي تبسم وتقول في نفسها « لابد من غرض هانيء باهدائه هذا العقد لي والا فليس في وجهي ولا في قamenti مايدعو الى الشغف او العشق ولا هو يحتاج الى وساطتي لدى عبد الرحمن لانه صاحب الكلمة النافذة عنده »

ثم امسكت العقد بأحد طرفيه بين اصبعيهما ورفعته أمام المضياح فأبرق الصليب بما فيه من الحجارة الكريمة فقالت «لاشك ان هذا العقد من جملة ما اصاب هانىء من الغنائم في واقعة اليوم فلا يهمه خروجه من يده ولكن لا بد له ، وغرض في اهدائه » ثم اتبهت بعثة وقالت في نفسها « عرفت غرضه . ولا يأس به » ثم صفت فدخل غلامها فقالت له « قل للامير هانىء يوافيني الى غرفتي من باهها الخارجي - خذ يده الى هناك ٠٠ ٠ ٠ » قالت ذلك وأرجعت العقد الى جيئها ومشت نحو الغرفة وهي تتوكل وتترجرج فوصلت اليها قبل هانىء بعض ثوان فجلست على وسادة بجانب جدار الحباء ثم أقبل هانىء وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ وقد ارخي العباءة فافتتحت عن صدره فبات الدرع من تحتها و حول خصره حمائل يتسللى منها سيفه المعهود - دخل مسرعاً حتى اقترب من الهرمانة وهي جالسة لم تتحرك ولكنها قالت له « مرحباً بالامير هانىء - تفضل اجلس » قال « لا اصبر لي على الجلوس ياخالة لاني ذايب في مهمه مستعجلة وقد أحبت ان اراك قبل ذهابي »

قالت « بورك فيك يايني فهل من حاجة اقضيها لك ؟ »

فتبسم هانىء وقال « لي حاجة سهلة جداً لا أظنك تضمنين بها علىّ »

قالت « وما هي »

قال «أرأيت هريم؟ .. أحب أن أراها وأخاطبها ساعة بحضورك حتى تكوني على

بيانه من سلامته ثابتٍ «

قالت «الآن؟

قال «كلاً • غداً صباحاً» بعد ذهاب والدتها • لاشك انك تحيين سؤلي وليس فيه ما ينفي منه «

فتحت الهمة وضحت وأشارت بعينيها أنها تفعل ما يريد فهم يديها ليقبلها

فہرستہ خفر ج و انصراف

اما مريم فقد تركناها ذاهبة مع والدتها الى المضجع وهي غارقة في بخار الموا蛟س  
ووالدتها لاتخاطبها فوصلت الى غرفة هي عبارة عن حجرة حجرة جدرانها من القماش وفي  
ارضها بساط وعليه فراش وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء مملقة بخيط خلستا  
على الفراش ومريم لا تزال ساكتة فلما استقر هما الجلوس قالت سالمة «نحمد الله يابنيه  
على نجاتنا من هذه الواقعة ونجاحتنا في اقناع أمير هذا الجندي بما نريده وفيه خيره وخير

هذه البلاد — فاعلمي يا مریم أني ذاهبة في صباح الغد الى اسقف بوردو وربما أبقى  
عنه يوماً او يومين لقضاء بعض المهام فهل يشق عليك هذا الفراق ؟ +  
فقالت مریم « ولماذا هذا النیاب وما هي تلك المهام التي تقضي أياماً للفراغ منها —  
وأنا لم افارقك قبل اليوم ملطفاً فهل استطيع البقاء وحدى بين الناس لا أعرفهم ۰۰۰  
فاتركي عندي حساناً فاني استأنس به »

قالت « أني في حاجة اليه في هذه المهمة + والآن غيابي يطول كثيراً »

قالت « لقد شغلت باللي ۰۰۰ هل تقولين لي سبب ذلك الغياب ؟ »

قالت « لا أخفي عنك يابنية أني انقطت مع الامير عبد الرحمن على أن أكون واسطة  
بينه وبين الغاليين سكان هذه البلاد الأصليين على شرط أن يعاملهم بالرفق والاحسان كما  
عامل موسى بن نصیر وابنه عبد العزیز نصاری الاندلس عند فتحها وأنا ذاهبة في صباح  
الغد الى اسقف بوردو فالاقیه بعد أن تكون الآنسة قد وصلته واعتقد صدق أمیر المسلمين  
فاستعينه واستعين سواه من سراة هذه المدينة في اقناع سراة البلاد الأخرى واساقتها  
وكثنتها ان المسلمين خير لهم من أود وغيره من أمراء الافریخ + وانا اعتقد انهم اذا  
وافقوني على ذلك أفلحوا + واعلمي يا مریم أني كشفتك بسرّ يحب ان يبقى مكتوماً  
عن كل انسان »

ولم تكن مریم تهتم بهذا الحديث مع اهميته لما جاش في خاطرها من امر هانئ وودت  
لو انها تعود الى ذكره لعلها تستطاع شيئاً من امره . ولكنها لم تستطع ذلك لأن والستة انقضت  
إلى تبدل ثيابها التماسًا للرقاد فسايرت هامريم وذهبت إلى فراشها ولكنها لم يغمض لها الجفن معظم  
ذلك الليل وهي تتوقع ان يناديها هانئ او يناديها أحد عنده فلما طال انتظارها بشرت من ذلك

## الفصل الثامن عشر

### دسيسة

اما ميمونة فانها ذهبت الى مضيقها بازاء مضيق سالمة لا يفصل بينهما الا الجدار  
و كانت مشتغلة بالنظر بما شاهدته من سالمة و عملت انها لم تدخل ذلك المعسكر الا لامر هام  
فتبظاهرت بالسکون واصفت لما عساها ان يدور من الحديث بين سالمة وابنته فساحت مادر

يدهما فلما اطاعت على السرّ همها امره كثيراً لانه يحول دون الغرض الذي رافقت تلك الحملة من اجله فباتت وهي تدبر الحيل وتهيء نصب الشرك وقبل ان ينبلج الصباح نهضت ميمونة من فراشها وتزملت بردائها وتظاهرت بالخروج الى خباء بالقرب من خباء الامير وكانت على موعد في كل صباح من ملاقاة رجل من الجندي تزعم انه كان من غلتها يوم كانت بباقة في ايام الميدر الافريقي . فرأى في اثناء خروجها فارساً قادماً من جهة المعسكر عرفت من قيادته ولون جواده انه هانيه فاستغربت قدومه في ذلك الصباح فلما توارى عن بصرها ذهبت الى موعدها فشكست هناك حتى جاءها الرجل وهو بربري عليه ثياب افراد الجندي قصير القامة خفيف الشعر خفيف العضل في نحو الثلاثين من عمره وفي عينيه حول شديد فاذا نظر اليك يوهمك انه ينظر الى رجل على مسافة بعيدة منك — فلما أقبل عليها بتسم و اشار بمحاجبيه وبعينه الشاردة انه في شوق شديد الى رؤيتها وانه قليل هواها

فابتسمت ميمونة له واظهرت الدلال وقالت له « يظهر يا عدلان انك نسيت سيدك وتغافلت عن وعودك كان الغائم شغلتك عن ميمونة وغضبتها تنسى مثلك » فاعجبه ذلك العتاب واستدل من وراءه على ما له من المنزلة عند تلك الحورية ربة الجمال والفنج — وقد كان مع علمه بما بينه وبينها من بعد الشاسع طامعاً بجمها وانما يقنعه من ذلك الحب ان يسمع مثل تلك العبارة فهو من قبيل ما يعبرون عنه بأذناب العشاق . لان العشاق ثلاثة عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يعلل القلبين ووعيشق يقنعه ان يقدم لعشوقته طاقة من الازهار او عقداً من الجواهر وكيفية منها قبول هديته ولا مطعم لها بما وراء ذلك وذنب العشاق وهو ان يقدم عشوقته خدمة تروق لدمها كاصل كتاب او جمل عتاب او ابتياع بعض حاجيات الطعام او نحو ذلك — وكان عدلان من النوع الثالث وقد جعله يعشقاً ويستهلاك في خدمتها ما كانت تبديه له من التلطيف حتى اطاعته على بعض سرها وما طلته بالرضا التام حتى يتم لها خدمة وعدها باتمامها منذ تشبت شملها بقتل الميدر الافريقي الذي ذكرناه في غير هذا المكان — فلما سمعها تعابه و تستعطفه ابدرها بالجواب وهو ينظر الى وجهها الجميل نظر المحب الوهان وقال « كيف تقولين ذلك يا مولاتي وانت تعلمين استهلاكي بخدمتك منذ اعوام واما الغائم فلا يخفى عليك ما تركه او ترك العرب منها وخصوصاً اليوم فانهم بعد ان فرقوا الغائم فيما عادوا فاسترجعواها واهانوا الامير بسطاماً اهانة ليس بعدها اهانة »

قالت «الامير بسطام؟ وكيف تركته يقبل بذلك ولم تخرضه على المطالبة بحقه .. الى متى هذا النيل؟».

قال «لقد حرضتهُ ولكن غريمه صعبٌ لا ينال ..»

فأات. «ومن هو غريمك . . .

قال « هو الامير هانىء نفسه واظنك رأيته قادماً في هذا الصباح الى هذا  
الخيار .. »

قالت «نعم رأيته وما غرضه فيه»

قال «غرضه تلك الفتاة الجميلة التي بعثها الامير عبد الرحمن اليكم بالامس فانها غنية الامير بسطام وقد اخذها الامير هانى، رغم اتفاقه وساعدته الامير عبد الرحمن على ذلك»

فقالت «وهل هي رضيت بهذا العربي وفضلته على ذلك الامير؟»

قال « يظهر أنها أحبت هائلاً وتعلقت به .. .»

اما هي فلما ايقنت بوقوع الشافر بين هاني وسطام عادت الى اعمال التكرة الایقاع  
بين هاني وعبد الرحمن ليتم لها افساد امر ذلك الجيش الكبير لعلهما ان فوزه اثنا يقوم  
باتحاد هذين الاميرين . وكانت قد علمت ان عبد الرحمن اثنا ارسل مريم الى الخباء لتكون

في مأمون من سواه وقد رأت ان «حب» هانىء ابريم يسوء عبد الرحمن فعزمت على ايقاد نيران الغيرة بينهما فسارت تؤوا الى غرفة مريم فلم يجدتها وبحثت عن الدهرمانة فقيل لها انها في غرفتها فتحقق ظنها فعادت الى غرفتها مسرعة وقد خطرت لها حيلة ظنت انها تناول بها اربها فنادت غلاماً من غلامي الخبراء كان في الاصل من غلامي المنيذر الافريقي وأخذ في جملة من أخذ من الاسرى وأصله من الافرنج الذين آتوا مع لمباجة بنت اود يوم تزوجها المنيذر ولما أخذت ميمونة ظل هو في جملة الخدم وقد استبقته هي لاستخدامه في اغراضها عند الحاجة . فلما جاء الغلام قال له «اسرع يا داود الى الامير عبد الرحمن هل لك اجنحة لتطير بها اليه؟ »

قال «نعم يا مولاي »

قالت «طڑ اليه على عجل وقل له ان ميمونة تقرئك السلام وتقول لك بادر اليها الان لامر هام تريد ان تطلعك عليه في هذه الساعة ٠٠٠»

فقال «حباً وكرامة» وتحول وسار وهو يشب كالغازل النافر يطلب المعسكل وجلس مت ميمونة في مكان ترى منه كل من يخرج من الخبراء

## الفصل التاسع عشر

### لقاء الحبيبين

اما هانىء فإنه جاء الخبراء باكرأ كارأيت لشدة شوقه الى لقاء مريم ولا نظنه نام كثيراً في ذلك الليل فوصل غرفة الدهرمانة فاستقبلته واستمهلته ريثما تصرف سالمه وسارت الى سالمه حتى تهيأت للخروج فودعتها فأوصتها سالمه بابتها خيراً وركبت وسار حسان في ركبها فعادت الدهرمانة وقد سرها ان لا تكون ميمونة في الخبراء لذا تطلع على سر تلك المقابلة . فلما مضت سالمه استدعت مريم الى غرفتها فنشت معها وهي تفكير في هانىء وبعده عنها . فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بقفت وتصاعد الدم الى وجنتها وغلب الحياة عليها فأرسلت خارها على عينيها وأطربت وقد صبغ الحياة وجهها . فلم يكن ذلك الا ليزيدها جمالاً ورونقاً في عيني هانىء . أما هو فقد كان في انتظارها في الغرفة على مثل الجمر وقد حسب الساعة التي مضت في اثناء انتظاره عاماً طويلاً . فلما سمع خيشخة

الداخل والخارج وراء جدار الغرفة علم ان القهرمانة قادمة ثم مالت ان رآها داخلة وصريم في أثرها فلما رأى اصطباغ وجه صريم بالحياة زاد هياماً بها فهض لاستقبالها فسمع القهرمانة تقول وهي تظاهرة ان وجوده كان هناك اتفاقاً «ما الذي جاء بك في هذا الصباح يا حضرة الامير»

قال «لقد جئت لارى وجهك الجميل ياخالة»  
فضحكت القهرمانة وقالت «لا أظن وجهي تجبيك تجدهاته وكأنني علمت بقدومك  
فأتيت اليك بهذا الوجه الجميل فهل تعرفه؟»  
فابتسم هاني وقد غلب عليه الفرام وقال «لقد عرفته وكلفت به ولكن هل هو  
يعرفني؟ لا أدرى»

وكانت صريم مطرقة فلما سمعت كلامه رفت بصرها ونظرت اليه بعينين قد  
أذبلهما الفرام وتلالات فيهما مياه الحب نظرة تغنى عن خطاب فلم يتمالك هاني عند  
ذلك ان قال «قد فهمت الجواب»  
فضحكت القهرمانة وامسكت ييد صريم واجلسها وقالت وهي تحاول الجلوس  
«ما اسرع ما فهمت جوابها وهي لم تتكلم»

جلس هاني وهو يتلف بعبأته ويصلاح عمامته وكان قد أبدلاه من الخوذة في ذلك  
الصبح وقال «لقد داني قابي يا حالة .. ومن القلب الى القلب دليل»  
ثم التفت الى صريم وقال «لاتخافي يا صريم اني لم آت لازعجك وانما جئت لاتتحقق  
ما حدثتني نفسي به حتى اذا صدق ظني وخدمي سudi وقفت نفسي لخدمتك وجعلتك  
اسعد العالمين — الا اذا كان هذا الخبر يسوشك»

فشهدت صريم تسكيناً لما جاش في صدرها من الخفقات مما لم تعهد من قبل وهممت  
بالكلام ومنعها الحياة وكانت لاتبالي اذا لقيت الرجال في حومة الونغ فكيف تلعم لسانها  
بيان يديه وجل يسمى رضاها ويتوقع سباع كلمة من فيها ليتنفس بها ويجعلها تعويذة في عنقه  
— ولكن هو الحب يذل الاسود ويلعثم السنة الفصحاء — وظهر من خلال شفتي صريم  
مع ذلك انها تكتم امرأاً تود التصریح به لولا الحياة، فادرك هاني بذلك فيها قوچه بكلته  
نحوها وقال وقد أخذ الهم منه ما خذلأ عظيمها «قولي يا صريم لاتخافي ولا تكتشمي فان  
خلاتي القهرمانة لا يستحق منها بل هي خزانة اسرارنا قولي .. هل تحييني؟»

فالتفت اليه وبحجلت وقالت « وما الفائدة من الحب اذا لم يكن متبادلاً وأنت معاشر النساء قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات والحب لا يكون صحيحاً الا اذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث »

فبعثت هانيه لهذا التعریض وهو لا يرى له محلأً وقال « لست من هؤلاء يا مریم . وهذه اخالة تعلم اني بلغت هذا السن ولم اتخذ امراة ولا اقتنيت جارية ولا سرية . . . اسألكمها تنبئكم فانها مطلعة على احوال سائر الامراء في هذا الجند فان لكل واحد منهم خباء لسائه وجواريه واما انا فلا خباء لي ولا احبيت امراة ولا فتاة ولم يكن يخطر ذلك ببالى قبل ان رأيتك في صباح الامس فزعمت على ان تكوني انت نصيبي في هذه الدنيا وتأكيداً لذلك فاني اعادك من هذه الساعة اني لا التفت الى سواك . . . فهل تعاهديني انت ايضاً ؟ »

فابرقـت اسرة مریم واشـرق وجهـها وتجـلت في عـينـيها وحـول فـمـها ابـسـامة ظـارـقـابـهـانـيـهـ لها وخفـق قـلـبـهـ سـرـورـاًـوقـالـ وـلـمـ يـنـظـرـ جـوـابـهاـ «ـ وـلـكـنـ لـيـ شـرـطـهـ عـلـيـكـ وـعـلـىـ نـفـسـيـ اـنـيـ لـاـ اـتـمـ شـيـئـاًـ قـبـلـ الفـرـاغـ منـ هـذـهـ الحـرـبـ فـاـذـ عـدـنـاـ مـنـهـاـ فـائـزـيـنـ وـنـخـنـ فـائـزـونـ باـذـنـ اللهـ كـانـ مـاـ نـتـمـنـاهـ . . . فـهـلـ تعـاهـدـيـنـيـ عـلـىـ ذـلـكـ ؟ـ . . . »

فقالـتـ وـهـيـ مـطـرـقةـ حـيـاءـ «ـ وـذـلـكـ هوـ الشـرـطـ الـذـيـ اـشـرـطـهـ اـنـاـ اـيـضاـ لـاـنـيـ اـذـ فـزـتـ بـكـ عـنـدـ ذـلـكـ اـكـونـ قـدـ نـلـتـ السـعـادـتـيـنـ . . . »

فـقـالـ «ـ فـلـتـعـاـقـدـ اـذـاـ عـلـىـ هـذـاـ الشـرـطـ»ـ وـمـدـ يـدـهـ نـخـوـهـاـ وـنـظـرـ الـىـ يـدـهـ اوـلـسانـ حـالـهـ يـقـولـ «ـ مـدـيـ يـدـكـ»ـ فـدـمـتـهـ نـخـوـهـ بـيـطـءـ وـهـيـ تـرـتـحـفـ مـنـ شـدـةـ التـأـثـرـ فـامـسـكـهـ بـيـدـهـ وـضـغـظـ عـلـيـهـ فـاحـسـ كـلـاـهـاـ بـجـرـىـ كـهـرـبـائـيـ اـرـتـعـدـتـ لـهـ فـرـائـصـهـ وـوـقـفـ هـانـيـ ؟ـ مـدـفـوعـاـ وـوـقـتـ مـرـیـمـ وـهـوـ يـقـولـ «ـ لـاـ بـدـ لـيـ مـنـ الـذـهـابـ السـاعـةـ إـلـىـ الـعـسـكـرـ لـتـأـهـبـ لـلـقـاءـ الـعـدـوـ وـاعـدـكـ اـنـيـ سـابـلـوـ فـيـ الـاعـدـاءـ بـلـاءـ الـابـطـالـ لـعـلـمـيـ اـنـ ذـلـكـ يـسـرـكـ فـادـعـيـ لـيـ بـالـنـصـرـ . . . »

ثـمـ مـدـ يـدـهـ اـلـىـ كـمـ وـاسـتـخـرـجـ قـارـوـرـةـ تـفـوحـ مـنـهـ رـائـحةـ الطـيـبـ قـوـيـةـ وـقـدـمـهـ اـلـىـ مـرـیـمـ وـهـوـ يـقـولـ «ـ وـهـذـهـ قـارـوـرـةـ مـنـ طـيـبـ خـاصـ لـيـسـ مـثـلـهـ اـعـنـدـ اـحـدـ فـيـ هـذـاـ الـحـبـاءـ نـطـيـبـيـهـ وـحـدـكـ حـتـىـ اـذـ اـتـيـتـ لـزـيـارتـكـ تـنـسـمـتـ رـيـحـكـ قـبـلـ وـصـوـلـيـهـ اـلـيـكـ فـأـسـتـدـلـ عـلـىـ وجودـكـ قـبـلـ اـنـ اـرـاكـ وـانتـ اـيـضاـ كـلـاـ شـمـتـ رـائـحةـ هـذـهـ الطـيـبـ تـنـذـكـرـيـنـ قـتـيلـ هـوـاـكـ . . . »ـ قـالـ

ذـلـكـ وـعـيـنـاهـ تـنـلـأـ لـآنـ مـنـ شـدـةـ الـهـيـامـ وـنـظـرـ الـهـيـامـ نـظـرـ المـحبـ الـوهـانـ

فـدـتـ يـدـهـ وـتـنـاوـلـتـ القـارـوـرـةـ وـهـيـ تـبـتـسـمـ ثـمـ تـذـكـرـتـ فـرـاقـهـ هـانـيـ فـلـكـ السـاعـةـ فـانـقـبـتـ

نـفـسـهـاـ فـالـتـفـتـ نـخـوـهـاـ وـتـرـفـقـتـ فـيـ عـيـنـهاـ العـيـراتـ

وكانت الهرمانة في أثناء ذلك الحديث قد استغرقت في النوم وهي جالسة اذ لا يهمها من هذا الاجتماع الا ما ناله من التحف وما ترجوه من المداعيات المتواصلة . وبينما هي غارقة في احلامها علت الضوضاء خارج الباب فانبهت فسمعت قرقة الجم ودببة الخيل فبفتن وبفت هاني ومريم . وقبل ان تنهض الهرمانة سمعت بعض الغلستان يصبح من الخارج « اين السيدة الهرمانة »

فنهضت الهرمانة وصاحت « من يناديني ؟ » وخرجت فاستقبلها احد الغلستان وهو يقول « ان الامير عبد الرحمن يدعوك اليه » فقالت وقد علمتها البغة « واين هو .. ؟ » وهرولت نحو القاعة فقال الغلام « هو ينتظرك في القاعة » فعادت الى هاني وقالت له « اسرع يا مولاي الى جوادك وامض قبل ان يراك الامير هنا فربما رابه امرك » فا كبر هاني ان يخرج خروج المارب فتجدد وقال « اذهبي انت اليه ولا تخافي فاني خارج على مهل »

## الفصل العشرون

### البغة

فدخلت الهرمانة وقد ارادت ان ترسل مريم من باب آخر يؤدي الى غرفتها وتسير هي تواً الى القاعة للاقامة الامير عبد الرحمن وخرج هاني من الباب الخارجي وهو رابط الجأش حتى وصل الى ادهمه وهم بان يركبه فلقي بجانب الجواد رجالاً من ملازمي الامير عبد الرحمن وقد امسك بشيكنته . فلما دنا هاني منه قال له « ان الامير يتقدم اليك ان توافيه الى خيته في المعسكر فانه عائد اليها على محمل »

قال « ومن ابناء اني هنا »

قال « عرف ذلك من جوادك »

اما الهرمانة فلم تكدر تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن وكانت مريم قد ازدادت بذلك البغة احمراراً وتجلت دلائل الحب في عينيها مع ما يعشها من الدمع

فليا رأت الامير عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه  
اما هو فحالما رأها تذكر والدتها فخاطبها اولاً ولم يلتفت الى الهرمانة وقال « مريم !  
اين والدتك هل سافرت ؟ »

قالت « نعم يا مولاي سافرت في هذا الصباح باكراً » قالت ذلك بشغفتها المعلومة ولم  
يكن عبد الرحمن سمعها تتكلم بعد فاعجبته تلك اللشقة وكان لفروط ذكائه وصدق فراسته قد  
رأى على وجهها آثار البغضة وتذكر انه رأى جواد هاني بباب غرفة الهرمانة من الخارج  
فادرك ان هنالك كان هناك معها ، فظهور عبد الرحمن بعد الملاية وتأكيدها للعدم يبالاته  
خاطب الهرمانة ببرود وسذاجة قائلاً « وهل رجع الامير هاني ؟ »

فليا سمعت الهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه وكاد يرتجع عليها لوم يدارك الامر هو  
بقوله « ولكن لا يأس من ذهابه فاني سالاقيه بعد رجوعي » ثم مشى نحو مريم وهو  
يخاطب الهرمانة قائلاً « قد اوصيتك يا خالة باكرام هذه الضيفة واعيد الوصاية الان  
ان تبالغ في رعايتها واكرامها ولا تتعني عنها شيئاً ولا تدعها تستوحش في هذا الخباء فانها  
اعز نسائيه عندي »

فانبسطت نفس الهرمانة لذلك واطئن بالما وتبادر الى ذهنها ان عبد الرحمن غافل عما  
حدث من امر هاني ومريم وقالت « اني فاعلة حسب امر مولاي وبالحقيقة ان مريم لا يراها  
احد الا احبابها وآكرهاها »

فقطط عبد الرحمن كلامها وهو يقول « اين ميمونة .. هل هي في غرفتها ؟ »

قالت « اظنها هناك » ومشت للتبحث عنها

فقال لها عبد الرحمن « امكثي هنا مع مريم او امضي بها الى حيث تشاءين وانا اذهب  
الى ميمونة فاني اعرف مكانها .. »

وكانت ميمونة قد رأت الامير عبد الرحمن عند وصوله الى هناك وعلمت انه رأى  
جواد هاني ورأته يخاطب بعض غلاته ويشير الى ذلك الجواد فدخلت وجعلت تنسم  
ما عساها ان يكون من امره بعد ان يرى الهرمانة ومريم وبعها هاني فشعرت انه لقيها  
خارجتين من تلك الحجرة وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماعها فعزمت على  
التصريح بذلك

اما عبد الرحمن فشيئا تائما حجرة ميمونة والخدم يتناولون بين يديه تهيئا او يقفون  
له وقارا حتى اقترب من باب الحجرة فتظاهرت ميمونة اثنها قلقة لابطئاه في الوصول اليها

فأسرعت الى الباب وجعلت انها كانت في انتظاره على مثل الجمر . فلما اقبل حيشه وتادبت وعيناها تنظران اليه نظر المحب العاشق بلا تصنع مع انها غير عاشقة وإنما كان ذلك منظر عينيها لما فيها من المعان مع ما يتكلفه من اظهار الوجد بالابتسام والاطلاق فيندفع الناظر اليها ويحس بها متفانية في جبهة وخصوصاً اذا كان هو يحبها . اما عبد الرحمن فكان يستلطف ميمونة كثيراً ويحب قريها ولكنها كان ينظر اليها نظرة الى بعض جواريه وكان من الجهة الأخرى قد عاد نفسه ان لا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار فضلاً عن اشتغال خاطره بهم الفتح عن مجاعة النساء ومسامرهن ، ولذلك فلما كان يأتي الى الخبراء واذا اتاه اظهر لميمونة تلططاً خصوصياً لغرض في نفسه لم يكشف به احداً . وكانت هي رهباً ادركت غرضه وتجاهلت او انها ظهرت لها بريده هو وجعلت انها تفعله عفواً ولما من وراء ذلك مأربٌ لتصوره عبد الرحمن لمجل بها الى الفناء

## الفصل الحادي والعشرون

### المكر المتداول

علمت ما تقدم ان ميمونة سيدة افرينجية كانت في جملة خدم لمباجة بنت الكونت اود حاكم تلك المقاطعة في فرنسا وقد سببت في جملة غنائم الميدر الافريقي زوج لمباجة المذكورة - وكان اهل الخبراء يعتقدون ان ميمونة كانت من خاصة نساء لمباجة واقرب المقربات اليها . فكان عبد الرحمن يرجو الانتفاع من ذلك في بعض الاخبارات مع اود او بعض قواده ولكن كتم هذا الامر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهاني . فلما بعثت ميمونة اليه في ذلك الصباح اسرع اليها على عجل وهو يتوقع منها خبراً يتعلق بالحرب من قبيل ما تقدم

فلا راي وقوتها على تلك الصورة خيل له انها تعشّفه و تستهلك في خدمته فسرّه ذلك على امل استخدامها في غرضه فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وهو يقول « ما الذي تريدينه مني يا ميسولة » -

فقالت وهي تحاول القعود بتآدب « اريد اموراً كثيرة يا مولاً لي لا ادرى ايهما

اقوله اولاً » قالت ذلك وتنهدت واستنائلت دمعتين رآها عبد الرحمن ثساقطان على خديها وهي مطرقة تظهر انها استحيت من افتضاح سرها بهما فانخدع عبد الرحمن ولكنه اجاها على الفور « لا ماري حاجة الى ذلك وانت تعلمين ما عاهدت ربى عليه منذ عزمت على هذه الحرب »

فاسرعت في الجواب كأنها تستدرك اصلاح ما تبادر الى ذهنها فهمه خطأ فقالت « لا يتوجه مولاي الذي اطعم بغير رؤية هذا الوجه الصبور .. ولكنني نخطة في التطاول الى ما لا استحقه فان في خباء مولاي الامير عشرات من امثالي وما فيهن من تجرا على هذه الكلمة .. اماانا فلا ادري ما الذي جرأني عليها .. فهل ذلني قابي على الصواب او لعله خدعني .. لا ادري .. وفي كل حال يكفياني ان يكون الامير عالما بما له في هذا القلب من الحب الشديد على اني لا اكلمه مثله او مثل بعضه لان الحب لا يكون قهرا .. »

قالت ذلك وغضت بريتها وسكتت

وكان عبد الرحمن يعتقد ان ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك العتاب قبلًا فتبادر الى ذهنه انها اندفعت الى العتاب غيره عليه من مريم والغيرة تفعل العجائب فاراد ان يتحقق ظنه فقطع حديثها وقال « هل رأيت الضيفة الجديدة؟ »

فسرت ميمونة لابداء عبد الرحمن بذكرة افاجابت على الفور « كيف لم ارها وقد وقفت نفسي خدمتها من ساعة وصوتها لعلني ان ذلك يرضي مولاي الامير .. ولم افارقها الا ساعة في هذا الصباح لانشغلها في غرفة الهرمانة مع الامير هانى .. » قالت ذلك وهي تتظاهر انها ثقوله بسذاجة وسلامة ضمير واضفت بكل جوارحها لما عساه ان يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر

اما هو فاحس بشيء من الغيرة وتدذكر ان والدة مريم اما اذخرتها له وفكري في اختلاه هاف .. هرم على تلك الصورة فلم يسباً غير الحب المتبادل بينها فحدثته نفسه لأول وهلة ان يمنع هائلاً من ذلك ولكن حبه هائلاً ورغبته في حفظ الوفاق معه الى نهاية تلك الحرب — كما شرطاه على نفسها — غالب على ذلك الشعور وتصوّر ما هي من الامر العظيم والخطر الشديد فاضمر في باطن سره انهم اذا فرغا من هذه الحرب فائزين وظل هائلاً على ما شرطه على نفسه من البسالة والثبات ساعدته على نيلها — فتجلى عبد الرحمن واجاب ميمونة وهو يظهر عدم المبالغة « ولكن هائلاً خرج الان من عندهما وشاهدت مريم مع الهرمانة وقد سرفت ارتياحها للإقامة في هذا الخباء فارجو ان تعيويها التفاتك لاني موصى باكرامها ولبي بذلك

غرض ارجو ان تساعدني عليه »

فلا سمعت ميمونة قوله استغربت ما يكتمه من امر هذه الفتاة وتأسفت لذهاب سعيها هباءً منشوراً ولكنها ارادت تحقيق الامر فبالغت في التجاهل واظهار السذاجة وقالت « أَكَدْ يَا مُولَايِ إِنِّي فَاعِلَةٌ مَاتِرِيدَهُ وَبِالْحَقِيقَةِ أَنَّ هَذِهِ الْفَتَاهُ مِنْ نَوَادِرِ الْخَلْقِ جَمَالاً وَتَعْقِلاً وَرِزْانَهُ وَهِيَ خَفِيفَةٌ عَلَى الْقَلْبِ لَا يُسْتَطِعُ جَلِيسَهَا إِلَّا إِنْ يَجْهَهَا فَلَذَا كَنْتُ لَا أَكْرَهُهَا أَكْرَاماً مَوْلَايِ الْأَمِيرِ فَإِنِّي أَفْعَلُ ذَلِكَ حَبَّهَا . وَلَا بَاسَ إِذَا أَحْبَهَا الْأَمِيرَاً كَثُرَ مِنْ سَائِرِ نِسَائِهِ لَأَنَّهَا أَهْلٌ لِذَلِكَ »

فخاف عبد الرحمن اذا طال الحديث ان يدركه ما لا يزيد التصریح به فابتدرها قائلاً « لقد خرج بنا الحديث عن اصل الموضوع .. ما الذي دعوتي من اجله الآت ؟ .. »

فاظهرت الاهتمام وقالت « دعوتك لامر هام وكان يجب ان لا اقدم قولاً عليه وربما كان فيه وحده ما يغطي عن الادلة على حبي للامير عبد الرحمن وتفانيه في خدمته - فاعلم يا مولاي اني بثنت العيون من بعض الذين تركتهم خدمتي لاستطلاع احوال العدو بعد سقوط بوردو فعملت ان الكونت اود ورجاله متربصون لكم في مضيق دردون<sup>(١)</sup> على مقرية من هذا المكان . والمضيق في طريقكم الى نهر لوار »

ولم يكن عبد الرحمن غافلاً عن اخبار عدوه لان جواسيسه كانت مبثوثة في كل الانحاء وأكثراهم من اهل البلاد الاصليين وخصوصا اليهود فانهم كانوا يبنلون كل شخص وغال في مساعدة المسلمين انتقاماً من المسيحيين وطبعاً بالغناائم كما تقدم - فلم يكن خبر اود ودردون ليخفى على عبد الرحمن ولا كانت ميمونة تجهل اطلاعه عليه ولكنها تجاهلت وأظهرت الاهتمام بأمر الجندي وأوهمت أنها اطلعت على ذلك السر بسعيا الحخصوصي ولو علمت انه يجهل ذلك الخبر باللغت في كتمانه . فسايرها عبد الرحمن وأظهر انه فرح بذلك الخبر تنشيطاً لها على السعي في خبر آخر فقال لها « بوروك فيك يا ميمونة لقد تحققت الان حبك لضررنا وأرجو ان لا تغلي عن مثل ذلك ٠٠٠ »

لم تكن ميمونة تجهل اطلاع عبد الرحمن على ذلك الخبر من قبل ولكنها تجاهلت التمساً لما يسوغ لها استقدامه في ذلك الصباح لتطالعه على حب هانىء لمريم ايقاعاً للفتنة بين الاميرين وقد ساعدها ان حيلتها لم تأت بالفائدة المطلوبة . ونسبت حبوط مساعها الى

سعة صدر عبد الرحمن وطول آناته فأضمرت ان تحوّل سهام مسامعها نحو هانه شاب لا يصبر على الكظم . وغرضها الاول ايقاع الفتنة بين ذينك القائدين وباحتقارها فشل ذلك الجندي الكبير — فعممت على تدبير الحيلة في وقت آخر ولما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت اليه نظرة يتخللها العتب والدلائل والاستعطاف ولو لارزانة عبد الرحمن وقوفه ارادته لحرقت تلك النظرة صدره الى قلبه وهاجت فيه لوعيغ الغرام وانسته الجندي وارباه لما في عينيها من عوامل الجاذبية وما حول فيها من الملامح الفتانية وما في محمل ذلك من السحر الاخذ بالالباب — ولاغر واذا عبر الشعرا عن تلك الجواذب بالسحر لانها تعمل عملاً لا يمكن تعليمه بغير السحر . وربما عبر عنه بعض علماء الطبيعة اليوم بالکھر بائية فن كان حسنة جداً قالوا ان کھر بائته قوية — وهو عبارة عن تفسير الماء بالماء

## الفصل الثاني والعشرون

### من شق الماء

فلما نظرت ميمونة الى عبد الرحمن تلك النظرة فهم أنها تعاتبه على ذلك القول ولسان حالها يقول له «أني قليلة هواك ومسهلة في خدمتك» فسرّه اقتانتها به رغبة في استخدامها لما ينفع الجيش فابتسم لها وهشّ وفي زعمه انه يزيدها بذلك استهلاكاً في خدمته وهي كلما رأت منه العطايا بالغت في اظهار الافتتان به . فلما علم عبد الرحمن أنها فرغت من الخبر الذي استقدمته لاجله نضر وهم بالخروج فهضت ميمونة وهي تقول «لولا عامي بالمهام الكثيرة التي تتعلق بذهابك أيها الامير لوسلت اليك ان تبقى هنیة أخرى ٠٠٠ فهل أنت عازم على الذهاب للاققاء العدو قريباً ٠٠٠؟ واذا ذهبت فهل تتركني هنا ٠٠٠»

فادرك أنها تقول ذلك تدللاً فلم يحبها بغير الابتسام وخرج مسيراً يلتمس جواده ليرجع الى المعسكر فشتت ميمونة في أثره حتى اذا اوشك الوصول الى باب الخباء سمعته يقول «مرحباً بالامير هانىء الا تزال هنا؟ لماذا لم تدخل الخباء ٠٠٠؟ فازدادت ميمونة استغراباً من ذلك التردد

فتقديم هانىء وهو يلتقط بعبأته وليس في وجهه، وجل ولا خجل وقد أكابر ان يرجع الى المعسكر وجوع الهارب بعد ان علم عبد الرحمن بوجوده هناك - شق عليه ان يفعل ذلك انفه وكبراً وخصوصاً بعد ان علمت مريم به ، فلما اوعز اليه غلام عبد الرحمن بالذهاب الى المعسكر وقف ورجله في الركاب لا يتكلم ولا ينتقل . وخيل له ان مريم تنظر اليه وتراقب حركاته فلبت حيناً واقفاً ثم تحول عن الجواب بفترة ومشي نحو باب الحباء يلتسم ملاقاًة عبد الرحمن . فقيل له انه في خلوة لا يراه فيها احد فنزم على انتظار خروجه سُفْلَ يُخْطِرُ أَمَامَ الْحَبَاءِ وَعِينَاهُ تِرَاقيَه

وكانت مريم لما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت الى التذكر في هانىء وخروجه على تلك الحالة فأرادت ان تستطلع أمره فتحولت الى جدار الحباء ونظرت من شق فيه فرأت هائلاً يتمشى خارجاً وعبأته وسيفه يجران وراءه وهو يلاعب شاربيه ولحيته ويتسلل بشتيه كالاسد . فاحتلنج قليها في صدرها سروراً بلقياه وودت لو أنها تخاطبه ولكنها خافت من القهرمانة فاكتفت بالنظر اليه وتأمل حركاته على غفلة منها . وبعد قليل سمعت ضجة في الحباء فلعلمت ان عبد الرحمن خارج فاحببت ان تعلم ما يكون من أمره اذا لقي هائلاً فتحولت بحيث تراها ولا يراها احد لاشغال القهرمانة وسائر اهل الحباء بوداع الامير . فرأت هائلاً مشيا نحو عبد الرحمن حتى التقى وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الاخ ويعاتبه على تخلفه وهانىء يدل عليه دلال ابن على ايه وعبد الرحمن يتسم له ويرحب به وسمعت هائلاً يقول وهو يخطو نحوه « يانغي انك سألت عنني »

فاجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه « وهل يسأل المرء الا عن أخيه او حبيبه » قال ذلك وابتسم واهل الحباء يسمعون وأكثراهم سروراً بذلك مريم وآشدهم غيظاً ميمونة ثم مشى عبد الرحمن ويده يهد هانىء فقدموا لهما الأفراس فركبا الى المعسكر وحوهما الخدم والاعوان وظلت ميمونة ومريم تضران الى ذلك الركب وكل منهما في ناحية وقبلها في ناحية حتى توأروا فعادت ميمونة الى خلوتها واعملت فكرتها في حيلة اخرى وقد اسفت اسفاً لا من يد عليه لفشلها وذهب سعيها هdra

## الفصل الثالث والعشرون

### المكافحة

اما مريم فانها عادت من وراء ذلك الجدار وقد اثبتت نيران الحب في قلبهما والتقت اخلوة لترابع في ذهنها مدار بينها وبين حبيبها استثناساً بذكرة ومخافة ان يكون قد بدأ منها عبارة تؤاخذ عليها . جلست في غرفتها هنيهة كأنها في عالم الخيال ثم انتهت للقارورة وكانت لا تزال في قبضتها فنظرت اليها وفتحتها واشتم رائحتها فطررت لها واستأنست بها الانها من هانئ وصبت قليلاً من الطيب على كفها دهنت به شعرها ووجهها وكفيها ففاحت منها رائحة ملأت الباقة بطيبيها

وبينما هي في خلوتها اذ دخلت عليها ميمونة وهي تبتسم ابتسام محب محجب بحبيبها فقابلتها مريم بابل ابتسامها وقد ارتأت اليها وთاقت الى مكافحتها بما شغل خاطرها من الحب ولكنها امسكت نفسها لثلاً يكون في ذلك ما يغضب حبيبها . على انها رجت ميمونة وتحفظت ل الوقوف احتجاء بها فسبقتها ميمونة الى الحديث فقالت وهي ترش لها « اراك عدت من غرفة القهرمانة وقد زدت طيباً »

وكانت القارورة لا تزال في قبضتها فضخت وبدا الحباء في وجهها وبدرت الى القارورة فنجأتها في حبيبها ولم تحر جواباً

فادركت ميمونة ان بين تلك القارورة وهانئ علاقة فعمدت الى استكشاف سرها منها فقالت « لقد زادك الحباء طيباً يا حبيبتي .. العلّ الطيب من ضيفك البطل الصنديد الامير هانئ .. ارجو ان لا يكون من سواه لانه يليق بك .. ولو خيرت ان تنتقي لك حبيبآ من بين رجال العالمين لما وقع اختيارك على خير منه »

فادركت مريم اطلاع ميمونة على ذلك السر ولكنها تجاهلت وقالت « كيف تحكمين على الامر قبل التثبت .. من أين عرفت ذلك؟ »

قالت وهي تضحك وتقرب من مريم « عرفته من مصدر وثيق .. وتحققت من قرائن الاحوال .. اذا كنت تذكرين ذلك عليّ فان ملامحك تشهد عليك .. علي اني لا الومك على التستر لان الحب يخلو بالكتنان وقد كان يهدوبي ان اسايرك وأظهر افتتاعي بانكارك ولكنني لم ارض بذلك شفقة عليك وحبّا بك »

فلا سمعت مريم قولها استغربت تليجها بالشقة ولم تفهم مرادها فرفعت بصرها اليها وقالت «لم أفهم مرادك من الاشغال العل في حالي ما يبعث على الشفة؟ افصحي . . .» فقالت «لا أقول شيئاً قبل ما تعلقدي حبي لك وغيرتي على مصلحتك . . .» قالت «أنت تعليمي أني احبتك وقد وثقت بك من اول نظرة وخصوصاً بعد معاينته من حبك لي فلا حاجة بعد ذلك الى برهان»

قالت «صدقت يا حبيبة اني اشعر من قابي باخلاصك ولكنني أخاف اذا قلت لك قوله ان تحمليه على غير محله ومع ذلك فاني افعل ما تدعوني اليه محبتك . . . نعم ليس هناك ما يدعو الى القلق الكثير ولكنني اخبت هؤلاء العرب واطلعت على سجاياهم وفي جملتها انهم يغارون على اعراضهم غيرة شديدة . وانت تعليمي انك هنا في خباء الامير عبد الرحمن وكل من في هذا الخباء من نسائه فيجدرك ان تخاذري من التظاهر بشدة ميلك الى الامير هانئ في حضرته - وأظن الامير هانئ نفسه يتوقع ذلك منه - لاتطفي اني اقول هذا بناء على قول سمعته فاني اعتقد حب الامير عبد الرحمن لهايف ومراعاته جانبه حتى انه لا يمنع عنه شيئاً يريد له لأن عليه معتقده في هذه الحرب وهو عينه الذي يتضال بها . ولكنني أردت تنبئك لعلك ان هانئ يريد ذلك منك وان كان لا يظهره لك انة وترفعاً . واما أنا فقد اخبرت عادات القوم وأدابهم في هذا الشأن . . . ولعمرك سمعت عن منزلتي عند الامير عبد الرحمن والا فاني أخبرك اني اقرب نسائه منه وهو يعتمد علي في كثير من المهام . فاذا علمت ذلك كوني على يقين ان الامير عبد الرحمن لا يفعل الا ما يرضيك»

فقبلت مريم تلك الصيحة باخلاص وازدادت وثوقاً ميمونة بعد ما عرضت به من مساعدتها وهان عليها مكافحتها بما في قلبها فالتفت اليها وقد انبسطت نفسها وقالت «أشكرك على ذلك يا سيدتي وساً غسل حسب اشارتك . . . ولا ريب انك عالمة بكل ذلك وانت من اكثربناء هذا الخباء ذكاءً ولطافةً . . .»

فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت اليه وأرادت الانتقال الى موضوع آخر فقالت «ذكرت لك الطيب فلم تجيئي عليه . . . أين القارورة؟»

فهدت مريم يدها واستخرجت القارورة ودفعتها الى ميمونة ففتحها واشتبك رائحتها وهي تقول «لم اشتم في عمري مثل رائحة هذا الطيب انه طيب خاص ليس عند احد من اهل هذا الخباء مثله . . .» قالت ذلك وارجعت القارورة ولم تمس ما فيها

فقالت مريم «تطيب بشيء من هذا الطيب فانك اهل لذلك . . .»

فامتنعت ميمونة وهي تسد القارورة ونقول «لا يجوز لاحد سواك ان يمس هذا الطيب  
لأنه هدية خصوصية لك» ودفعت اليها القارورة وهي تبالغ في الامتناع  
فاستحسنست مريم تمنعها وزادت وثوقاً بصدق موتها فتحت لها قلبهما وصارت لا تستأنس  
الا بقربها مع ميل الى مكاشقتها بعواطفها وميمونة تحمل فكرتها لاستخدام ذلك  
عند الحاجة

## الفصل الرابع والعشرون

### الاطمئنان

اما عبد الرحمن وهانىء فانهما ركبا وسارا نحو المعسكر وحولهما الفرسان في موكب وكل  
منهما يفكر في جهة ومرجع التفكير الى مريم . فكان هانىء يتذكر مادر يينه وبينها وما  
آنده من مجاملة عبد الرحمن ولطفه على حين انه كان يتوقع امتعاضه— فإذا تذكر ذلك انسح  
صدره لانه كان يخاف اذا بدا له من عبد الرحمن بروء ان يأول ذلك الى نفور مضر . وكان  
عبد الرحمن يفكر بسلامة وما دار بينه وبينها بشان مريم وتليحها بأنها ستكون له بعد الفراغ  
من تلك الحرب لسر لم تصرح له به وتذكر استلطافه مريم وتصور ما هي فيه من الجمال  
والحبيبة ثم ما ظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانىء . فلما بلغت تصوراته الى ذلك الحد  
شعر بغيرة شديدة ولكنها اتبه لما هم فيه من الحرب وشدة احتياجه الى هانىء حتى ان  
النجاح ليتوقف على اتفاقها . وعلم ان ذلك الاتفاق لا يتم الا بارتياح هانىء وارتياحه لا يكون  
الا بحصوله على مريم — فلما تمثل له ذلك عاد الى تعقله وسعة صدره لعله بخطارة المشروع  
الذى هم بصدده فهان عليه ارض هانىء وخاف ان يكون في سكته في اثناء الطريق باب  
للشك ففتح الحديث قائلاً «الم تحمد الله على انتصارنا في هذه الحرب يا هانىء؟»  
قال «لقد حمدته حمدًا كثیراً على ذلك والفضل فيه راجع الى بسالة الامير

عبد الرحمن وتدبره

قال «بل الفضل فيه للامير هانىء قائد فرساننا . . . بل ارى الفضل فيه لما توفينا اليه  
من الوفاق المتبادل وارجو ان يبق ذلك الى نهاية هذه الحرب»  
قال «وأنا ارجو ذلك ايضاً واذا تم لنا الفتح كان فيه الفخر للعرب كافة لاننا نفتح لهم

بلاداً واسعة يحكمون أهلها ويحبون خراجها وينشرون الإسلام فيها»  
قال «واطن سرورك بفتح بوردو يضا هي سرورنا جميعاً بما فتحناه وسنتوجه من  
البلاد ..» قال ذلك وابتسم .

فادرك هاني، تعرى بهم فضلك وقد اشترح صدره وقال «لاستطيع انكار ذلك  
ابها الامير لانه ظاهر في كل جارحة من جوارحي وارجو ان يكون اخي مسروراً معي»  
قال «اني اسرت بكل مايسرك . وثق اني عنون لك في كل ماتريده .. ولكنك تعلم  
ما عاهدت نفسك عليه منذ ركبتك هذا المركب الخشن ..»

فلم يفهم هاني، مراده فقال «وأي عهد تعني؟»

قال «اعني اني عاهدت الله ان لا اقرب النساء قبل ان افرغ من هذه الحروب او ان  
نقطع نهر لوار على الاقل .. فهل انت على هذا الرأي؟»

ففهم هاني، مراده فقال «نعم اني عاهدت الله على هذا ايضاً وقد كان رأيي في النساء  
كما تعلم ضعيفاً فلم اتزوج امراة ولا اقتربت جارية ولو لا وقوع هذه الفتنة من  
نفسك موقعاً عظيماً ما غيرت رأيي — اما الان فاعترف لك اني اصبحت عالق القلب بهم  
وهي كما ترى اهل ذلك ..»

فقطع عبد الرحمن كلامه قائلاً «انها من خيرة النساء جمالاً وتعللاً وادا توفتنا  
الي ما نرجوه من النصر كنت اول مسورو بنيلك ايها غير اني ارجو ان يبقى ذلك  
مكتوماً عن كل انسان لاسباب تعلم بعضها وتجهل البعض الآخر ولا تكشفني التصريح بما  
وراء ذلك»

فاحس هاني، من تلك الساعة بقل أربع عن صدره وارتاح بالله وان كانت اشارته عبد  
الرحمن الى الاسباب التي لا يعلمهها شغلت خاطره قليلاً على انه شعر بميل شديد الى مكاشفة  
سريره بما دار بشأنها مع عبد الرحمن — وذلك طبيعى في الحسين فانهم يتذدون بمكاشفة  
بعضهم بعضاً اخبار الناس فكيف ما يتعلق بهم وخصوصاً ما كان منه راجعاً الى تحقيق  
اماكنهم . وعلى الاخص اذا اوثقني احدهم على سرّ وطلب اليه كثما انه فانه يزداد ميلاً الى  
مشاطرة حبيبه بالاطلاع عليه كأنه يعد ذلك اكراماً خصوصياً لاختصاصه اياه بشيء  
غير اوثقني هو عليه .

ثم عاد الاميران الى السكرت مدة والركب ماش حتى دخلوا المعسكر وكان الجند قد  
فرغوا من اقسام الفنائيم وهم فرحون بما نالوه منها وخصوصاً البرابرة لما علمت من

مطامعهم — ظل الاميران سائرين حتى وصلا خيمة الامير عبد الرحمن فدخلها ثم صفق عبد الرحمن بفباءه بعض الغلامان فقال له «ادع الامراء الى هنا الساعة» فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن الى هانيٌ وقال له «قد علمت من اخبار الجواسيس وغيرهم ان طاغية اكينانيا الكونت اود مسكنٍ بجنبه في مضيق دردون على بضع ساعات من هذا المكان<sup>(١)</sup> فينبعي لنا ان نبادر اليهم قبل ان يتآبهوا للدفاع فاذا غلبناهم وقتلنا اميرهم ذهب عنا نصف الغماء في هذا الفتح او هو الغباء كله ولم يبق من يقف في سيلنا الى نهر لوار ٠٠٠ ماذا ترى؟»

قاله «أرى ان نبادر الى الحرب والجندي متشدد على اثر النصر»

قال «فتي حضر الامراء فاوضاهم ولا اظفهم الا موافقين على الزحف فترخت برجالنا وترك الاخيبة في مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم فاذا هزمنا الافرنج باذن الله حلتنا نسأنا وعيالنا وغنائنا وسرنا الى تورس على نهر لوار ٠٠٠»

وبعد قليل جاء الامراء وهم بضعة عشر أميراً وفهم العربي والبربري والشامي والمصري والبطي وغيرهم وفي جملتهم الامير بسطام فعرض عبد الرحمن عليهم رأيه وساعدته هانيٌ على تنفيذه فوافقوا جميعاً على الرحيل في صباح الغد على ان يتركوا النساء في الاخيبة حيث هي فلما اجمعوا على ذلك التفت عبد الرحمن اليهم وقال لهم «اتم تعلمون اننا سائرون لخاربة هؤلاء الافرنج في معسكرهم والمسافة ينترا قريبة وهم متخصصون في جيالهم فينبعي لنا ان نسير اليهم خفافاً ولا ينبعي عليكم ما قد صار الى رجالنا من الغنائم في أثناء الفتوح التي توفرنا اليها منذ سخر وجنا من الاندلس وهي ثقيلة حق لقد يشقى على على الرجل حمل غنائمه وحدتها بلا حرب<sup>(٢)</sup> فكيف اذا اضطر الى الهجوم والركض فالرأي على ما أرى ان يتركوا عنائهم في هذا المعسكر بقرب الاخيبة فبقى هناك هي والنساء و يجعل معها حامية من رجالنا فاذا بلغنا من عدونا ما نريده اضفنا اليها ما نقتسمه منهم ٠٠٠» قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضته بعضهم لعلمه بمحرص اولئك القوم على حطام الدنيا وفيهم من لم يأت الى تلك الحرب الا رغبة في الاموال — فاستدرك هانيٌ ما خافه عبد الرحمن قائلاً «ان الامير مصيب برأيه ولا اظفهم الا موافقين عليه لاننا نخشى اذا جاهد رجالنا وهم متقلون بالغنائم ان يعجزهم حملها فينوؤن تحت اثقالها فيقتصر ون

(١) رينو — والمسافة اطول من ذلك (٢) رومي ج ٣

في ساحة الوعي ولا يخفى عليكم ما يتربّ على ذلك من الفشل «  
وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصاً من الأمير بسطام لحرص رجاله على  
الأموال لأسباب تقدم يباها وكان عبد الرحمن في أثناء كلام هانيء بتغرس في وجوه  
الآمراء فوجد التردد ظاهراً على الخصوص في وجه بسطام فاستأنف الكلام قائلاً «والذي  
أراه أن نعهد بحراسة تلك الغنائم إلى الأمير بسطام ومن يختارهم من رجاله ومعهم جماعة  
من رجال سائر الآمراء » ٠٠

فوق ذلك الرأي موقع الاستحسان عند الجميع فوافقوا عليه وخرجوا للعمل به  
ولكي يأمرروا رجالهم بالتأهب للرجل في صباح الغد

فذهب هانيء إلى خيمته ولم يتم تلك الليلة لما خالج أفكاره من الهواجرس بمريره على  
أثر ما سمعه من عبد الرحمن حتى حدثه نفسه أن يطير إليها في ذلك الليل ويكتشفها بما دار  
بينه وبين عبد الرحمن بشائها ويخبرها بعزمهم على الرحيل إلى محاربة الأفرنج ويصبرها  
إلى الرجوع وقد زاده رغبة في الذهاب إليها أنه فارقها ولم يمكن من وداعها كما يريد —  
ولكنه تذكر أهمية وجوده في الصباح هناك وخاف غضب عبد الرحمن فرجع عن عزمه

## الفصل الخامس والعشرون

### المذيل

وفي الصباح قام المسلمون للصلوة ثم نفخ في النفير فتأهبوا للمسير وساروا كلهم بحرث  
يتلاظم بالأمواج وفيهم النرسان والمشاة وينهم الرماحة والرمادة، وقائد النرسان العام هانيء  
وقد ركب أدهنه وليس خوذته والتلف بعباته وقوضوا الحيام ولم يتركوا منها إلا ما وضعوا  
في غنائمهم ومعها الأمير بسطام وبعض رجاله وتفر من رجال القبائل الأخرى

وبعد المسير بضع ساعات اشرفوا على جبال أخبرهم الجوايسين أن أود ورجاله  
متخصصون فيها فنزل المسلمون في سهل بالقرب من ذلك المضيق وترجل الفرسان وسرحوا  
خيولهم للعلف والراحة على أن يستريحوا ريثما يطيب لهم المجمع . وقد اقاموا الخلف حول  
المعسكر وبنوا سراياهم يستطيعون أحوال أعدائهم ومناعة مواقعهم لعلوا من أين بهاجمونهم

وذهب هانيء للستراحة في خيمته وفي المساء جاءت الطائرة فاخبروا ان الافرنج مقيمون في الجبال وهم كثيرون وقد تحصنوا واقاموا لا يبدون حراً كذا . فاجتمع امراء المسلمين وتفاوضوا في الامر فرأوا الشجوم على حصون الافرنج شديد الخطر فاربعوا ليروا ما يبذلو منهم فإذا لم يخرجوا من حصونهم نظروا في الشجوم عليهم فبات هانيء تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه وعاد الى التفكير في مفارقة العسكر بضع ساعات ولا خطر على الجندي في غيابه الاسباب التي قدمناها على انه ما زال متربداً في الذهاب خوف الفشل وحياناً من عبد الرحمن

فاصبح في اليوم التالي وخرج على قدميه وقد تراكت عليه المواجهات وهو يفكر في حاله وحال مریم وحال الجندي . وينما هو يتشئ في سهل خارج العسكر رأى رجلاً بلباس عربي قادماً من عرض البر يهرول نحوه ويسير اليه فوقف . فلما دنا الرجل منه تفرس هانيء فيه فإذا هو ملثم فناداه فمد الرجل يده الى جيبه واستخرج منديلًا وسلمه الى هانيء . فلم يكدر هانيء يستلم المنديل حتى شم منه رائحة مریم -- عرف ذلك من ظبيها الذي اعطاهما ايام بالامس فصاح في الرجل « من انت وما خبرك؟ »

فقال « ان هذا المنديل ينبعك عنى ان صاحبه في حاجة اليك على عجل » قال ذلك وسار يudo في عرض البر . فهبت هانيء ثم التبه لنفسه وصاح في الرجل ان يقف فلم يلتفت اليه فوقف هنفيه وهو يعمل فكرته في ماذا عسى ان يكون سبب تلك الدعوة المستعجلة ولم يشك ان المنديل مریم والطيب ظبيها فلم ير بدأ من المادرة الى اجاية الدعوة وهو مطمئن البال على العسكر واسرع الى خيمته فركب جواده واللف بعباته وسار يلتمس الخبراء ولم يبني احداً يمسيره . اعلم انه سيعود قبل اقضاء النهار فلا يأس من غيابه وخاف اذا شاور عبد الرحمن ان يستخف بعمله او ان يمنعه من الذهاب

سار هانيء وهو يستجث جواده لا يلتفت يميناً ولا شمالاً حتى وصل الخبراء وقد مالت الشمس عن خط الماجرة وتبلل هو وجواده بالعرق . وحال وصوله ترجل ودخل توأماً الى خباء الامير عبد الرحمن واستدعي القهرمانة بخافت وهي نتوكاً على وركيها وتمشي المويانة وحالمما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة « اين مریم؟ »

فبعث لسؤالها وقال لها « اسأليني عن مریم وانا انا جئت لأسألك عنها . . .

« اين هي؟ »

قائل « هي عندك . . . لم تبعث بطلها في هذا الصباح؟ »

قال « انا ؟ بعثت بطلها ؟ .. اين هي ؟ قولي ان الوقت لا يساعدنا على المزاح »  
فقالت وقد ظهرت البغتة في ذلك الوجه الكالح وامتنع لونها « اخنك انت  
المزاح .. لم تبعث اليها في هذا الصباح مع رسولك ومعه جوادك وعباءتك  
وخوذتك ؟ »

فصاح فيها وقد تعاظم غضبه « كلاً لم ابعث احداً وهذا جوادي معي وهذه  
عباءتي .. تبصري في ما نقولين ؟ قولي لي الصحيح والا قطعت راسك بهذا السيف »  
قال ذلك ويده على قبة سيفه

شفافت القهرمانة وتحيرت بماذا تحببه وقد ارتج علىها من الخوف والاستغراب وقالت  
تمهل يا بني لا قص الخبر عليك .. جاءنا في هذا الصباح رجل اظنه من رجالك وقد  
ركب جواداً ومعه جواد آخر ادهم لم نشك انه ادهمك عليه عباءة وخوذة وقال لي انك  
تطلب مريم حالاً باسم الامير عبد الرحمن لامر ضروري يتعلق بوالدتها ودفع الى هدا  
الكيس ( ومدت يدها واخرت كيساً فيه دراهم ) فامتنعت في باديء الرأي ولم اطلعه  
فالج على واوراني الجواد والعباءة وقال لي انك تطلب مريم لغرض مستعجل يتعلق  
بالحرب وانك بعثت لها جوادك لتركب عليه فلم أقبل منه فذكر لي عالمة لا يعرفها احد  
سواناً وهي قارورة الطيب وقال العالمة لصدقه انك اجتمعت مريم عندي وأعطيتها قارورة  
الطيب فلم استطع الا تصديقه ومع ذلك فاني لم اسلم بارسالها الا بعد ان اتي بعلامة من  
الامير عبد الرحمن لا يعرفها سو اي وأخيراً سلمته اياها وانا خائفة عليها ولشدة خوفي  
اخرجت معها احظى نساء الامير عبد الرحمن عنده واوصيتها بها » ..

وكان هانئاً يسمع كلام القهرمانة وهو يرتد من شدة الغضب فلما تحقق عنده  
ذهاب مريم قال « ومن هي تلك الحظية »

قالت « هي ميمونة الافرنجية اظنك تعرفها »

فقال « نعم اعرفها والي اين ذهبوا وكيف ؟ »

قالت « لما توهمت صدق ذلك الرسول ورأيت مريم راغبة في الذهاب اذنت لها فيه  
فركبت الجواد الادهم وركبت ميمونة جواداً آخر ومضوا نحو المسرك »

## الفصل السادس والعشرون

### بسطام

فوق هانئ وهو لا يتكلّك عن الارتفاع من شدة التأثير والقهرمانة واقفة بين يديه وقلبها يخفق خوفاً وقد أخذت تخفف غضبه قائلة «لابأس عليها يا بني ان ميونة معها وهي تجدها حباً شديداً واظنها تحرص عليها كثيراً .. اجلس وخفف عنك .. لابأس عليها ..»

فلم يلتفت هانئ الى تلك الطائنة على انه ثاب اليه رشهه وفكري ما سمعه فتنذكر ان القهرمانة ذكرت والدة مريم فظن الامر سبباً متصلة بسر تلك الوالدة منذ رأوها لأول مرّة بعد فتح بوردو وخيل لها ان سالمه احثالت تلك الحيلة لاسترجاع ابنتها، ولكنها تذكر القارورة فرأى ذكرها لا ينطبق على ذلك الظن فلم يدر ما يقول . فلما تشابه الامر عليه رأى ان يبادر الى المعسكر للبحث عنها فتنذكر للحال ان الامير بسطام هناك فتبادر الى ذهنه ان الامير المذكور هو الذي احثالت هذه الحيلة لاختطاف مريم منه لانه لم ينزل عالقاً بها من يوم الفتح . فالتقت هانئ الى القهرمانة وقال «نقولين انهم ساروا نحو هذا المعسكر؟» وأشار بيده الى معسكرهم بالامس

قالت «نعم يا مولا ي»

فأسرع الى جواده فركبه وحول عنانه نحو ذلك المعسكر وهمز الجواد واطلق له العنان وقد عزم اذا رأى مريم عند بسطام ان يقتله حالاً — سار ومع سرعة عدو الادهم فقد كان يحسبه واقفاً

وكان في المعسكر مضارب قليلة للغنايم وحولها الخفر من رجال بسطام وغيرهم ولما اشرف عليهم هانئ رأهم يختصمون ويتضاربون وقد علا ضجيجهم فلما رأوه نقدم بعضهم وهم يستغشون . فصاح فيهم «ما الخبر ..؟»

فقال احدهم «نشكو اليك جور الامير بسطام فانه سلط برجاته فاستأثرروا بالغنايم واخذوا من اسهم رجالنا فاضافوها الى اسهمهم ولم يسمع هو لصراخنا»

فازداد هانئ غيظاً من بسطام وصاح «اين بسطام .. اين هو؟»

ولم يتم كلامه حتى خرج اليه بسطام وهو يمشي الهوبناء ويتربع ترتعج السكران فلما

رأه هاني لم يتكلك ان صاح فيه « ما هذه الجسارة على اموال المسلمين . . . قد امنك الامير على الغنائم فاستأثرت بها . . . وسطوت على حقوق المسلمين . . . لقد صدق القائلون انك لست مسلماً »

ف卿قه بسطام وهو يسمع لحيته من بقايا طعام تساقط عليها كأنه كان على المائدة وقال « مالك وللغنائم ألم تشغلك تلك النصرانية عنها . . ? دع الحرب واذهب الى الخباء فانك اولى بعاشرة النساء . . . ولكن ستذوق عاقبة غيرك قريباً » قال ذلك وهو يضحك كأنه ضامن فوزه

فهي غضب هاني من تلك العبارة حتى غاب رشهه فاستل حسامه وساق جواده نحوه واطلق الحسام وهو يتعدم قطع راسه خلا بسطام من الضربة فهو هاني . حتى كاد يقع عن جواده فازداد حنقاً وحوال الشكيمة نحوه وانقض عليه انقضاض الصاعقة فتوسخ بعض الرجال بينهما وهاني لا يبالى بهم ولم يعد يصبر عن قتل بسطام ففر بسطام الى احدى الخيم واخبا فيها هاني ان ياترجل ويتبعه فاحتاط بعض الرجال بجواد هاني وتقدموا اليه ان يغمد سيفه حباً بالاسلام والمسالمين . فرجع هاني الى رشهه ووقف وهو يرتجف من شدة الغضب كأن ذكر الاسلام خفف من غضبه وسكن روعه وخصوصاً لما تصور ما قد ينجم عن قتل بسطام من الخدام بين فرق الجندي . فامسك نفسه وتحمّل واكتفى بفار بسطام . . . وعاد الى الامر الذي جاء من اجله فعمد الى البحث عن مريم هناك فجعل ينظر في الحيوان الواقفة حول الخيم فلم ير فيها جواداً ادهم ولا رأى هناك نساء فسأل بعض الوقف من يشق بهم من رجاله عمن في الخيم فقالوا له « ليس فيها غير الغنائم »

فافرد نفراً يعرفهم وساهم « هل مر بمك ركب على افراط وهم نساء »  
قالوا « كلاء . . . انا هنا منذ الامس ولم نز احداً »

فوقف في حيرة وقد عادت اليه هواجسه في مريم وذهابها والثقت الى ما يحيط به من السهل واكثره عارٍ من الاشجار الابعضاً التلال عليها الدالية من الكرم وبعض اغراض الزيتون فلم ير اشباحاً فتغير في امره خدشه نفسه ان يعود الى دردون لعلهم ذهبوا بمريم الى هناك وكانت الشمس قد مالت عن المهاجرة والجواد قد انهكه التعب خاف اذا بالغ في سوقه وهو في تلك الحال ان يقصر في الثناء الطريق واذا لم يستحثه لا يصل المعسكر قبل العشاء على انه لم يجد بدًّا من ملاحظة حال الجواد فحوال شكيمه وتوجه نحو دردون

## الفصل السادس والعشرون

### المنزل الخالي .

اما مريم فانها خرجت في ذلك الصباح مع ميمونة كاً نقدم وقد ركبت على ذلك الادهم وتزملت بالعباءة وعلقت الخوذة بالسرج وساقت الجواد في اثر الرسول وميمونة على جواد آخر بجانبها وهي تنظر الى مريم على الادهم منتصبة القامة كأفسن الفرسان . وكانت ميمونة تظهر استغرابها ذلك الطلب المستعجل وانها اثنا رافقتها صيانة لها مما قد يكون من بواعث الخطر على اثر ذلك . اما مريم فكانت تستحي جوادها وافكارها تائمة في عالم التصورات وصورة هانية تخيل كل خيال يير في ذهنهما .

ساروا ساعة ثم ادركوا المعسكر القديم الى يسارهم عن بعد وكانت مريم تحسب نفسها سائرة الى ذلك المعسكر لانها لم تكن عالمة بانقال الجندي الى دردوف . فلما رأت الحليام قليلة مالت الرسول عن مقر الجندي وعن المكان الذي هم ذاهبون اليه فقال « ان الجندي انتقلوا الى دردون للاققاء الافرنج هناك وسيعودون الى هنا واما نحن فاننا سائرون الى مكان على مقربة من دردون امرني مولاي الامير ان اوصلك اليه فاما ان يكون هو في انتظارك هناك او انه يأتي بعد وصولك » فصدقفت مريم قوله ونشطأرت نفسها شوقا الى لقيا الحبيب . فساروا على تلك الصورة بضع ساعات وند ترکوا بوردو الى يسارهم ايضا حتى وصلوا الى بناء منفرد قد تداعت جدران سوره فدخل الرسول امامهم من باب السور الى حديقة قد غشمتها الاهمال لا يخفى على المتأمل فيها انها من مساكن اهل اليسار وانهم غادرواها منذ بضعة اسابيع . فترجلتا ودخلتا وساق الرجل الفرسين وراءهما فلما دخلتا الحديقة تصدت ميمونة الاعتراض على الرسول غيره على مريم فقالت له « الى اين انت سائربنا ؟ اتنا على مقربة من دردون على ما اظن . . وما هذا البيت الذي ادخلتنا فيه ؟ احذر ان تكون خطئا . . . . »

فوقف الرجل متأنيا وقال « لست خطئا يا مولاني انا في قهقر بعض امراء اكيتانيا وقد هجره اهله فرارا من جند المسلمين ، وفي هذه المزارع قصور كثيرة هجرها اهلهما وبقيت غنية للمسلمين »

فقالت « وابن الامير هاني ؟ »

قال « يظهر انه لم يأت بعد لاني لا أرى اثراً يدل على تجبيه ولكنه لا يثبت ان يأت في سريعاً » قال ذلك ومشى بهما حتى ادخلهما البيت من باب كبير كان مفتوحاً وليس في المنزل الا بعض المقاعد او الكراسي الصغيرة مما لا يستطيع حمله في اثناء الفرار . وقد استولى السكوت على المكان الا ما كان يتعدد من صدى خطواتهم وصوت الجوادين — اما مريم فما وصلت ولم تجد هانئاً ولا اثراً يدل عليه شككت في تلك الرسالة ولكنها سكتت لترى ما يكون والقت معظم المم على ميمونة لأنها أكبر منها سنًا واوسع عمرًا بذلك البلاد وبالحوال ذلك الجند . ولم تكن ميمونة تجهيل ما يخالج افكار مريم من هذا القبيل فكانت ت ظاهر بالاستغراب ايضاً وتسأل الرسول مثل اسئلة مريم حتى وصلوا الى قاعة ليس فيها الا مقعدان قد يمان خلست ميمونة ودعت مريم للجلوس فجلست وهي تنفرس في المكان وتنظر الى ميمونة وميمونة تشاركتها في الارتباط . قضتا برهة وهما كثثان ومريم تتوقع قドوم هانئاً وقد شاعت عيناهما وهي تنظر الى الخارج من نافذة تطل على الحديقة وميمونة بجانبها والمكان هادئ و الاخادم الذي اوصلهاها لم يعد يظهر . فتظاهرت ميمونة بالخوف وقالت « ويله اين نحن ..؟ ما الذي جرى لنا ..؟ اين ذلك الرسول ..؟ يا ليتنا اصطحبنا بعض الصقالبة من خصيائ الخباء » ثم صنقت كلها تستقدم الرجل فلم تسمع جواباً غير الصدى

اما مريم فلما رأت ميمونة خائفة خافت هي ووقفت وقد ظهر الاهتمام في وجهها وقالت « هل خدعونا ؟ اين ذلك الرجل كيف يتركنا هنا ويدهب ..؟ الي اين ذهب » وكانت الشمس قد ادركت الاصل وهو لم تأكل من الصباح

## الفصل الثامن والعشرون

وانهم ل كذلك اذ سمعتا صوت صهيل وقرقعة جلام فالتفتت مريم نحو الباب فرأت فارساً وفي ركباهه رجلان ملثيان وهو يركض جواده ركضاً عنيفاً حتى وصل بباب البستان فترجأ . فظنت مريم لاول وهلة انه هانئاً فخفق قلبها ولم تهالك عن الوثوب نحو الحديقة ولم تبال باختلاف لباس ذلك الفارس وجواده عن لباس هانئاً وجواده لاعتقادها انه

ارسل اليها العباءة والجوارد وقد جاء متذمراً . ولكنها لم تكن تفكري بذلك حتى رأت القايد رجلاً بيدينما يترنح في مشيته وسيفه يجر إلى جانبه وعبأته مسترخية وراءه . ولا تسل عن اضطرابها لما عرفت انه بسطام فغلب عليها الارتباك واصطككت ركبتيها وكاد الدم يجمد في عروقها والتفتت الى ميمونة فرأتها تظهر البغثة وقد تصدرت لمقابلة ذلك القايد المخيف بالنيابة عن مريم فلما وصل بسطام استقبلته ميمونة وهي تقول « ما الذي تريده ايهما الامير ؟ » فاجابها وهو يلهث من التعب والجلان يشيان وراءه « ما الذي يعنيك من هذا الامر ؟ »

قالت « ليس في هذا المكان رجال ولا احد يهمكم امره فلا حاجة الى دخولكم اليه . . . . »

قال « ونحن انما جئنا لاجل النساء . . . اليست مريم النصرانية هنا . . . » قال ذلك وهو يضحك ومديده الى وجه مريم ، فنفرت مريم وتباعدت . فامسكت ميمونة يد بسطام وقالت « لا تفعل ايهما الامير مالا يليق بالامراء . . وانتم انك اذا مسستها عرضت نفسك لغضب امير جند المسلمين . . . . »

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة وقال « من اقامك ناصحاً او نذيراً . . وما هو شانك . . اني لا اخاطبك . . . » قال ذلك وحوّل وجهه ومشى نحو مريم فالتفتت ميمونة في ممانعته وقبضت على زنده فانتشر منها فوقعت على الارض فالتفتت هو الى الرجلين وقال « قيدوا هذه المرأة يديها ورجليها واحبسوها في هذه الغرفة واقفلوا الباب عليها »

ولم يتم قوله حتى انقضَّ الرجال على ميمونة بالامراس وقيدوا يديها ورجليها وهي تصيح وتستغيث وتحاول التخلص ومريم تهمُّ باقاذها وبسطام يمنعها بدون ان يمسها يده وهو يقول لها « لا تخافي يا جميلة اتنا لن نصيبها بسوء واما اردنا ايقافها عند حدّها » فلما فرغوا من نقبيدها جرَّها الرجال نحو تلك الغرفة فالتفتت نحو بسطام وهي تقول « لا باس على ما فعلتموه بي ولكني اتوسل اليكم ان لا تمسوا هذه الفتاة بسوء »

ثم دخل الرجال ميمونة الى بعض حجر ذلك البيضاء واغلقوا الباب . فلما خلوا هناك تركاهما وشانها . فقالت لها بصوت خافت « من هو عدلان منكما . . . . ? »

فتقدم احدهما وازاح الشام عن وجهه فباتت سخنته ونظر اليه بعينه الحلواء نظر المحب الوهان وقال « انا عبدك عدلان ارجوان اكون قد امضيت مهمتك كاشائين . . . . »

قالت « بورك فيك (وابتسمت) قل لي اين هو هانيء وماذا فعلت به . . . . ? »

قال « فعلت ما امرتني به يا سيدة النساء . . . واما ارجو ان تكوني راضية عن عبديك  
واسير هواك وتحققني انك لا تجدين من يصدع باوامرك وينفذ ما اركب سواي . . . »  
فابتسمت ابتسامة اخرى وحركت اجنانها حركة الغنج والرضا و وقالت « اذا كنت  
قد فعلت ما فعلته بخفة ولباقة فاني راضية . . . قل لي اين هو هانىء . . . ؟ »  
قال « اذنه لا يزال تائماً في هذه الصحراء بفتقش عن حبيبته . . . »  
قالت « وكيف اوصلت اليه المندليل ؟ »

قال « بعد ان اتيتك بالجواب الادهم امس ووكلت به هذا البطل ( وأشار الى رفيقه )  
وافرمته كيف يخدع القهرمانة — وكل ذلك بارشادك — ذهبت بالمندليل الى معسكر  
المسلمين فوصلت اليهم صباحاً . ومن حسن حظ مولاتي وتوفيقها رأيت الرجل خارجاً يتتشى  
فاسرعت نحوه ودفعت اليه المندليل وانا ملثم فسالني عن غرضي فاخبرته ان صاحبة هذا  
المندليل تدعوه اليها حالاً وتركته وفررت الى مكان اراه منه ولا يرايني فرأيتها اسرع الى  
جوارده فركبه وساقة نحو اخلياء . فلما تحققت ذهابه اسرعت من طريق آخر الى معسكر مولاي  
الكونت اود و اخبرته بالواقع كما امرت و حضرته على مباغة المسلمين حالاً وقاده فرسانهم  
غائب فاطاع ونادي رجاله و هجموا على المسلمين وهم في غفلة . وقد رأيتم في فشل عظيم  
ولا اظنهم الا قد ذعوا و نهقرروا والغالب ان الاخرج قد استولوا على معسكرهم الان . . . »  
وكان عدلاً يتكلم ويمونة تراعي حركاته وكلما قال عبارة تتسم له وتبدي ارتياحها  
وهو يتكلم بنشاط وسرور . فلما قال ذلك قالت هي « ثم كيف فعلت بسطام هذا . . . »  
قال « اتيته وهو في المعسكر القديم وجعلت اني اخدمه خدمة تسره واني فاعل ذلك  
من عند نسيي فاخبرته ان مریم خرجت من اخلياء الى هذا المكان واني ساذب به اليها  
فيبلغ منها ما يشاء على شرط ان يحافظ عليك فاشيء على غيري ودفع اليه هدية ثمينة و كنت  
اتوقع ان يلتقي هانىء به ويقتلها فيقتل احدهما الآخر . فيكمل توفيقك ونم رغائبنا بالنقسام  
هذا الجند . بقاء هانىء بعد ذهابه الى اخلياء ولم يجد مریم فيه فظن بسطاماً اختطفها فلما  
لقاها في اخلياء تخاصماً وهم هانىء ان يفتلك به لوم يجهن هذا ويدخل خيمته . وبعد ذهاب  
هانىء حضرت بسطاماً على الروكوب سريعاً فركب وسرت في ركباه والثقيينا في اثناء  
الطريق باخبي هذا و كان قد جاء يستجلينا فبدأت عباءته بعباءتي وغيرت قيافته و جئنا في  
ركاب بسطام كارايتنا »

فقالت مimonyة « بورك فيك من خادم امين . . . واذا تحققت اميقتنا بفشل جند الغرب

دعوتك بلقب آخر» قالت ذلك وأشارت بمحاجبيها  
فأشرق وجهه وجعل ينظر إليها وقلبه يكاد يطفع سروراً لما شاهده من أنها وتلطفها

## الفصل الخامس والعشرون

### الخنجر

اما مريم فلما رأت ميونة مسوقة الى تلك الحجرة وهي مقيدة الاطراف وسمعت تضرعها الى بسطام بشانها اعتقدت حبها لها ولكنها كانت في شاغل من امر نفسها لانها لم توقع بعد ما رأته الا الفتى الذي ربع من بسطام وهو مع غاظه وخشوونته كانت رائحة المسكر تفوح من فيه وقد احمرت عيناه واكمد لون وجهه وققطق بحمله عريض غرس فيه خنجراً ضخماً وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف فتصور لعيوني مريم شيطاناً رجياً . فاستعادت بالله من تلك الوعقة وتضرع اليه تعالى في باطن سرّها ان ينجيها منه . على انها لم تهالك عن الاضطراب الشديد من منظر ذلك الوحش الكاسر وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الجمراء التي تعقد انها عباءة هانئ فوق رداءها الاسود وعلى رأسها خمار اسود يغطي جبينها الى الحاجبين وقد ثابتت به من اسفل الذقن فبان وجهها من خلال ذلك مستديرًّا وقد تلا لات عينيها وزادها الانقضاض هيبة . ومع كل ما شاهدته من اسباب الخوف لم تخر عزيمتها . ولعلها كانت عند اول ملاقاة بسطام هناك اكثر اضطراباً منها بعد ظهور تلك الفظاظة بتقييد ميونة وجسمها وقد أصبحت هي وهو فريدين في ذلك البيت الواسع

اما بسطام فلما اخلي مريم على تلك الصورة دعاها الى الملوس على كرسي هناك كانه يرى يد ان يخاطبها بلطف على سبيل الاقناع . فجلست وجلس هو على كرسي آخر والفت بعباءته حتى غطت السيف والخنجر وهو يقول بلغة عربية مستعجمة مع نغمة البراءة «لاتخافي يا مريم اني لا اريد بك سوها لاني احبك جباراً شديداً جداً (وبالغ في تشديد الدال) وانت على ما يظهر قد غشك ذلك الغلام العربي .. فانخدعت باقواله .. على انك نصيبي وحدي من هذه الحرب ولو شئت ان امنعه منك لمنعه من اول ساعة ولكنني تلطفت بك ورفقت بمناجك والآن قد وقعت بين يدي ولا مناص لك مني فـ طيعيني »  
وكان مريم تسمع كلامه واطرافها ترتعد من شدة التأثر وهي تفك في مجده

إلى ذلك ها كان على موعد أو بالاتفاق واحببت أن تماطله في الحديث ريثما يأتي هاني لاعتقادها انه قادم إليها فقالت « دع عنك ذلك يا أمير فان لكل شيء وقتاً وانت الآن في حرب فبعد اقضائها يأخذ كل ذي حق حقه ٠٠٠ »

قال لا تماطلني بالمحال ولا تظني هائلاً بالغاً منك شعرة فقد صرت في قبضة يدي ولا يخرجك منها أحدٌ فالفضل لك ان تطعني والا فاني بالغ منك ما اريد قهراً ٠٠٠ »

فلما سمعت تهدیده السريع عظم عليها الامر ولكنها ما زالت تود مماطلته ريثما يأتي هاني ثم لو ثوقيها ان هائلاً رغم اتفاقه فقالت « لا أرى باعثاً الى التهدید ايهما الامير فان من يعذ نفسه اميراً ويقتصر بشجاعته وشدة بأسه لا يليق به ان يهدد فتاة بثل هذه العبارات وخصوصاً في مثل ما اتم فيه من الجهاد »

فضحه بسطام ضحكة الاستخفاف وقال « نعم اني امير شجاع وساحة الوعى تشهد لي بذلك ولو لاي لم يكن لذلك الغلام ذكر بين الرجال ولا كان لا ولئك العرب رأية تتحقق في هذه البلاد فاذا علمت ذلك اقلعي عن ذكر سواي ٠٠٠ »

فلما سمعت تعريضه بهاني وبالعرب ورأته اللين لا يجدي معه نفعاً عادت الى ما شئت عليه من الانفة وقالت « دع عنك التعرض والتلميح فانك لست من رجال الامير هاني ولو حضر الآن ما تجاسر على التفوه بحضوره بثل هذا الكلام »

فحملق بسطام بعينيه ووقف بفتحة وامرك مريم بذراعها وضغط عليها بكل قوته كأنه يريد ان ينفعها لعلها تلين فشعر بصلابة عضلاتها كأنه قابض على حديد ثم اجذبت يدها من قبضته وهو لم يستطع منعها ووقفت وهي تقول « ابعد عني ولا تمسني فقد بالغت بالاستخفاف حتى نفذ صيري ٠ ٠ ٠ »

فلما شاهد منها هذا الاصرار ورأى فيها تلك القوة اشتد غيظه وحمي غضبه وأراد نكباتها فقال « لا تعالي تنسك بالمحال فاني ضاربك ضربة بهذا السيف اقضي بها على حياتك هل انت الا سيبة تباعين ببضعة دراهم؟ وقد اخطأت بمحاسنك فظننت الحسنة ضعفاً وانت تعلمين ان في خبائي حشرات من امثالك يتلون رضاي »



## الفصل العاشر

### المعركة

وهمت مريم بان تحب بسطاماً فسمعت ضجيجاً في البستان وقد علت الضوضاء  
وسمعت رجلاً يقول « ان الامير هائلاً هنا »

فلما سمعت اسم هائلاً باغت واحتغلت عن بسطام باستطلاع الخبر فاسرعت الى الباب  
واسرع هو أيضاً فرأى جماعة من العرب قد وقفوا حول الجواب الادهم وهم يقولون  
« ايس هذا جواب الامير هائلاً فاين هو ؟ »

فاجاب لهم بسطام « ليس هائلاً هنا ماذا تريدون منه ؟ »  
فتقىدم احدهم وقد غشية الغبار وتحيات البغة في وجهه وتصبب العرق من جبينه  
وقد عرف الامير بسطاماً فقال « ان الافرج هاجونا واشتبك القتال، يتنا وينهم والامير  
هائلاً غائب من الصباح وقد فشل فرساناً وكانت الدائرة تدور علينا خرجنا للبحث  
عنهم فإذا لم يدركنا لم تقم لنا قائلة ٠٠٠ والامير عبد الرحمن لم يستطع قيادة الفرسان  
لاشتغاله بسائر الجندي — فلما رأينا هذا الادهم ظناه هنا »

فقال بسطام « ليس هذا ادهمه ٠٠٠ والظاهر انه طلب النجاة بنفسه ، ابحثوا عنه  
في ثير هذا المكان » قال ذلك وتحول الى الداخل  
فرجع الرجل ورفاقه الى الادهم وتأملوه جيداً فتحققوا انه ليس جواب هائلاً  
فانكفأوا راجعين

وكان جند العرب قد تضعضع لغياب هائلاً لأنهم لم يكونوا على موعد من  
الحرب في ذلك اليوم وانما خرج اليهم الافرج بغبة وهم في خيامهم لأسباب تقدم بيانها في  
أثناء حديث ميمونة ٠ وكان عبد الرحمن في صباح ذلك اليوم مشتعلًا في خيمته بعض  
الشؤون ينتظر بخيلاً هائلاً اليه للمداولة في أمر الجندي فابطا هائلاً عليه فاشتعل خاطره  
بشأنه وهم باستقامته وإذا ببعض الرجال قد جاءوه مسرعين ينادون « ان الافرج قد  
خرجوا اليانا كالسييل الجارف » وعلت ضوضاء الجندي فخرج عبد الرحمن الى فرسه وبعث  
رسولاً الى الامير هائلاً وسائر الامراء ليجتمعوا رجالهم ويتأهبو للهجوم على جاري

عادتهم ولم يكدر يفعل ذلك حتى انهالت النبال على خيمته فنظر الى المعركة فرأى الافريج هاججين وقد تصاعد غبارهم فركب جواده ونادي رجاله ووقف في انتظار هاني ليقود الفرسان ويرتهم فعاد الرسول وهو يقول «لم تجد الامير هائلاً في خيمته ولا رأينا جواده في مربطه»

فارتبك عبد الرحمن في أمره وقد كان كثير الاعتماد على هاني في تنظيم الهجوم لانه قائد فرسانه والفرسان اوجه فرق الجندي عند العرب . ففضي عبد الرحمن لتخلفه غضباً شديداً وأخذ على نفسه قيادة النرسان فلم يستطع تنظيمهم لانه لم يتعددهم ولا تعودوه والفرصة قصيرة . فالتيجم الحيشان والعرب من تكون ولو لا شجاعة عبد الرحمن وتدبره في ذلك المركز الخرج انشئت رجاله من الصباح . لكنه كان رابط الحاشر فأخذ يستحدث الرجال ويئنهم ويسير امامهم الى صفوف الاعداء لا يبالي بما يتسلط عليه من النبال لأن موته في ساحة الحرب ايسر عليه من الفشل

فلما مالت الشمس عن خط الماحرة ولم يأت هاني بعث جماعة لتفتيش عنه وظل هو يدبر امور الجند ويصبرهم ويستحثهم ويشجعهم حتى كادت الشمس تندو من الغيب وكاد الافريج يظاهرون بالعرب وكان الفرسان يحاربون وعيونهم شائعة في عرض البر يتوقعون قدوم قائدتهم او سماع خبر عنه . وكان الامراء كلما التقى اثنان او ثلاثة منهم ولو تحت خطر الموت تساءلوا عن هاني وسبب غيابه وشعروا باهميته في حروبهم اكثر مما كانوا يظنون

اما عبد الرحمن فمع سعة صدره وشدة جبه الامير هائلاً فانه وجد عليه وتوهم ان الغرام حمله على المسير الى حبيبة على اثر ما سمعه من رضائه عن تحابهما . ولكن كأنه كان في شاغل عن التوسع في هذا الشأن بما يحيط به من المشاغل الهامة خوف الفشل . على انه اضدر اذا صح ظنه في هاني ان يحرمه من مردم - كانت تلك الافكار توارد على ذهنه متقطعة يتخللها الارتباك في تدارك الخطر المحدق به وبجنبه . وكان مع ذلك لا يفتر عن التأتم والتطلع لعله يرى هائلاً قادماً ولكن لم يكن يرى الا ما يزيده اضطراباً بزيادة التضعضع في الجندي وخاصة الفرسان حتى كاد الافريج يصلون الى خيمته



## الفصل الحادى والثلاثون

هانئان

وفيما هو يستريح رجاله ويحرضهم على الصبر والثبات لاحت منه النفأة الى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبل فارساً على جواد ادهم عليه عباءة حمراء وعلى رأسه خوذة وقد أشرع سيفه واطلق لنرسه العنان فبذل الفرس اقصى ما عنده من العدو حتى اعتدل معنقه وتطير عرفة واتصبذ ذيله وامتدت قوائمه فاستطال بذنه وتناثر التراب من موافق حوافره — ولو لا ذلك الشائر ما علمت موقعها — وتصاعد الغبار خلاته وهو نحوه كان النرس سايع في الهواء وكأن الغبار يحاول الالتحاق به فلا يدركه • والفارس ثابت على ظهره كأنه قطعة منه لا يبالي بالسهام المتطايرة ولا بالرجال المهاجمين • فلما رأه عبد الرحمن حفق قلبه سروراً لاعتقاده انه هانيء فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع ان يقف له ولكن ظل هماجاً نحو الاخرج وهو يقول «اناكم هانيء لا تفشلوا ٠٠٠ ولا تخافوا من غلمان الاخرج انهم غنيتمكم في هذا اليوم »

فلم يشك عبد الرحمن انه الامير هانيء نفسه وأراد بعضهم ان يستقدمه الى عبد الرحمن فلم يضع اليه وساق جواده الى معسكر الاخرج من جهة لم يكن الاخرج يظنون العرب يأتونهم منها • فاشتدت عزائم العرب وخصوصاً الفرسان وساروا في اثره كأنهم الاسود الكاسرة • فبعثت الاخرج وأرادوا ان يحولوا قوتهم الى الجهة التي هاجهم منها ذلك النارس وإذا بفارس آخر يعبأة حمراء وخوذة على جواد ادهم أيضاً وقد استل حسامه وهجم على الاخرج من جانب آخر وهو يقول « جاءكم الامير هانيء » فتبه من بي من الفرسان فانقسم الاخرج شطرين للاققاء الفرقتين فتضعضعوا وازاد داد المسلمين ثباتاً وشجاعة ولم يمس المساء حتى فرّ الاخرج عن بكرة أبيهم وأصبح معشكorum غنية للمسلمين • فاستولى المسلمون على ما هنالك من الخيام والاسلحمة والاطعمة والذخائر • وكان الامير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الامير الآخر من الناحية الاخرى وهو يشبه الامير هاشماً لأن كليهما بلباس متشابه وعلى فرسين متشابهين • فلما فرّ الاخرج كانت الشمس قد غابت وآخر وجه السماء وعاد عبد الرحمن الى

خيمته حيث يتوقع أن يلاقي الامراء وهانيء في جملتهم ليعهد اليه امر الغنائم على جاري العادة

وبعد قليل جاء احد الفارسين صاحب الادهemin فذا هو هانيء نفسه فرحب به فابتدره هانيء قائلاً « لقد غدرنا هؤلاء الافرنج وتوسموا بالغدر خيراً وقد دمرهم الله ». ولو علمت بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظة »

فقال عبد الرحمن وهو يتحول عن جواده ويتشاغل باصلاح ركبته « لقد شغلت خاطرنا على غيابك فتحمد الله على رجوعك » ثم التفت اليه بلطفه وقال « ومن هو ذلك النايس الذي تقدمك واكتفى باسدك »

فقال « لم يكن معي احد »

قال « اما رأيت فارساً على ادهم مثل ادھمك وبعبأة مثل عباءتك؟ قد رأيته بعيني في وسط المعركة قبل وصولك وسمعته يتسمى باسدك »

قال ذلك ونظر الى بعض الرجال حوله وقال « اين ذلك الفارس على الجواد الادهم؟ »

اجاب ادھم « رأينا هاجماً وقد اوغل في الصنوف ثم توارى وربما جاء بعد قليل » فصاح عبد الرحمن « اذا هبوا في اثره واستقدموه » وتحول عبد الرحمن وهانيء الى الخيمة وجاء في اثرها بعض الامراء وجلسوا يتحادثون في امر ذلك اليوم العجيب وما كان يهددهم من الخطر وكلهم يذكرون هائلاً الآخر وينجحون — على انهم اشتغلوا عن ذلك بعد قليل بتدبیر امر الغنائم والاسرى ولم يكن في معسكر الافرنج سبب لانهم لا يحملون معهم نساء هن اولادهم . اما الرجال فانهم ارکنوا الى الفرار وفي مقدمتهم الكوت اود صاحب اكيتانيا ورجال حاشيته

فتباحث الامراء في امر الغنائم من الاسلحة والظيام والفرش وغير ذلك ووكلو الى كتاب الجيش النظر في تقييمها وحفظ حق بيت المال على جاري العادة . ولم تكن الغنائم في هذه الواقعة كثيرة فاقتسموها على عجل . وقضوا تلك الجلسة وكل منهن يفكر في امر ذلك الفارس ثم نفرقوا الى خيامهم الا هائلاً فانه بقي عند عبد الرحمن ليخبره عن سبب تغيبه . فلما خلوا ساله عبد الرحمن بططف فقص عليه حداته باختصار ولم يكتمه شيئاً بعد ما آتاهه من مباراته له في اعر مريم . فلما بلغ الى حدبه بسطام وما كان من حاله في مستودع الغنائم هز عبد الرحمن رأسه وقال « انا لله وانا اليه راجعون . ان امر هؤلاء

البرابرة ليخوفي وخشى من عواقب استبدادهم اذا نحن بالغنا في استرضائهم — وخشى من الجهة الاخرى اذا جافيناه ان يفسدوا علينا سعينا . »

وكان هانىء لما ذكر الجواب الادم الذي أخذت مريم به تذكر ما قالته الهرمانة عن العباءة الحمراء والخوذة اللتين تشبهان عباءته وخوذته فتباادر الى ذهنه علاقة بين ذلك الجواب وهذا الفارس

ويينا هما في ذلك عاد الذين ذهبوا للتفيش عن هانىء الآخر وقالوا انهم بحثوا عنه في المskرين فلم يقفوا له على اثر . فعاد هانىء الى هواجسه وهو فلق الخاطر على مريم ولم يفهم تلك الاسرار وخف ان يكون قد اصابها سوء او لعلها في ضيق او تكون قد فرّت من معسكر العرب بتلك الحيلة — اما عبد الرحمن فلما سمع ما قصه عليه هانىء من امر مريم وخروجها تذكر والدتها والمهمة التي ذهبت بها بخرّه سوء ظنه ( والعاقل سبيّ الطن ) الى اتهام سالمه في الامر وانها اماماً تظاهرت بما تظاهرت به احتيالاً للفرار من الامر . ثم راجع ما حفظه من حديثها وما كان يبذّل في وجهها من امارات الجد فغلب عليه اعتقاد صدقها

## الفصل الثاني والثلاثون

### هانىء الآخر

ولبشا برهةً صامتين لا يتكلان وكل منهما في هاجس يتنازعهما التفكير في مريم وفي ذلك النارس . وانهما كذلك اذ سمعاً وقع حواري مسرعة نحو الخيمة فاصغيا واذا بغلام دخل مسرعاً وهو يقول « ان فارسين بالباب يلحسان الدخول » فقال عبد الرحمن « ليدخلوا » فخرج العلام ثم عاد وفي اثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء فلما وقع نظرها عليه علا ابه الفارس الذي سمي نفسه هانىء . فلما رأاه هانىء وقف واقبل نحوه وترس في وجهه فرأاه قد تلثم بخطوة بشام اسود ورأى من خلال العباءة ثوبًا اسود فصاح فيه « يا هلا بالفارس الذي يسمى نفسه هانىء » قال ذلك وتقى نحوه وهو يتوقع جوابه . فظل الفارس ساكتاً ينظر من خلال اللثام . فابتدره الامير عبد الرحمن قائلاً « انك ذو فضل على اهذا الجند . . . بالله الا رفت لشامك وعرفتنا بنفسك . . . »

حرفع الفارس يده الى الخوذة فنزعتها فبان من تحتها خمار اسود والقى العباءة عن

كتفيه بفان من تحتها ثوب اسود فعرف هانى للحال انه ثوب مريم فلم يطالع ان صاح «مريم ! مريم !»

فمد الفارس يده الى الخمار فازاحه فبان من تحته وجه فتاة يتذدق حياة وجهاً وقد زاده التلثم دثماً فتورد وابرق العينان . ولا تسل عن هانى لما علم بما اتنى مريم من البسالة التي تندى في النساء فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه «مريم ؟ اهذه النعال فعالك يا حبيبة .. عهدناك رب الجمال واللطف ولم يخطر لمن انك ايضاً ربة الجود والسيف .. حبيبي ما الذي جرى ؟ اين كنت ؟ ما هذا ؟ ماذا ارى ..»

قالت «انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدى الامير عبد الرحمن ولم آت امراً يتحقق هذا الاطنان واذا كنت قد فعلت شيئاً فما هو الا لاني تسميت باسم الامير هانى .. فالامير هانى هو الذي فعل ذلك ..» قالت ذلك بلاغتها المعمودة وقد تحلى في محياتها شيء هو غير البسالة والانفة — تجلت في وجهها ملائحة الحب فذهبت بكل ما كان هناك من امارات الشجاعة والرجلية . ثم انتهت لنفسها وانها قالت ذلك بين يدي الامير عبد الرحمن فغلب عليها الحماس فاطرقت فابندها عبد الرحمن قائلاً «بورك فيك وبورك بالامير هانى، انك متكافئ ولو لا كلاصاب هذا الجيش ضيق لا ندرى ما يكون من عواقبه .. تفضلي يا بنية احلاي وقهي علينا خبرك وما الذي دعاك الى اقتحام هذا الخطير العظيم .. فقد سمعت من اخي هانى، انك خرجت من الخباء في هذا الصباح بخديعة وذهبت هو من الصباح للتفتيش عنك ولم يعد الا بعيد بجيئك — عاد وهو قاطط من العثور عليك .. فما هو خبرك ؟»

. قالت «ارجو قبل الشروع بالحديث ان تأمر باستقدام رفيقتي وصديقي التي تحملت العذاب من اجل .. ميونة .. فانها خارج هذا الفسطاط » وأشارت بأصابعها الى الخارج

وكان الاميران قد علما بضياعها معًا فلم يستغرق كلامها فصنق عبد الرحمن فدخل الغلام فامر ان يدخل المرأة الى واقفته خارجاً وبعد هنمية دخلت ميونة وهي ظاهرة بالحياة والدعة . فأشار اليها عبد الرحمن ان تقد على طنفسه في بعض جوانب الفسطاط وهو يبتسم لها اعتراضاً بحسن صنيعها ثم حوال وجهه الى مريم لاستماع حديتها . وكان هانى لا يزال واقفاً فأشار اليه عبد الرحمن ان يقعد بجانبه فقعد واصاح الاميران باذنهمما لسماع القصة فهدأ ت مريم بالحديث منذ جاءها الرسول يلتمس ذهابها الى الامير هانى وكيف ان

ميمونة عرضت نفسها خدمتها وكيف آنستها واعانتها حتى وصلت إلى دخولها القصر المهجور وما كان من بجيء بسطام وما ابداه من الواقحة وكيف عرضت ميمونة بنفسها للخطر دفاعاً عن مريم . فلما ذكرت مريم ذلك تحولات الانظار الى ميمونة فتظاهرت بالحياء والاطلاق . أما هانيء فاحس منذ سمع اسم بسطام بارتباك من شدة الغيرة والتفت الى الامير عبد الرحمن وهمس في اذنه قائلاً « يا ليتني قتلت في هذا الصباح . . . »

اما مريم فانها استمرت في حديثها فقالت « فلما رأى بسطام مدافعة هذه الصديقة عني امر رجاله فقبضوا عليها واوثقوها وساقوها الى بعض الغرف وهي تصيح وتستغيث فلما يئست من نجاتها نقدمت الى ذلك الوحش الكاسر ان يرافق بي . اني لا انسى تلك الاستغاثة — وان كان بسطام لم يعبأ بها فانه لما خلا بي في ذلك القصر المهجور حدثه نفسه بأمور كثيرة وطال المجال بيني وبينه وفيما نحن في ذلك جاء بعض فرسان هذا الجند للبحث عن الامير هانيء هناك فعملت منهم ان الافرنج هاجومون وهانئ غائب وان العرب في تضعضع بسبب ذلك . فأصبحت في قلق لاسباب لا تجهلونها . اما بسطام فانه لم يبال بضياع جند العرب كله وما سمع توبيني له على ذلك انتهافي وعرض بذكر الامير ( وأشارت الى هانيء ) واتهمه بالجبن وانه فرّ من المعركة خوفاً من الموت . لاني قلت له « الا تزال تزعم ان هانياً غلام لا شأن له وقد رأينا الجند لا يستطيعون عملاً بدونه ولم نسمعهم ذكره وبسطاماً ولا سواه » ( فلما سمع هانيء ذلك الاطناب حول نظره عن مريم حياءً )

اما مريم فآمنت حديثها قائمة « فوق كلامي على بسطام وقوع الصاعقة ولم يتلاط ان هجم عليّ ويده على قبضة سيفه يهم ان يجرده ليضربني به فصحت فيه « احساً بانذل الرجال ان مثلك لا يليق ان يسمى اميرًا فبدلاً من ان تجرّد حسامك على فتاة اذهب لتجده اخوانك وقد علمت ما هم فيه من الضنك وجرده على اعدائك . ولو كان هانيء في مكانك ما فعل مثل فعلك » فلم يزد هذا الكلام الا حنقًا وكتت اظنه يخجل من نفسه ويرتدع عن غيره فقال ويده لاتزال على قبضة السيف « لو كان هانيء رجلاً ما تختلف عن ميدان الحرب في مثل هذا اليوم ولكنه جبان » ولم يتم كلامه حتى جرد سيفه وهو بطلاؤه على « فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر في عينيه تناصيت ضعف النساء وشدت عزيمتي وعولت على الفتاك به التراس للسرقة في الخروج من بين يديه لانظر في امر هذا الجند لأن فشهده يهمني كثيراً كما تعلمون . ثم امسكت نفسي وعدت الى الملاطفة فقلت له « لا تخواني بسينك ولا يعنك اني فتاة فائي لا اخاف السيف فاربع عن عزتك وائزكني وشائني وذلك خير لك » وفبضـ

على زنده وهزته فاً كبر ان يصغي لتعحي فانتشر من يدي وكان قد انزل السيف فعاد وشهره واوهم انه مطلقه على عنقي فتراجعت لا خلوه من الضربة فظنه خفت فتبعني وسنيه يكاد يقع على رأسي فاعترف لكياني لم اعد استطيع صبراً على ذلك فصحت فيه « تعحيتك فاقبل تعحيتي يا بسطام . . . » قلت ذلك وهو يحاول ان يقبض على ثوبي ليتمكن من ضربي لانه كان يتوقع فرارى . فبدلاً من الفرار هجمت اليه وامكست ينابيع يسرائي ومددت يمناي الى منطقته واستلأت خبره وغمده في صدره وقلت له « ايدت الا ان تموت قبلاً وان تدنس يدي بدمك » ففاص الخنجر الى قبضته وخرّ على الارض وسقط السيف من يده فالقطعت السيف ولم انظر الى وجهه لاني قتله مكرهة واسرعت الى الادم فركبته والثافت بالعباءة وجعلت الخوذة على رأسي وهمزت الجواب نحو المعركة لأوهم الناس اني الامير هانىء تشجيعاً لفرسانه فإذا ترتب على عملي هذا النجاح فاما الفضل لذلك الاسم المبارك »

## الفصل الثالث والثلاثون

### الاخلاص

فلا ذكرت مريم قتل بسطام صاح الامير عبد الرحمن « قتلت بسطاماً ؟ »  
قالت « نعم قتلتة وقد قصحت عليك السبب الذي دعاني الى قتله فاما ان تعذرني فيه او نقتنى به فاني بين يديك »  
فتصدى هانىء للجواب قائلاً « ان قتله مقدر منذ ايام ولم نقتنى له فليتنقم مني »  
واذا رأى الاميران ينتقم له فليتنقم مني »

فقال الامير عبد الرحمن « لا اريد الانتقام له ولكنني اخاف ان يترتب على مقتله تشویش في الجندي لا تعلو من . . . » ثم انتبه لوجود ميونة هناك فتوقف عن اقام الحديث وحول الموضوع فقال « سمعود الى البحث في ذلك والآن اخبرينا عن سبب تأثيرك عن القدوم الى الان مع ان المعركة انقضت منذ بضع ساعات »

فلما سمعت مريم سؤال عبد الرحمن اشارت بيدها الى ميمونة وقالت « قد كنت في شاغل من أمر هذه الصديقة لاني تركتها أسيرة في ذلك القصر المهجور واسرعت لما قدمته من أمر الحرب . فلما فرغت من ذلك واطهأن بالي على الجند تذكرت ما هي فيه من الضيق بسيبي فلم أتمالك عن الذهاب لإنقاذهما . فاسرعت الى القصر قبل المجيء الى هذا المعسكر فوجدهما لا تزال مغلولة وقد غادرها الحارسان فحملت قيودها وجبت بها على جواد كان لا يزال هناك . ولو لم استطع إنقاذهما لتنقض عيشي لأنهما أسرتا وأهينت بسيبي — فلما رجعت كان الليل قد أظلم فاهتدت الى معسكركم بنيرانه وعرفت خيبة الأمير من العلم الذي يصاحبها فثبت كاترون »

وكانت مريم تكلم والسمية تتدفق من محياتها والصدق يجلب في كل انظ من الناظها فازداد عبد الرحمن اعجباً بها والامير هانىء هياماً بحبها ولم يتمالك هانىء ان صاح « بورك ببطلن حملك والله لانت بشير خير ورسول سعادة لهذا الجند » ٠٠٠

فوقت ميمونة عند ذلك وهي تتظاهر بالامتنان واللطف والحياء وقالت « لا غزو اذا أعجب بها الامير وهو في أبان الشباب فقد عشقها النساء قبله واعترف اني لم تقع عيني في هذه البلاد ولا في غيرها على فتاة جمعت ماجمعته هذه السمية من لطف النساء وبسالة الرجال وأنفة الامراء وحنون الامهات غير ما في خصالها من صدق الاميمة وعنة النفس فهي جديرة برضاء الاميرين . واما انا فقد كنت أعدّها صديقتي وبعد ما غمرتني به من الجميل أصبحت وانا أنظر اليها نظري الى من هو فوق مرتبتي » ٠٠٠

وكانت مريم في اثناء ذلك مطرفة تکاد تذوب خجلاً وقد كلل العرق جبينها حتى تقططر فوق خدين توردا من شدة الحياء ولم تر جواباً لذلك التحمل غير السكوت والاطلاق

وادرك عبد الرحمن ذلك فيها فأشنق علي عواتئها فعدد الى تغير الحديث فقال « أرى مريم أهلاً لا كثراً من ذلك واما الان فقد آن لها ان تستريح بعد هذا العناء » ثم صفق فدخل الغلام فقال له « اعدد هاتين السيدتين خيبة تنانان فيها واحضر لهما كل ما تحتاجان اليه من لوازم الراحة . ٠٠٠ . وخذ الفرسين الى الاسطبل » ٠٠٠

فاشعار اشارة الطاعة وخرج وخرجت مريم وميمونة في اثرها وهانىء راعي مريم في اثناء خروجها وقد تضائف هيامه بها وتذكر ما عاهدها عليه من أمر الاقتران بعد ان يقطعوا نهر لوار . فلما تذكر ذلك هان عليه ان يقتتحم جند الافرنج وحدة اذا حالوا بينه

وبين ذلك النهر . فلما خرجت المرأة وبي الاميران على افراد لاحظ عبد الرحمن ما بدا في وجه هانيء من دلائل الهميم فسره تعلقه بمریم وغلب على ماربها خطر في باله من الاستئثار بها دونه لما آتته من المشاهدة بين الحبيبين بسالة وحمة وأنفة مع ما بينهما من الحبة المتبادلة — على أنه مالبث أن غلب على فكره أمر ذو علاقة كبرى بسلامة ذلك الجندي والاحتياط بالحادي على اثر ما سمعه تلك الليلة من مقتل الامير بسطام . وأصبح لا يشك اذا بلغ مقتله الى رجاله ان يثوروا ويطالبوا بدمه فاذا علموا ان مریم قتاته ربما أسوأها فيستاء هانيء وتكون البلية الثانية شرّاً من الاولى — فلبث الامير عبد الرحمن هنيهة وهو مطرق واصابعه في خلال لحيته وقد استغرق في التفكير حتى غلب عليه الجمود وقد قضى على لحيته بناهله والشعر فيها بينها — وكان هانيء مطروقاً مثل اطراقه ولم ينتقل فكره من مریم الا الى ما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم

## الفصل الرابع والثلاثون

وانبه عبد الرحمن بفتحة ونظر الى هانيء فلما رأه مطروقاً ادرك انه يفكر في أمر غير الذي يفكر هو فيه فعذرها في مریم بعد ما عاينه منها ولكننه خاطبه بطف وايناس وقال له «بورك لك بهذه الفتاة فاتك والله جدير بها ولكننى لا ازال اتوقع منك رأياً لا يتم لنا امر بدونه »

فلما سمع هانيء كلامه عاد الى رشده وفاته لاول وهلة ادرك مراد عبد الرحمن فقال « وأي أمر تعنى أيها الامير »

قال « اعني بسطاماً وقتله . لا انكر عليك انه نال ما يستحقه ولكنك لا تجهل حاجتنا الى بقاءه اذا لم يكن للاستعارة بسيفه فلاحفظ قبيلته على ولائنا . وانت تعلم شأن أولئك البرابرة معنا وخصوصاً رجال بسطام فاهم انما تتجدوننا طمعاً بالغنائم ولم يذعنوا لا امرنا الا وفي ثقوبهم ضيقاً علينا لاعتقادهم ان العرب ظالموهم ومستأثرون بالسلطة والاموال دونهم . فاذا علموا بقتل أميرهم اخاف ان يحدث منهم ما يفسد امرنا ويفرق كلمتنا ونحن في اشد الحاجة الى الاجتماع فا رأيك ٠٠٠ ٠

فابتدره هانيء بالجواب كأنه اشتغل في تسيقه وتحريره منذ أيام وقال «ليس اهون على من ارضاء أولئك البرابرة ٠٠٠ فقد قاتل انهم لم يرافقونا في هذه الحرب نصرة للإسلام وإنما ارادوا كسب الاموال واقول لك انهم لم يطغوا بسطاماً الا مثل هذه الغاية لأنهم واسطة بيننا وبينهم فإذا تتحققوا بقاء ذلك الكسب ظلوا على الطاعة - وزد على ذلك اننا نوهمهم بأن ذهابه دعا إلى زيادة اسهامهم من الغنائم لانه كان كثير الطمع لنفسه ثم نزع أولئك الامراء هدايا خصوصية ونطلب اليهم ان يختاروا رئيساً منهم بدل سلطان - واذا عهدت إليّ تدبير ذلك فعملته وانا ضامن السلامة باذن الله فان من كانت مطاعمه الاموال لا يصبب ارضاً لها ٠٠٠»

فاعجب عبد الرحمن بسداد ذلك الرأي وعهد إليه تدبير الامر بحكمته وفوض إليه اجراء ما يراه ولم يكن ذلك صعباً عليه

وفي صباح اليوم التالي تفاوض الامراء في امر الاخيبة فاجتمعوا على حملها إلى هناك فبعثوا جنداً لتقليل المضارب وخيم الغنائم التي كانت باقية في المعسكر القديم واتم هانيء مهمتها على نحو ما قال ومكثوا هناك يتآهبون للشخصوص نحو نهر لوار بعد رجوع سالمة من مهمتها ليعملوا كيف يتصرفون • لأن عبد الرحمن كان يتوقع فوائد كبرى من مساعي سالمة لعلمه ان اتحاد جنده لا يمكن طويلاً لاختلاف عناصره وتضارب مقاصده امرأه فإذا لم يتمكن وسائل أخرى خاف العاقبة فضلاً عما يترب على مشروع سالمة من حجب الدماء وسهولة الفتح

اما ميمونة فقد علمت ما كان من حياتها وما ذكره لفشل جند المسلمين وكيف أنها لم تنجح لاسباب تقدم بيانها • ولكنها كانت بدهائها وذكرها قد حفظت خط الرجوع فاظهرت أنها اسيرة بسبب مريم وقد سرها مقتل سلطان لانه مطلع على بعض سرّها وفي مقتله أمان من افشاها • فلما خرجت مريم على الادهم في ذلك اليوم ارسلت ميمونة أحد الرجلين في أثرها فلما طاد من المعركة وابأها باندحار جند الافريقي امرت الرجلين بالفرار وظلت هي بغلاها هناك على أمل أن تبعث مريم من يستجلبها ولم يخطر لها ان تأتي هي بنفسها • فلما جاءتها مريم وجدتها وحيدة فللت قيودها وسارت بها إلى معسكر العرب كما تقدم

وقد رأيت مبالغة ميمونة بانتداح شهامة مريم لأنها رأت الاميرين معجبين بها فارادت بمحارتها تمويهاً لما قد يظننا بشأنها وها في الواقع لم يخطر لها شيء من

سوّي الظن بها من هذا القبيل . أما هي فقد كظمت ما في نفسها وعزّمت على التخاذ وسيلة نافذة كانت قد اذخرتها في ذيئنها لحين الاضطرار فلما ذهبت مع مريم الى الحيمة تلك الليلة ظلت على اظهار اعجابها بها والبالغة بما شادته من سجاياها حتى اذا خلت بنفسها لبنت تنتظر بجيء عدلان الاحوال لتفاوضه في الحيلة التي دبرتها وهي لا تشک في نجاحها

## الفصل الخامس والثلاثون

فلنذهب يدبرون ويستظرون ولنعد الى سالمة ومهماها فقد طال بنا السكوت عنها . — تركناها وقد ركبت من خباء المسلمين تلتسم بوردو وحسان العجوز في ركبها فلما بعدها عن الخباء واطلاع على بوردو التفت سالمة الى حسان وقالت « هل كان يخطر لك يا حسان ان تستوفق الى مثل الامير عبد الرحمن بعد طول انتظارنا عملاً بالوصية ؟ » فقال « لا والله يا مولاي — وقد اذكرتني الوصية فهل أنت مخفيظة بتلك المحفوظة فقد رأيتها بين يديك وكان عهدي انك تحفظينها في مكان لا يراها فيه أحد . . . » قالت « صدقتك يا عاه انها كانت في يدي في اثناء خروجنا في الاسر لاني كنت اخرجتها من مخبيها ساعة يشتت من الحياة وحسبت هؤلاء العرب يقللوني فهمست قبل ان تقipض روحي ان اخدم هذه الوصية اليه واتسمم ريح صاحبها منها ثم اعبد اليك او الى سواك ان يوصلها الى صاحب هذا الجندي — اما الان فكن في راحة لاني تابطتها تحت اثوابي . . . وما ضنك في مريم وهي وحدها في خباء العرب ؟ . . . »

قال « لا باس عليها يا مولاي والعرب كثيرو العنایة في نزلائهم وخصوصاً من كان منهم في ضيافة الامير الكبير . وقد لحظت من اهل ذلك الخباء احنفه كثيراً بمريم فالناس احببوا واحتفلوا بها وخصوصاً ميدونة فقد سمعت من اخوه يان الصقالبة الذين يخدمونهن انها تعشق مريم وبذلت كل ما في وسعها لاحتتها . . . » وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدوآ خفيفاً بجانب ركب سالمة وهي تسمع كلامه متذمراً بشخير الفرس وقططقة حواره فلما قال ذلك امسكت بجام الفرس ليسير بها الى الموئية والتقت الى حسان وقالت « لا اخفي

عنك يا حسانت اني اخاف على مریم من هذه المرأة اکثر من سائر اهل هذا الجندي  
نساء ورجالاً . . . .

فبعث الرجل وكان يتكلم وهو يتغرس في الأرض ليثني الحجارة والأشواك فلما سمع  
قطعا رفع بصره إليها وقال « وما هو سبب خوفك يا مولائي »

قالت لاني شاهدت هذه التي تسعي نفسها ميمونة فإذا هي داهية دهاء واظنني  
عرفتها وآخاف ان تكون قد عرفتني ولذلك فحلا ثقابتنا لم اطل الكلام معها ولا اشك ان  
بقاءها في هذا المعسكر خطط لها فخرج من مهمتي هذه في بوردو وما وراءها ساعود الى  
الامير واطلعه على حقيقة هذه المرأة لئلا تخدعهم وتضطجع شوؤونهم لأنها ذات شأن  
عند الاقربين ويهمنها ان يكون النصر لهؤلاء واسنغرب ان تكون في خباء الامير عبد الرحمن

وعهدي بها في غير هذه البلاد . . . وسنرى في شأنها عند رجوعنا . . .  
فلما سمع حسان قوتها مال بكليته إلى استطلاع الحقيقة ولكنها لم يجرأ على السؤال عن  
اسمها فقال « وهل اعرفها انا »

قالت « لا شك في ذلك . . . دعنا من هذا الآن »

فسكت حسان وكانت قد اشرفت على أسوار بوردو فرأى الناس خارج سور زرافات  
ووحدانًا وقد خرجوا لافتداء اسرابهم وكثيرهم فرحون بما اوتوه من الرفق وأكثر  
الناس غيظاً من ذلك الرفق اليهود وخصوصاً الذين كانوا قد اتبعوا الاسرى  
وهموا بحملهم للاتجار بهم فلما جاءهم امر الامير بالتخلي عنهم غضبوا واستغربوا بذلك وارادوا  
الامتناع من التسلیم ثم اذعنوا - فلما رأت ميمونة تزاحم الناس هناك تحولت الى باب من  
ابواب المدينة بعيد عن ذلك الازدحام وسارت تواً الى اسقف بوردو فترجلت بباب  
القلالية وتركت حساناً عند الفرس ودخلت تلمسن الاسقف فرأى اهل ذلك المكان من  
القسوس والرهبان وغيرهم في حركة وقد تجلت في وجوههم امارات السرور لما جاءهم به  
هانئاً في مساء الامس من آنية الكنيسة مع الامر بافتداء الاسرى . وكان اکثر القسوس  
يعرفونها فرجعوا بها وبشروا بها ما كان فهناً لهم وطلبت اليهم ان يستأذنوا لها الاسقف بمقابلة  
خصوصية فالسمسوا لها الاذن فلما دخلت عليه تلقاها بترحاب واحترام مع انه لم يكن  
يعرف حقيقة امرها ولكنها كان يحترمها لتعقلها وسداد راجها

فلما دخلت قبلت يده فباركتها وجلست الى جانبه فاستخبرها فقصت عليه مختصر ما  
جرى لها حتى انتهت الى امر الاسرى فاكتدت له ان العرب اکثر الامم رفقاً برعاياهم

واسلام وانهم انا امتد سلطانهم في الشرق والغرب لما آنسه اهل البلاد على اختلاف نحلتهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند امم الافرنج في ذلك العصر . وان ما اصاب كنيسة بوردو من الغب انا . وقع سهواً من بعض ذوي المطامع من توابع جند المسلمين غير العرب

فلا سمع الاسقف كلامها تذكر انه كثيراً ما كان يسمع منها اطراء العرب من قبل ولم يكن يصدق حتى سمع وكان يظنهما ثقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعليم ابنتها اللسان العربي وهي مقينة ببلاد الافرنج مع كونها غير عربية — فلما سمع اقوالها بعد ما شاهده من الرفق اعتقاد صدقها فجراها في الاطراء فاغتنمت تلك الفرصة وتقدمت الى الحديث المقصود فقالت « لا انسي يا سيادة الاسقف ما كنت ألقاه من نفورك اذا امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدت ذلك بنفسك عن بعد ولو اتيتني لك معاملتهم ومعاشتهم لزدت ارتياحأ لهم ولذلك فاني استغرب محاربة اهل هذه البلاد لهم والوقوف في سبيلهم »

فقال الاسقف « صدقت يا ابنتي انا كثيراً ما سمعنا بعد لهم غير اتنا رأينا من بعضهم ما تشيب لهوله الاطفال من القسوة حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من انهم يعبدون الاوثان ولا يعرفون عبادة الله ... »<sup>(١)</sup>

## الفصل السادس والثلاثون

فابتسمت سالمة ابتسام الاستغراب وقالت « يعبدون الاوثان ؟ .. ان ذلك من الاراجيف التي يشيعها اعداؤهم فانهم يعبدون الله الواحد ويحترمون الديانة النصرانية احتراماً كبيراً ويكرمون السيد المسيح كثيراً . ولا يعقل ان تنسب اليهم الوثنية ونبيهم انا قام لابادة الاصنام التي كان العرب قبله يعبدونها فكسرها ومحى الصور التي كانت في معبد الوثنية في مكة وبغض الوثنية الى اتباعه حتى حرم عليهم التصوير ونحت التأثيل . فما يبلغكم من هذا القبيل انما هو حديث موضوع لغرض من الاغراض — لا انكر عليك ماقد يديه بعضهم من سوء التصرف او الطمع او نحو ذلك فهذا لا يصح القياس عليه كما لا يصح

(١) رينو

ان نقيس كل اعمال الاساقفة بعمل واحد منهم شدّ عن المنح القويـ . و زد على ذلك ان العرب مـها يكن من امرهم فـهم ارفق باهل هذه البلاد من هـولاء الافرنـج الذين جـاؤـا بـقبائلـهم واستبدـوا فيـهم واستـبعدـوا الناس واستـخدـموـهم في اشـقـ الاعـمال ولم يـقدـدوا واحدـا من اهلـالـبلاد وظـيـفـةـ من وظـائـفـها . فـهم القـابـضـون على ازـمةـ الحـكـومـةـ وـهمـ المـسـتـدـرـونـ خـلـيرـاتـ الـبـلـادـ وـمـاـ الـغـالـيـوـنـ الاـ مـثـلـ العـبـيدـ اوـ الـاقـنـانـ الـذـينـ يـشـتـغـلـونـ فيـ الـحـقـولـ - هلـ رـأـيـتـ غالـيـاـ نـقـلـهـ منـصـبـاـ كـبـيرـاـ اوـ هـلـ رـأـيـ الفـالـيـوـنـ رـاحـةـ مـنـذـ وـطـيـ هـولـاءـ الـافـرنـجـ بـلـادـهـ ؟ - اـماـ العـربـ فـاـذاـ فـتـحـوـ بـلـادـ اـظـلـقـوـ حـرـيـةـ الـاـدـيـانـ وـالـمـذاـهـبـ وـالـمـعـاـملـاتـ حـقـيـ الـحـكـومـةـ وـالـقـضـاءـ فـانـهـمـ يـتـرـكـونـهـمـ لـاهـلـهـ وـيـقـتـصـرـونـ هـمـ عـلـىـ قـيـادـةـ الـجـنـدـ وـحـمـاـيـةـ الـاهـالـيـ منـ الـاعدـاءـ لـاـ يـلـتـمـسـونـ اـجـراـ ءـ عـلـىـ ذـاكـ الاـ مـاـ لـيـسـوـنـهـ الـجـزـيـةـ لـاـ يـسـاـوـيـ بـعـضـ ماـ يـقـضـيـهـ اوـ اـئـمـهـ الـافـرنـجـ مـنـ الضـرـائبـ الـفـادـحةـ . تـاهـيـكـ بـالـحـرـيـةـ الـيـتـمـعـ بـهـ الـاهـلـوـنـ تـحـتـ عـنـيـتـهـمـ . وـسـيـادـتـمـ تـعـلـمـ حـالـ اـهـلـ هـذـهـ الـبـلـادـ مـعـ الـافـرنـجـ الـفـاتـحـينـ فـانـهـمـ اـصـعـبـ هـمـ كـانـتـ تـحـتـ سـلـطـانـ الـرـوـمـانـ قـبـلـهـمـ - أـلـيـسـ مـعـظـمـ النـاسـ هـنـاـ عـبـيدـ اـلـحـكـامـهـمـ يـتـصـرـفـونـ فـيـهـمـ تـصـرـفـ الـمـالـكـ بـعـقارـهـ ؟ نـعـمـ اـنـ العـربـ عـنـدـهـمـ العـبـيدـ وـالـمـوـالـيـ وـلـكـنـهـمـ اـرـفـقـ حـالـاـهـمـ مـنـ اـولـئـكـ . فـانـ الرـقـ عـنـدـ الـمـسـلـيـنـ غـيـرـ مـسـتـحـسـنـ وـكـانـ الـاسـلـامـ قـامـ يـدـعـوـ الىـ اـبـطالـهـ<sup>(١)</sup> وـلـوـ لمـ يـرـ نـصـارـىـ الـشـرـقـ وـالـغـرـبـ مـاـ رـأـوـهـ مـنـ الرـفـقـ وـالـعـدـلـ تـحـتـ ظـلـ الـمـسـلـيـنـ مـاـضـلـوـهـمـ عـلـىـ الـرـوـمـ وـالـفـرـسـ - وـقـدـ اـطـلـتـ عـلـيـكـ الشـرـحـ وـاـنـمـاـغـرـيـ اـنـ نـسـعـيـ فـيـ حـجـبـ الـدـمـاءـ فـهـلـ تـسـاعـدـنـيـ عـلـىـ ذـاكـ ؟ اـنـ الـمـسـلـيـنـ فـاتـحـوـ هـذـهـ الـبـلـادـ لـاـ مـخـالـةـ فـيـدـلـاـ مـنـ اـنـ يـفـتـحـوـهـاـ عـنـوـةـ وـيـسـنـكـواـ فـيـهـاـ الـدـمـاءـ وـيـهـدـمـوـاـ الـمـاـزـلـ وـالـقـصـورـ فـلـيـكـ فـتـحـهـاـ صـلـحـاـ وـيـسـلـمـ لـكـلـ وـاحـدـ مـالـهـ وـعـرـضـهـ . . . وـالـسـعـيـ فـيـ هـذـاـ السـبـيلـ مـنـ وـاجـبـاتـ سـيـادـتـمـ اـكـثـرـ هـمـ هـوـمـ وـاجـبـاتـ اـمـثـالـيـ . . . وـكـانـ سـالـمـةـ نـتـكـلمـ وـاـمـارـاتـ الـجـدـ وـالـاهـتـامـ ظـاهـرـةـ فـيـ كـلـ كـلـمـةـ وـكـلـ حـرـكةـ وـكـانـ الـاسـقـفـ يـسـمـعـ اـقـواـلـهـ وـيـجـبـ بـسـعـةـ عـلـمـهـاـ عـنـ الـعـربـ كـانـهـاـ عـاـشـرـهـمـ وـسـاـكـنـهـمـ زـمـنـاـ طـوـيـلاـ وـكـانـهـاـ اـطـلـعـتـ عـلـىـ عـاـوـنـهـمـ وـآـدـابـهـمـ وـمـعـ كـلـ مـاـفـيـ اـقـواـلـهـاـ مـنـ الـمـخـالـفـةـ الـلـاعـنـقـادـ الـذـيـ كـانـ مـتـسـلـطاـ عـلـىـ عـقـولـ اـهـلـ تـلـكـ الـبـلـادـ يـوـمـئـدـ فـانـهـ لـمـسـ حـسـ بـالـاقـتـنـاعـ بـقـوـلـهـاـ وـنـبـهـ خـمـيرـهـ الـىـ وـاجـبـ عـلـيـهـ يـقـضـيـ بـالـسـعـيـ فـيـ حـجـبـ الـدـمـاءـ عـلـىـ نـحـوـ مـاـ سـمـعـهـ مـنـ سـالـمـةـ فـقـالـ لـهـ «ـجـزـاـكـ اللـهـ خـيـرـاـ ياـ اـبـنـيـ عـلـىـ سـعـيـكـ فـيـ مـصـلـحـةـ شـعـبـ اللـهـ وـنـطـلـبـ اـلـهـ تـعـالـىـ وـتـضـرـعـ اـلـىـ السـيـدـ

(١) تـبـرـيـةـ الـاسـلـامـ

ال المسيح ان يقدم ما فيه الخير . . . »

فلا آمنت منه اقتناعاً عمدت الى اقام العرض بلباقة وحسن سياسة فقالت « لا اريد من سيادة الاسقف ان يكلف اخوتنا المسيحيين تسليم البلاد الى هؤلاء المسلمين عفوأ ولا ان يساعدوهم على اخذها بالسيف وانما ارى ان يتاركوا الامر لمن غالب بغير ان يساعدوا احد الفريقين على الآخر . فادا غالب الافرنج فهم اصحاب السيادة والبلاد في ايديهم واذا غالب العرب فلا يضرنا غالبهم بل هم خير لنا من اولئك »

فارتاح الاسقف الى قوله وكان روماني الاصل ورأى من الافرنج استبداداً في دائرة نفوذه حتى كادت السلطة تخرج من يده فقال لها « اود ان يعلم اخوتي الاساقفة بهذه النصيحة في البلاد الاخرى ولكنني اخاف ان يطلع الحكم الافرنج على ذلك فيعود الامر وبالاً علينا »

قالت « على ابلاغ ذلك الى من شئت وانما اطلب منك كتاباً تصحبني به الى اسقف بواتيه لا تذكر فيه شيئاً غير التعريف البسيط واني من ابناءك المخله بين فادا انا لقيت الاسقف اطلعته على ما اراه من هذا الموضوع . والقدم الى مولاي ان يث هذه الروح في رجال بطانته على ما يراه ولا اظن واحداً من اهل بوردو لا يشهد هذه الشهادة في العرب وقد اعادوا اليهم اسراهم وآنية كنيستهم »

قال الاسقف « صدق يا ابني لا يجوز لنا انكار هذا الجميل . . . »

قالت فاقدم اليك اذا لقيت حاكماً للبلد ان تبث هذه الروح فيه اذ ر بما طلب اليه الكونت اود نجدة لمساعدته في قطع الطريق على العرب لاني علمت ان الكونت المذكور معسكر في مضيق دردون . وعلى كل حال فقد تركت تدبير هذا الامر اليك واني مسافرة الى بواتيه في هذه الساعة فهل تاذن لي في كتاب الى اسقفاً ؟ »

قال « نعم » ونهض فكتب على منديل من حريير سطرين للغرض المقصود فتناولت الكتاب وقبلت يده فباركتها . وقبل خروجها تذكرت المسافة بين بوردو وبواتيه وهي نحو مئة ميل لا يستطيع اجتيازها في اقل من ثلاثة ايام او اربعة وحسان لا يقدر على المسير في ركبها ماشياً كل هذه المسافة فطلبت الى الاسقف ان يأمر لها بفرس يركب عليه حسان فامر لها فخرجت شاكرة واهل القلالية يتباخرون في ماذا عسى ان يكون من امر هذه المرأة ومجيئها على تلك الصورة : اما هي فانها خرجت فرات حساناً والفرسين في انتظارها خارجاً فركبت وركب حسان وخرجتا من بوردو يلتسمان بواتيه

## الفصل السابع والثلاثون

الدورة

وكان حسان يعرف غير طريق يؤدي الى بوابته فسار في أسلوب الطرق بحيث لا يكون عليهما بأس في أثنائه فدبر ان يصلاح في كل مساء الى دير ينزلان فيه ويبيتان ثم ينهمضان في الصباح التالي . فشيئا بقية ذلك اليوم وقلما تكلمت سالمة لاشغال خاطرها بالمهمة أتي هي ذاهبة فيها . فلما أمسى المساء أشرف على دير لا يعد من الأديار الكبرى . فتحولا اليه وهو قائم على سفح جبل فوق نهر تجري مياهه معظم السنة وحول الدير مغارات الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها . وهو كسائر الأديار في تلك الأيام عبارة عن بناء محاط بسور عال له باب واحد صغير داخله باب آخر وبجانب الدير بناء صغير للدواب ونحوها . فلما أشرف على الباب تقدم حسان وقرعه بجرس معلق فوقه . فاطل اليه راهب من كوة فوق الباب سأله عن غرضه فقال له « نحن غرباء ونبغي الممات عندكم فهل من مكان » قال حسان ذلك بلغة أهل البلاد ولكن ظهر من خلاها انه غريب عنها ففتحوا لهما فدخلت سالمة وتركت حساناً لينظر في أمر الفرسان ثم يدخل في جملة خدمة الدير . فلما رأها الراهب باباً موصى في منظرها وفي زيه هيبة الجنادل والوقار فأسرع الى الرئيس فأخبره بذلك فأمره ان يدخلها اليه . فعاد وهو يقول « تفضل الى حضرة الرئيس وهو ياصر بغرفة تقييمان فيها ما شئت »

فشت سلمة في سجن الدير فرأته من دحماً بالناس من الرجال والنساء والأطفال  
وأكثرهم من أهل بوردو وجوارها فادركت أنهم تجأوا إلى الدير خوفاً من العرب فطلبت  
ماشية حتى أقبلت على غرفة الرئيس . فلما دخلت وقف لاستقبالها ورحب بها وأمر لها  
بالطعام وسألها عن مصيرها في ذلك الطريق . فقالت أنها قادمة من بوردو ومسيرة إلى بوابة  
فلما علم أنها قادمة من بوردو قال « الملك في جملة الذين فروا في أثناء الحرب على أئش  
ذهب الكنديسة والفتى في الاسرى »

قالت «لقد أخطأ الذين فروا لأن هب الكنيسة إنما كان تهدياً من بعض المسلمين المرافقين لجند العرب . وما علم الأمير بذلك امر باعادة الآنية الى مكانها ورد الاسرى

إلى أهلهم بالفدية القليلة واتخذوا مع أهل بوردو كل وسائل الرفق ٠٠  
فلم يسمع الرئيس قوله بدا الاستغراب في وجهه وقال « وهل يعرفون الرفق وما الذي يدعوهم إليه أو يردعهم عن الفتك والقتل ولا دين عندهم ولا ذمام »  
فقالت وهي تبسم « هل رأيت أحداً منهم يا مولاي »

قال « كلاً ولكنني سمعت ذلك من كثرين »

وأرادت سالمة أن تدفع تلك التهمة بالبرهان فسمعت ضوضاء وصياحًا في باحة الديار  
فوقف الرئيس بفترة وصفق بفجأة بعض الرهبان يعدو فصاح فيه الرئيس « ما هذه  
الضوضاء ٠٠ »

قال الراهب وهو يوضح والفتة ظاهرة في وجهه « هذا داتوس يا سيدي »

قال الرئيس « داتوس ؟ وما الذي فعله فقد عهدهناه معتزلاً لا يخاطب أحداً ولا  
يقدم على الطعام الاكرهاً »

قال « ذلك هو عهدهنا به أيضاً ولكننا نراه قد أصيب بجنون موقت فهجم على خادم  
الامرة وأشار إلى سالمة ) وأوسعه ضرباً وصفقاً وهو يصبح يا أماه يا أماه حتى كاد يقتله  
لو لم نتدارك الا من نمسكه عنه »

فلم يسمع سالمة ذكر خادمهما قالت « وأين هو حسان وما الذي جرى له هل عليه  
من بأس ؟ »

قال الراهب « هو في خير وسلامة ولكننا لم نستطع ايقاف داتوس عن الهجوم عليه  
بعد أن أرجعناه عنه هجوم عليه ثانية بهراءة كانت بيده ولما أمسكتناه عنه بالعنف  
رمى الهراءة على حسان وسقط هو على الأرض وقد أغنى عليه من شدة الغيفظ . وقد  
تركته وهو يختلج ويرتعد ولا يزال يذكر أمها ٠٠ »

فهض الرئيس وهو يهز رأسه كانه يستعيد من شريحاته وتبعته سالمة وقد استغربت  
ما سمعته عن ذلك الشاب وتبادر إلى ذهنها أنه مصاب بخجل في عقله وبعد هنئة أشرف  
الرئيس سالمة على مكان الحادثة وكأنها قد ادخلوا حساناً إلى حجرته ليغسلوا  
جراحه فوق نظرها على شاب في عنفوان الشباب مطروح على الأرض وقد تطايرت  
قبعاته واشتبك شعره وكان جميل الصورة كبير العينين شديد بياض الوجه أشقر الشعر .  
وكان قد فتح عينيه وتحفظ ل الوقوف كانه أفاق من سكرة وجميل يلتفت يميناً وشمالاً تحسبه  
يبحث عن ضائع . فأشعار الرئيس إلى بعض الرهبان أن يخبيوا حساناً في مكان لا يراه فيه

داتوس وأمسك بيد الشاب وخطبته بلطافٍ وباركه ودعا له وأشار اليه ان يمضي الى غرفته فمضى وهو لا يزال يلتفت ولكنها أمسكت عن الكلام بالكلية

## الفصل الشامن والثلاثون

داتوس

فلم أرأت سالمة ذلك الشاب ترجح عندها أنه أصابه جنون أو سكنته شيطان على تغيير هم في ذلك العهد لكنها احيت أن تتحقق ظنها فلما عاد الرئيس عادت هي معه وتوصت في وجهه تغيراً زادها رغبة في الاستفهام وانساحتا البحث عن حسان على أنها لم تك تبدأ بالسؤال حتى سمعته يخاطرها بصوت منخفض قائلاً « الا تزالين تجادليني في أولئك العرب وتزعمين انهم أهل ديانة ورفق ٤٠٠؟ »

فاستغربت سالمة قوله هذا أكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت «لم أفهم يا أبي علاقة هذا الحادث بالمسلمين أو العرب بل أرى هذا الافرنجي قد تعدّى على خدمي لانه عربي حتى كاد يقتلهم » ٠٠٠

وكان قد دخل الغرفة فاغلق الرئيس بابها وأواماً إلى سالمة فجلس على وسادة فوق طنفسة وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال «لو عرفت قصة هذا الشاب وبسبب ما ظهر من هيابه وتعديه لتحقققت صدق قوله في العرب وأقلعت عن اعتقادك فهم الخير »

فقط اول سالمة بعثها واصابت بسماعها ولسان حالتها يقول «ما هي قصة هذا الشاب يا ترى؟»

فقال الرئيس « اعلمي يا ابني ان هذا الشاب من جملة الافرنج الذين تخندوا لمحاربة أولئك العرب حالمابلغهم اقدامهم على فتح هذه البلاد . وكانت له والدة لا يعرف من الاهل سواها ولا هي ترجو سواه فتركها في يتها وسار الى الحرب . فاتفق في أثناء غيابه ان المسلمين جاؤوا ذلك البلد ونبوا بيت المرأة وساقوها في جملة السعيا الى قلعتهم في ذلك الجوار . فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه خبر أمه ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق فاطلب على القلعة وكانت موصدة فاشرفت عليه بعض المسلمين من فوق

السور وسأله عن غرضه فقال له أطاب والذى فانها أسيرة عندكم . فاجابوه لا نعطيك امك الا اذا أعطيتنا الجواد الذى تركه والا فاننا نذبحها امام عينيك . فغضب داتوس لذلك غضباً شديداً وقال لهم لا أعطيكم جوادى فافعلوا بوالذى ما تشاهدون . قال ذلك وهو يظهم يخوفونه بذكر قتلها لا انهم ينونون اعدامها فعلاً – ولكننه ما لبث ان رأهم احتزوا رأسها ورموا اليه وهم يقولون هذه والذى فالذى هي . فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى دماغه وغاب رشهه ولما احجزه الوصول الى القاتلين لامتناعهم وراء الاسوار جعل يلطم وجهه ويصفق ويبكي ويركتض فرسه يميناً وشمالاً كالجنون ثم انفرد عن اصحابه واقام عندنا<sup>(١)</sup> وقد قصّ على خبره فاعتقدت من ذلك الحين ان العرب اهل ظلم وعسف لا دين عندهم ولا رحمة . وقد مضى على داتوس هنا بضعة اعوام لا يتكلم ولا يجالس احداً كانه اصيب ببله فالظاهر انه رأى خادمك وعلم من سجنته او كلامه انه عربي فهاج فيه الغضب وتذكر محبته فلم يتمالك عما ظهر منه ٠٠ ٠

وكانت سالمة تسمع ذلك الحديث وهي في استغراب شديد فلما آتى الرئيس على تمام القصة احسست بضعف حجتها في الدفاع عن العرب ولكنها تحجلت وقالت « لا انكر على مولاي الرئيس حدوث نحو ذلك من بعض العرب كما قد يحدث من الافرنج وغيرهم ولكن العمدة في الامر على اغراض الجندي بحملته ٠٠ ٠

فقطع كلامها قائلاً « وماذا عسى ان تكون اغراضهم وقد شاهدنا من اعمالهم في أثناء قتوحهم ما لم يبق معه حاجة الى دليل – لم يهربوا الاديار وياخذوا آنيتها ؟ لم يأسروا الرهبان ويختاروا اجلهم خلقة ويبيعوهم بيع الارقاء في اسبانيا ٠٠ ٠ وعهدنا بذلك لا يزال قريباً »<sup>(٢)</sup>

فسرت سالمة لاحتجاج الرئيس بهذا الشأن فقالت « نعم ان بعض العرب هبوا بعض الكنائس والاديار ولكن اسراءهم لم يكونوا يقبلون بذلك وكثيراً ما كانوا يعيدون الآية الى اصحابها ويطلقون سراح الاسرى وخصوصاً الرهبان لأن نبيهم او صاحبهم خيراً – وآخر ما حدث من هذا القبيل أن بعض الملحقين بجند العرب من البربرة ومحوهم هبوا كنيسة بوردو فلما علم اميرهم بذلك رد المئوبات واعتذر ولو عز الى جنده ان لا يعودوا الى مثل ذلك ٠٠ فالغرب اهل رفق وعدل وفي اعتقادي انهم خير لاهل هذه البلاد من اولئك الافرنج ٠٠ اقول ذلك بين يديك على سبيل الاعتراف السري وارجو ان لا يطلع

عليه احد فاذا قضت الاحوال بتغلب العرب تتحققت صدق قوله «  
فبعث الرئيس لقوها وصاح « يغلب العرب ؟ معاذ الله »  
فضيحت سالمة لبغنته وقالت « والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء » وتحققت  
ان الرئيس من لا يرجي اقناعهم بفضل العرب فسكتت ولكرها خافت ان يكون عليها  
بأس بعد ما جاهرت لديه بميلها الى العرب فالمتحت عليه ان يعتبر كلامها في هذا الشأن من  
قبيل سر الاعتراف فوعدها بذلك وهو فاعل لانهم شديدو الحافظة على ذلك السر

## الفصل التاسع والثلاثون

الجراح

واردت سالمة بعد خروجها من عند الرئيس ان تقىقد حساناً لكنها ظنتهُ نام فمضت الى الغرفة التي اعدوها لها فباتت تلك الليلة ونمضت في الصباح على عزم المسير فبعثت الى حسان فقيل لها انه لا يستطيع سفرًا لجرح اصابه في رأسه . فذهبت اليه بنفسها ونفخت شأْنه فرأَته راقدًا وقد شد رأسه بمنديل والتعب ظاهر في وجهه . فسألته عن حاله فقال «لقد اصاب ذلك الشاب مني مقتلاً بهراوته ولولا لطف الله لذهب بحياتي فورًا ولا ادرى مع ذلك سبب هذا العددي »

ولم تكن سالمة تخفى عن حسان امرأً وهو خزانة اسرارها فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت الى ما ترتب على ذلك الحديث بينها وبين الرئيس الى ان قالت «ولا بد لنا من الالسراع في المسير الى بواتيه ثم الى تورس قبل ان يفسد الامر علينا والمسليون في انتظارنا على احرّ من الجمر»

فقال «لو استطعت النهوض ما امسكت عن السفر وع ذلك اذا شئت المسير وحدك  
على ان الحق بك حالما استطيع الركوب فعلت» :

فأطروقت سالمة واعملت فكرتها بين ان تمكث هناك بضعة ايام ريثما يشفى حسان فلنحوتها الفرصة او ان تذهب وحدها وتحاول الطريق على نفسها . وبعد اعمال الفكرة مدة رأت ان تصرف تصرفًا وسطًا فقالت لحسان « اني باقية في منتظرك هنا الى الغد فاما شفيت واستطعت الركوب سرنا معًا والا فاني اسير وحدي » فأشنی عليها وقال « اذا جاء

الغد ظهرت عاقبة الجرح فإذا لم تصبني الحمى كان الشفاء قريباً باذن الله » فعملت سالمة على الاهتمام بجراح حسان كأنه في بدنها لأنها كانت تحترمه وتركته بالنظر إلى انقطاعه في خدمتها أعواماً ولأنها في حاجة إليه خصوصاً في هذه السفرة . فذهبت إلى الرئيس وطلبت إليه الاهتمام بجراح حسان فأطاعها لأنها مشعر بظلمة ذلك الشيخ فاستدعي راهباً كان قد تفقه بالطب وكان أهل الدير يرجعون إليه في أمثال هذه الحوادث وأوصاه بمعالجه والعنابة به . فذهب إليه ومعه سالمة فلما نزع الرباط وشاهد الجرح زم شفتيه وابرزها ورفع حاجبيه وكانت سالمة تراقب ما يبدو منه فلما رأت اشمئزازه خفق قلبها خوفاً على حسان ولكنها لم تظهر اضطرابها فسكتت لترى ما يقوله الطبيب فإذا به التفت إلى راهب آخر كان في خدمته وأومأ إليه أن يأتي بالزجاجة فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكأس . وكان الطبيب في أثناء ذلك قد قص الشعر عن رأس الجريح وأكثره متبلد متلاصق من الدم المتجمد عليه فاشتت سالمة رائحة كريهة . ثم صب الطبيب من الزجاجة شيئاً كأنه لوناً وريحة واستعلن بالراهب الآخر على غسل الجرح به فوق نظر سالمة على الجرح فإذا هو طوبل عميق فازداد خوفها عليه ولكنها تحملت لتسمع قول الطبيب على حدة

وبعد الفصل شد الطبيب الجرح باللفافة وأشار إلى حسان أن يستنقى ويستريح ليرى ما يكون من جرحه إلى الغد وتركوه نائماً وخرجوا . فلما صاروا خارجاً تقدمت سالمة إلى الطبيب في أبداء رأيه فقال « لقد أبطأنا عليه بالوسائل الالزمة وكان يجب علينا أن نعمل ذلك الفصل حملاإ أصيب وعلى كل حال لا يمكننا معرفة النتيجة إلى الغد »

فاستعادت سالمة بالله وصبرت نفسها إلى الغد . بخاره في الصباح فإذا هو لاينزال نائماً فنادته فلم يجده فرأته شديدة الحرارة فلعلت أنه في بحران من شدة الحمى فاستدعت الراهب الطبيب فلما جاء ونظر الحالة قال « إن الرجل في البحran وهو في خطير حتى ينفيق »

فقالت « ومتى يفيق؟ »

قال « لابد من الانتظار يوماً أو يومين وعلى الله الشفاء » فارتبت سالمة ووقعت في حيرة من أمرها وخافت على حسان أذ يسؤالها إن يصاب بسوء ملأه من الأيدي البيضاء في خدمتها فضلاً عن حاجتها إليه فقضت ذلك اليوم أيضاً ولكنها على جر الفضا هي تصلي وتنضر إلى الله أن يشفيه واحببت ليلها وهي تذكر في هل تنتظر الشفاء أو تسير وحدها فرأته لو بقيت عند حسان لم تنفعه لات أهل

الدير أكثر عنابة به منها فعزمت على السفر في الغد على اي حال بعد ان توصي الرئيس والطبيب بحسان

فلا أصبحت سارت توًما الى حسان فرأَت راهبين في خدمته وهو لا يزال غائباً عن رشده فسألتهم عن حاله فقال احدها «أَراه قد تندَى بالعرق قليلاً واظنهاء لامة حسنة تبشر بالخير» فذهبت الى الرئيس واخبرته عن اضطرارها للسفر العاجل واوصته بحسان ببعث الى الطبيب وبالغ في وصيته. فلما خرج الطبيب تقدمت الى الرئيس ان يرسل معها من يصحبها الى بواتيه واخرجت من جيبها دنانير دفعتها اليه باسم الدير فاجابها الرئيس الى رغبتها وامر راهبها ان يرافقها الى حيث تشاء . ولما تأهبت للمسير ذهبت الى حسان لتشاهده قبل ركوبها فرأَته على حاله . وخرج الرئيس لوداعها بباب الدير فاعادت عليه الوصية بحسان وقالت «اذا منَ الله عليه بالشفاء فابقه عندك ربنا اعود فاني عائدة على عجل» فاجابها طائعاً وقد نزلت من نفسه متذلاً رفيعاً لهبته وتعقلها وكرمه . وكان خدمة الدير قد اعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير عليها خرج فيه بعض الاطعمة الناشفة زادَ لها في الطريق . وركبا وسارة والراهب دليل الطريق . على ان البغلة لو تركت لنفسها لسارت ولم تخطئ الطريق الى بواتيه ومنها الى تورس لكنثة ما يربونها الى تينك المدينتين لحمل لوازم الدير من الآنية او الاطعمة او نحوها . وكانت سالمة قبل خروجها من الدير قد الغفت برداء اسود فوق ثوبها الاسود فاصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد وزادها شهراً بهن استصحابها ذلك الراهب وكان على رأس الراهب قبة كالخمار تكسو كل رأسه إلا وجهه وقد تجمعت لحيته بين جناحي الخمار وبرزت الى الامام مع شاريته فاصبح فدها غائراً

## الفصل الرابعون

### شبح غريب

تواريا عن الدير وقد صارت الشمس في الضحى وتوجهها شمالاً في طريق بعضه مطروق وببعضه غير مطروق وكانت سالمة تستغرب ما تراه من المنازل المحجوزة والكرفون المتراكمة وهي تعلم ان اهل القرى اذا انتسبت حرب جاؤ الى المدن محليمون باسوارها ولكنها رأت ما يدل على المهاجرة القرية كان اهل تلك الحقول تركوها بالامس فقللت في نفسها لا بد

من حادث طرأ على هذه البلاد . فالتفت الى الراهب وهو على بغلته يجانيها وقالت « مالي أرى الحقول مهجورة على هذه الصورة ؟ »

قال « لا اخذلك تجهلدين ما نحن فيه من الاختن بسبب هجوم العرب على بلادنا واهل القرى لا حصون تحميهم من السلب والنهب »

فقالت « ولكن العرب لا يزالون بعيدين من هذه القرى وربما لا يستطيعون الوصول اليها فكيف يهجرها اهلها عفوا ؟ »

قال « ان خوف اهل القرى يا ابني ليس من جند العرب فقط بل هم يخافون جند الافرنج انفسهم لانهم اذا مررروا بقرية نهبوها واذلوا اهلها وخرموا منازلها وليس من پردعهم والظاهر انهم علموا بقرب عبي ذلك الجندي ففرروا من وجوههم لا ادرى الى اين ولعائهم جلوا الى الطيال البعيدة عن الطريق ربما يمر الجندي فيعودون الى حقولهم »

وكانت سالمة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يبشرها بنجاح مهمتها ولكنها كانت منشغلة الذهن بشبح وقع نظرها عليه عن بعد وهو راكب على جواد وقد ساقه نحو الجهة التي ها سائران اليها وما رأها الراهب تنظر الى ذلك الشبح وجده هو التفاته اليه فلما رأت سالمة انباه الراهب للامر قالت له « ما ظنك بهذا الفارس .. »

قال « يظهر من قيافته انه من الافرنج ولا يكمننا الحكم القطعي في ذلك الا بعد رؤية وجهه واراه يقترب منا فاذا دنا رأينا وعرفناه او سأله عن حاله »

وما زال الفارس يقترب منها حتى وقعت العين على العين فإذا هو ماثم لا يظهر من وجهه الا العينان ففيما رأها الراهب فلم يرد التحية ولكنها تفرس في سالمة وثوبها وفرسها وحول عنان جواده وارتدى راجعا الى الوراء . فلما رأت سالمة ذلك منه اشتغل خاطرها وحسبت لذلك الرجوع الف حساب وخافت ان يبدو ذلك للراهب فسيبي ، الظن بها فتجددت وتنظاهرت بعدم الاكتئاث وقالت وهي تضحك « يظهر ان الرجل خاف من اثواب الربنة »

فقال الراهب وهو يظهر الاهتمام « لا ادرى يا ابني ما الذي خوفه ولكنني اعلم اني خفت رجوعه على هذه الصورة كأنه جاء للبحث عنا او عن احدنا فلما رأى ضالته عاد لا يبلغ المهمة »

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ولكنها ظلت على تجاهلها وجهت عنایتها الى الابلات مما قد ينصبونه لها من الشرارك قبل وقوعها فيه . فتظاهرت بتغيير الحديث فقالت « وهل نحن بغيدون عن بوائمه »

قال « اذا سقنا دوابنا وظللنا سائرین ربما وصلناها في صباح الغد »  
 فاستحسنست ذكره المسير ليلاً وقالت « وهل ترى المسير ليلاً ؟ » يظهر انك في  
 عجلة للرجوع الى الدير لأشغال عليك هناك — فلذا لم يكن علينا بأس من ذلك فلا  
 مانع عندى »

فقال « لست مستعجلأً واما ذكرت لك ذلك على سبيل تقدير المسافة وأما المسير  
 ليلاً فلا خطر منه علينا وخصوصاً لأنني أعرف أهل هذا الطريق ويعرفونني وزد على  
 ذلك ان الليلة مقمرة فإذا شئت نزلنا عند العشاء في دير أعرفه بجانب الطريق فتناول  
 الطعام ونستريح وننام قليلاً ثم نهض في نصف الليل ونركب توّا الى بواتيه فصلها في  
 الصبحى . واما كان من ذلك تعب عليك فافعل ما تشائين لأنني امرت ان اكون في  
 خدمتك الى حينها تسرين »

فانجذبها رأي الراهب وسرها السبيل الذي تتطرق به الى ذلك وفي اعتقادها انها  
 متى وصلت بواتيه كان لها من اسقفها ما يقيها غائلة الجوايس او غيرهم وخصوصاً لأنها  
 تحمل له توصية من أسقف بوردو ومتى دخلت القلاية او الدير الذي فيه الاسقف  
 لا يجسر أحدٌ عليها

فاظهرت انها تسار الراهب في رأيه واستحسنست ان يبيتها تلك الليلة في الدير  
 الذي أشار اليه . فساوا وسملة تتفتت الى ورائها خلسة وهي تتوقع ان ترى انساناً مسيراً بين  
 في طلبها . أما الراهب فكان مستغرقاً في صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته - قضيا بقية  
 ذلك اليوم وها يرکزان الدابتين فنابت الشمس ولم يدرك الدير المقصود وكان القمر في ربعه  
 الثالث فصار العشاء ولم يطلع بعد فشيا في الظلام وسملة تسوق جوادها وراء بغلة الراهب  
 وهي لا ترى الطريق وقد سكتا وسكنت الطبيعة ولم يكن يسمع هناك الا وقع الحوافر  
 تارة على الحصى وطوراً على العشب وقد تعب الفرس ولم يعد يستطيع العدو وأما البغلة  
 فظللت نشيطة والراهب يمسكها عن العدو لئلا تسبق الفرس

## الفصل الحادى والاربعون

المسافة طويلة

فضى بعض الليل وها فى ذلك وأبصارها شاخصة الى ما يتراءى لها من رؤوس التلال وإذا هما بنور قد ظهر على مرفق . فلما رأته سالمه ارادت ان تستفهم الراهب عنه فابتدرها قائلاً « ها اتنا على مقربة من الدير ياسيدني » ففرحت سالمه بذلك البشارة التهاساً للراحة وكادت تنسى ما كانت فيه من الاضطراب التهاساً للسرعة

وصار مسيرها صعوداً على الاكم والبلغة دليلاً ما في ذلك الظلام كأنها تسير وبين يديها المشاعل والانوار والفرس يتبعها وسالمه ممسكة بزمام الفرس خوفاً من ان تزل قوائمه فزادها ذلك تعباً . وبعد مسيرة ساعة على هذه الصورة وصلا الى سفح ذلك الجبل ولا يزال النور الذي شاهداه على نحو المسافة التي كان عليها عند ما رأياه لاول مرة . وكانت سالمه تسمح في أثناء ذلك الصعود صدى حوافر فرسها فتوهم ان فرساناً سائرين في أثرها فلم يكن يسلها في تلك الحال الا ذكر السيد المسيح ورسم اشارة الصليب . وقد أصبحت لفريط قلقها لا تخسر على الالتفات الى الوراء

واما الراهب فكان قد عاد الى الصلاة واستغرق في الدعاء وبعد قليل رأت سالمه النور يقترب منها فتحققت ائمها صارا على مقربة من الدير فتشطت ونسيت التعب ونادت الراهب قائلة « العلنا في آخر رحلتنا يا حضرة الاب » قال « وصلنا الدير يا ابني فاطميني »

ثم وصلا الى سطح مستوى بنتوي بينما عال عرفت سالمه من شكله انه دير فتحققت ائمها وصلا الى المكان المقصود ثم رأت نفسها تقترب من ذلك البناء حتى صارت بجانب الباب وقد توارى النور الذي كانت تراه عن بعد واذا بالراهب قد ترجل ومشى نحو الدير وزمام البللة في يده وهي لا تزال على فرسها حتى وقف الراهب بجانب باب الدير فامسك بحبل مدلى بجانبه وشدّه فسمع قرع الجرس ثم أطل بباب الدير من كوة على جاري العادة . وقبل ان يسمعها نداءه صاح الراهب به باللغة اللاتينية ان « افتح سريعاً »

فكان كلامه بتلك اللغة أحسن وسيلة لتعريفه ولم تمض برهة وجيزة حتى فتح الباب وخرج منه راهب طویل القامة دقيق العضل خاطب الراهب باللاتينية واستقبله فترجلت سالمه فدخلت إلى غرفة الضياف وهو يرحب بها ويسأله الراهب عن سبب تأخره حتى دخل الغرفة وقد انفرد الباب عنهم ثم عاد بشمعة مضيئة مغروسة في شمعدان من خشب عليه أثر الشمع القديم فوضعه في الغرفة وعاد ثم جاءها ب الطعام ثم بلست سالمه وقد أخذ التعب منها مأخذًا عظيمًا ونسيت ما هي فيه من الجوع فقدم لها الراهب الطعام في قصة وهو عبارة عن قطع من الدجاج المطبوخ فاكلت منه شيئاً ونفسها تطلب الرقاد أكثر من الطعام ثم فاكلت شيئاً وشربت قليلاً من الماء وتوضدت الفراش ولم توص الراهب بيقاظتها طمعاً بالراحة الالزامية وتعافت عن رغبتها في السرعة اعتماداً على ما يتراءى للراهب من افتضال الوقت

وأما الراهب فلما رآها نامت صعد إلى غرفة الباب بجلس عنده قليلاً وتحادثاً في شؤون كثيرة معظمها خارج عن موضوع المهمة التي يهم سالمه البحث فيها وفي آخر السهرة استفهم الراهب رفيق سالمه عن أقرب الطريق إلى مدينة بواته

فلما أجابه الراهب علم أنه كان على هدى من رأيه في خطبة ذلك المسير وذهب إلى فراش اعدوه له في غرفة أخرى فقام ولم يكدر يتوضد الفراش حتى أحس بالتعب وغلب عليه النعاس فاستغرق في النوم ولم ينهض إلا عند الفجر فهروي إلى سالمه فايقظها وذهب إلى مربط البغال وأحضر الفرس والبلغة فركبا وسارا يلتمسان بواته

فطلعت الشمس وهو لا يزال بين الخيال لا يريان ما وراءها وسالمه تحسب نفسها تائهة ولو لا تعويلاً على معرفة الراهب بتلك الجهات لخافت الضلال عن الطريق ووصلت عند الضريح إلى رابية أطلا منها على سهل بعيد رأياً في بعض جوانبه مدينة في منتصفها قبة عالية في قمها صليب عالمت سالمه أنها قبة كنيسة بواته فالشرح صدرها ونسيت تعبرها وقلقها وانبسط وجهها وقالت «اليست هذه بواته»

قال «نعم يا ابني هذه بواته وبعد قليل نصلها وندخلها باذن الله»

فقالت «من أين ندخلها أني أرى حولها سوراً»

قال «ندخلها من بابها الجنوبي الذي ترسيه وأمامه تلك الشجرة الكبيرة»

## الفصل الثاني والاربعون

### خطر آخر

فانشرح صدر سالمة لوصولها ونجاتها من الخطر لاعتقادها أنها اذا كانت في بوانيه لا خوف عليها . ولكنها لم تكمل تصل الباب حتى رأت جماعة على خيول بلباس الجندي الافرنجي قد خرجموا من الباب وفي مقدمتهم فارس ملثم وعلى رؤوسهم الخوذ وعلوهم الادراج وقد تقدوا السيف المستقيمة بمناطق من جلد وتحت الادراج حجب قصيرة الى الركب وقد لفوا على سوقيهم لفافة من جلد وعلقوا باكتافهم حجب البنطال وتلسموا بخمر من الحلق المشتبك ولم يظهر من وجهم الا العيون والأنف والأفواه وبعض اللحبي . فلما رأت سالمة ذلك الفارس المثلث عرفت انه جاسوس الامم شقيق قلبها لرؤيته ثم مالت ان رأته قادما نحوها والفرسان يتبعونه على عجل فازداد اضطرابها واستعانت بالله وادنت فرسها من الراهب كأنها تخami به او تنوی استفهمه عن شيء وقد امتعن لونها وتحققت الخطر المحدق بها . واذا بالفارس المثلث قد اومأ الى رفاته وأشار باصبعه اليها كأنه يقول لهم « هذه هي فاقبضوا عليها »

فاحاطوا بها وبالراهب جميعاً فسألهم الراهب عن غرضهم فقالوا له « قد أمرنا بالقبض عليكم والمسيير كما الى حضرة الدوق اود »  
قال « وما الذي دعا الى ذلك وما نحن من اهل السياسية ولا الحرب فاني راهب وهذا امرأة » أطلقكم مخطئين »

قالوا « لستنا مخطئين هيائنا طائين والا فانكمما ذاهبان كرهاً »

فلما تحققت سالمة وقوع الخطر ورأت نجاتها مستحييلة من بين يدي اوائل الفرسان تحجلت وقالت « اطلقكم تلمسون القبض على وليس على هذا الراهب فاطلقوه وها اني سائرة معكم الى حيث تشاءون ولا حاجة الى التهديد والوعيد »

فعجب الراهب من جرأتها وربطة جأشها وحدثه نفسه ان يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها ولكنها رأى بقاءه لا ينفعها وخاف لوم رئيسه فسكت ليرى ما يكون منهم فإذا بالفارس المثلث قد خاطب كبار الفرسان همساً فشار هذا الى الراهب بالاصرار واحاطوا بسالمة وساروا بها ولم يلتفتوا الى الوراء

اما هي فلما رأت نفسها في قبة الأفرنج ولا حيلة لها في النجاة تذكرت انها تحمل رسالة من اسقف بوردو الى اسقف بواتيه ثغافت اذا فتشوها ان يعثروا على الرسالة فيقع هذا الاخير تحت طائلة الغضب فاحتالت ورميَت **الرسالة** في مكان لا يراها فيه احد . ثم تذكرت المحفظة وفيها كل سرها نافقاً كل سرها خوفاً من وقوعها في ايدي او لئك الأفرنج بفرها ذلك الفكر الى ابنتها وكيف تركتها في معسكر المسلمين فطرق ذهنها للحال ميونة وما كانت تختلفه من دسائسها فترجح عندها ان ما اصابها انما كان بايعاز ميونة اذ ليس في اكيانها كلها من يعرفها او يسيء الظن بها سواها . ولكنها عادت فتذكري انها خرجت في تلك المهمة سرّاً ولم تكشف احداً بخروجها غير مريم — قضت ساعة في تلك الهواجس وهي سائرة على فرسها والفرسان محظوظون بها وفي جملتهم ذلك الجاسوس المثم . وكانت تسترق النظر اليه لعلها تستطيع معرفته لانها لورأت وجهه لأنكشـف لها سر ذلك الامر ولكنـه كان شديد الحرص على لثامـه . على انها تفرست في ثيابـه فرأـت مع كونـها بحسبـ الظاهر افرنجـية فيظهرـ من تحت رداءـه القصـير ان باـقـ الشـوب ليس اـفرـنجـياـ . ورأتـ ما انـكـشـفـ من سـائـيـه اـسـمـ اللـوـنـ ولوـنـ الـافـرـنجـ ايـضـ مـشـربـ بـحـرـةـ فـتـحـقـقـتـ اـنـ جـاسـوسـ منـ خـدـمـ مـيـونـةـ ، فـقدـمـتـ لـاـنـهاـ لمـ تـكـشـفـ اـمـرـهـ لـلـعـربـ لـيـجـوـاـ مـنـ جـبـائـهـ . وـاصـبـتـ مـنـ الجـهـةـ الـأـخـرىـ تـخـافـهـ عـلـىـ المـسـلـمـيـنـ لـثـلاـ تـوقـعـهـمـ فـيـ شـرـاـكـهـ اوـ تـفـسـدـ اـمـرـهـ فـيـذـهـبـ سـعـيـهـ فـيـ تـجـاحـيـمـ اـدـرـاجـ الـرـيـاحـ . وـوـدـتـ لـوـاـنـهاـ تـسـطـيـعـ اـبـلـاغـ ذـلـكـ اـلـامـيرـ عـبـدـ الرـحـمـنـ فـتـاسـفـتـ لـاـنـهـ تـرـكـ حـسـانـاـ فـيـ الدـيـرـ وـلـاـ تـدـرـيـ معـ ذـلـكـ هـلـ شـيـ جـرـحـهـ اـمـ اـصـابـهـ سـوـءـ بـسـبـيـهـ . وـتـصـورـتـ اـذـ فـشـلـ المـسـلـمـوـنـ كـيـفـ يـكـونـ حالـ اـبـنـهـاـ وـوـحـيدـهـاـ فـتـرـأـكـتـ عـلـيـهـاـ الـهـواـجـسـ وـعـظـمـ الـاـمـرـ عـلـيـهـاـ وـغـلـبـهـاـ الـيـاسـ فـلـمـ تـفـاكـلـ عنـ الـبـكـاءـ خـلـاسـةـ . فـلـمـ بـكـتـ خـفـ بعضـ ماـ بـهـاـ وـلـكـ الـاـمـرـ مـاـ بـرـحـ عـظـيـماـ عـلـيـهـاـ

ومـاـ زـالـواـسـائـرـينـ بـضـعـ سـاعـاـفـ وـسـالـمـةـ لـتـهـيـبـ مـنـ مـقـابـلـةـ الـكـوـنـ اوـ لـشـلاـ يـعـرـفـهـ فـيـكـبـرـ جـرـمـهـ عـنـهـ وـيـكـونـ ذـلـكـ خـاتـمةـ الـمـصـائبـ . فـلـمـ كـثـرـ مـشـاغـلـهـ وـهـوـاجـسـهـ اـخـذـ الـاـمـرـ يـهـوـنـ عـلـيـهـاـ وـهـوـ لمـ يـهـنـ حـقـيقـةـ وـلـكـ اـنـسـانـ اـذـ وـقـعـ فـيـ مـصـيـبـةـ اـسـتـعـظـمـهـ وـكـادـ يـنـوـهـ تـحـتـ ثـقلـهـ فـاـذـ تـرـأـكـتـ عـلـيـهـ الـمـصـائبـ سـاعـدـهـ الـيـاسـ عـلـىـ اـحـتـهـاـ . فـكـمـ مـنـ اـرـمـلـةـ كـذـفـ النـاسـ يـحـسـبـوـنـهـاـ تـمـوتـ سـاعـةـ مـوـتـ زـوـجـهـاـ فـلـمـ مـاتـ لـمـ تـمـتـ وـلـكـنـهـاـ اـعـظـمـتـ الـمـصـيـبـةـ فـعـزـزـهـاـ النـاسـ بـيـقـاءـ النـجـاحـهـاـ ثـمـ اـصـبـتـ بـواـحـدـ مـنـهـمـ ثـمـ بـآـخـرـ فـأـخـرـ فـفـرـغـتـ حـيلـ النـاهـيـ فيـ تعـزـيـتـهـاـ وـلـكـنـهـمـ رـأـواـ اـنـسـهـمـ فـيـ غـنـيـ عنـ ذـلـكـهـاـ اـسـتـولـيـ عـلـىـ تـلـكـ الـارـمـلـةـ الـثـاـكـلـةـ مـنـ الـيـاسـ كـانـ الـقـلـبـ يـنـدـمـلـ مـنـ تـوـالـيـ الـاحـزـانـ اوـ اـنـهـ يـعـتـادـ الـمـصـائبـ فـيـسـتـخـفـهـاـ ، وـهـكـذاـشـأـنـ مـنـ تـحـيـطـ بـهـ

المشاكل تراه عند وقوعه في المشكل الأول اكثرا ربها كاً وخوفاً مما يصير اليه حاله عند تعددها — فكانت سالمة كلما تعددت مشاكلها هونت على نفسها

## الفصل الثالث والاربعون

### الدوق اود

وفي اصيل ذلك اليوم اشرفوا على كرم وراءه سهل واسع رأى في منتصفه قصراً كبيراً حوله اثنيام وينتها الناس يجرون عجيجاً فوق القصر علم حلاً انه للدوق اود فتحققت ائها ووصلت الى المكان المقصود وان القصر المذكور لبعض اغنياء البلاد هجره اهله في جملة ما هجروه فنزل فيه اود واقام رجاله في الخيام حوله وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا الى باب القصر فترجلوا وترجلت فسلوها الى الحرس الواقف بالباب مدخلوا بها الى القصر وهي ملتفة بشورها الاسود ومقنعة بمجارها الاسود ، فمشت بقدم ثابتة بين الحرس حتى تجاوزت باحة البيت الى قاعة وقف الحرس يبابها ودخل احدهم ثم عاد وأشار الى سالمة ان تدخل فدخلت الى قاعة يظهر من سعتها وماماعي جدرانها من الرسوم الجميلة ان اصحاب ذلك البيت من اهل اليسار ولم تر في ارض القاعة طائف ولا مقاعد غير ما كان يحمله الجند في سفره ، وشاهدت على كرسى في وسط القاعة رجلاً نحيف البدن منتفع اللون اشهقر الشعر اشيبه ازرق العينين جاحظهما غائر الفم بارز الحية منخسف الخدين بارز الوجنتين وعلى رأسه قبعة عناية اللون مزركشة بالذهب وفي مقدمها فوق جبينه حلية مرصعة بالاماں والياقوت بشكل الصليب وعلى كتفيه بردة مزركشة بالقصب مساوية اللون تغطي انواعه ، وتحت البردة جبة قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب على اشكال بعض الطير ، وحول ساقيه افافة من جلد ملتون له اهداب من الفرو ونعاله مشدودة الى قدميه بسيور من نسيج الشعر المتين وقد جلس على كرسى ذي جناحين اسند زندىه اليهما . وقد ظهر من تحت البردة سلسلة ذهبية مدلاة من عنقه وفيها صليب من الذهب . فعلت سالمة انه الدوق اود لانها كانت تعرفه جيداً وتعرف بعض الذين بيان يده من امراء مجلسه وكان اود قبل دخول سالمة قد تناول من بعض جلسائه قدحاً فيه خمر وهم بشربه نما

امر بادخالها وضع القدح على المائدة امامه بين الاقداح الاخرى ومسح يده بلحيته ثم جعل يسرحها بانامله . فدخلت سالمه وهو على تلك الحالة فلما وقع نظره عليها ظهرت البغنة في عينيه ولو لا اصفار وجهه الطبيعي لبدت ايضاً في امتداع ثونه . ولم تكن سالمه اقل تأثراً منه ولكنها كانت قد تجلدت وذهب بعنتها . فوققت بين يديه وخرج الحرس ثم اومأ اود الى اهل مجلسه خرجوا جميعاً وبقي هو وسالمه فلما رأت سالمه نفسها وحدتها زادت تهيباً فاذا هو قد اشار اليها ان تجلس فجلس على كرسي بين يديه جلوس متحيز للنهوض . نفاطها اود بالافرنخية قائلاً « المدا الحد بلغ منك الغبظ ؟ »

فاجابت وهي تتجاهل « واي غبظ يا مولاي ؟ »

قال « اطنين اني نسيتك يا اجيلا ؟ »

فلما سمعت سالمه لفظ « اجيلا » ارتعت فرائصها لانها لم تسمع احداً يناديها بهذا الاسم من زمن مدید ولكنها تجلدت وقالت « اظن مولاي واهماً في شأني ولعله يريده امراة غيري »

قال وهو يضحك « اطنني واهماً .. اذا كانت عيني واهمة فهل تظنني قلي واهماً ايضاً ؟ هل انسى اجيلا وقد جرحت قلي واساءت الى سلطاني ولكنها اساءت الى نفسها ... لم يكن من التعلق والحكمة ان تقلعي عن ذلك الجنون ؟ .. أليس من العار عليك وانت مسيحية مولودة في بيت من اكبر بيوت المسيحيين ان تتصاري قوماً غرباء لا دين لهم ولا ذمام وتساعدتهم على اهل ديانتك .. »

قالت وهي لاتزال مطرقة « لم افهم يا مولاي مغزى كلامك كذلك تناطح امرأة غيري فان الاسم الذي ناديتها به ليس هو اسمي واما انا اسمي سالمه ... » فاغرق اود في الضحك حتى سمع قهقهته كل من في القصر ومدّ يده الى المائدة فتناول قدحه وشربه وهو ينظر الى سالمه وهي لاتزال مطرقة . ثم ارجع القدح فارغاً ومسح فمه بيده وهو يقول « ما انا والانكار واللثبات فأخبرني يا سالمه ( كما تسمين نفسك ) ما الذي جئت من اجله الى هذه المدينة وما الذي فعلته عند اسقف بوردو ؟ »

فادركت سالمه انه مطلع على شيء من امرها فقالت « وما الغرابة في زيارة امرأة مسيحية لاسقف كنيستها ؟ »

قال « لا غرابة في الزيارة ولكنني اسألك عما دار بينكما وعما حملك على الذهاب اليه

قالت « لا يخلو ان يكون قد دار بيّني وينه حديث طويل بشؤون سرية لا تهم أحد لان جماعة الاكليروس خزانة اسرارنا »

قال « لا أساً لك عن اعترافك بهـ ما يتعلق بشؤونك . ولكنني اساً لك عهادـ دارـ بيـتك وـ يـنهـ بـشـأنـ الـافـرنـجـ وـالـعـربـ وـالـحـربـ وـالـسـلمـ »

## الفصل الرابع والاربعون

### التهديد

فلا سمعت تصريحـهـ لمـ يـقـعـ عـنـدـهاـ شـكـ فيـ اـطـلـاعـهـ عـلـىـ سـرـهاـ فـاـيـقـنـتـ بـالـوقـوعـ وـتـحـقـقـ يـأـسـهـاـ مـنـ النـجـاهـ فـاسـعـدـهـ الـيـأسـ عـلـىـ الجـرـأـةـ فـقاـلتـ «ـ يـظـهـرـ اـنـكـ عـالـمـ بـاـ دـارـ بـيـنيـ وـيـنهـ فلاـ حـاجـةـ إـلـىـ سـوـالـيـ »

قال وهو يظهر الغضب « اهـكـذاـ تـجـاـبـيـنـ الدـوقـ اوـدـ ؟ـ ..ـ اـبـشـلـ هـذـهـ الجـرـأـةـ تـخـاطـبـيـنـ دـوقـ اـكـيـتـانـياـ ؟ـ ..ـ »

فظلت سالمـةـ سـاـكـتـةـ وـلـكـنـهاـ اـبـسـمـتـ اـبـسـامـةـ فـهـمـ اوـدـ مـنـهـ ماـ هـوـ اـصـرـحـ مـنـ الـجـوابـ فـاـبـسـمـ وـكـانـهـ نـدـمـ عـلـىـ ذـكـ التـهـيدـ فـقاـلـ «ـ تـلـكـ اـيـامـ مـضـتـ وـقـدـ اـرـدـنـاـ اـرـجـاعـكـ إـلـىـ مـثـلـهـ فـاـيـتـ ..ـ ..ـ فـاسـأـتـ إـلـىـ نـفـسـكـ وـإـلـىـ اـبـنـتـكـ وـلـاـ ذـنـبـ لـهـ وـاـنـاـ الذـنـبـ ذـنـبـ ..ـ وـلـكـنـكـ اـرـدـتـ اـنـ تـهـوـيـ هـيـ الـذـينـ هـوـيـنـمـ اـنـتـ وـانـ تـبـعـ دـيـانـتـهـ وـكـيـسـتـهـ جـرـاـفـاـ وـانـ يـكـونـ نـصـيـبـهـ مـنـ اوـلـئـكـ الـمـسـلـيـنـ ..ـ ..ـ بـالـحـقـيـقـةـ اـنـيـ لـمـ اـفـهـمـ سـرـ هـذـاـ العـنـادـ فـيـكـ ..ـ ..ـ فـاـيـقـنـتـ سـالـمـةـ اـنـ اوـدـ مـطـاعـ كـلـ شـيـءـ كـانـ مـعـهـ فـيـ خـيـرـ عـبـدـ الرـحـمـنـ لـاـ قـلـتـ اـلـيـ سـرـهـاـ .ـ وـاـسـتـغـرـبـتـ اـطـلـاعـهـ عـلـىـ تـلـكـ الـاسـرـارـ وـلـمـ تـجـدـ لـهـ خـيـرـاـ مـنـ السـكـوتـ اوـ الـانـكـارـ فـقاـلتـ «ـ اـرـاكـ لـاـ تـرـازـ تـخـاطـبـيـ بـالـلـغـازـ وـالـاـشـارـاتـ وـالـتـلـيمـ وـالـتـعـرـيـضـ فـالـذـيـ تـرـيدـ اـنـ تـعـقـدـهـ فـيـ اـعـقـدـهـ وـمـاـ تـرـيدـ اـنـ تـفـعـلـهـ اـفـعـلـهـ ..ـ ..ـ »

قال «ـ الـذـيـ اـبـرـيدـ اـنـ اـفـعـلـهـ بـيـاـجـيلـاـ سـيـرـيـنـهـ رـأـيـ العـيـنـ .ـ وـلـوـ اـظـهـرـتـ هـذـهـ الـوـاقـاـةـ فـيـ مـعـلـسـيـ وـبـيـنـ اـرـبـابـ حـكـومـتـيـ لـمـ اـسـتـطـعـ اـغـصـاءـ عـنـ قـتـالـ وـلـكـنـيـ اـسـاحـكـ الـآنـ اـكـراـماـ لـلـحـبـ الـقـدـيمـ .ـ لـمـاـ الـآنـ فـقـدـ تـحـوـلـ ذـكـ الحـبـ إـلـىـ الغـضـبـ وـالـانتـقامـ وـيـكـنـيـ اـنـقـاماـ مـنـكـ اـنـ اـرـبـكـ جـبـوـتـ مـسـعـاـكـ .ـ فـمـتـ رـأـيـ الـارـضـ مـضـرـبـةـ بـدـمـاءـ اوـلـئـكـ الـعـربـ وـالـبـرـاـبـرـ كـثـرـ مـخـيـرـةـ اـنـ تـمـوـيـ حـسـرـةـ اوـ اـنـ تـقـتـالـ بـالـسـلاحـ الـذـيـ تـخـنـارـيـنـهـ »

قال ذلك ولحيته ترقص على صدره وعيناه قد كلماهما الاحمرار من شدة الحنق مع الكظم — لأن الإنسان إذا غضب ولم يشف غضبه بالضرب أو نحوه تعاظم تأثيره وقد يحاول أخفاء عواطفه بالكظم ولكن العينين تبيحان بسر القلب على حد قول الشاعر عيناك قد دلتا عينيَّ منك على أشياء لولها ما كنت رائياً  
 والعين تعلم من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعادتها  
 فلما رأت سالمة غضب أود وتصريحة بما في قلبه من الغيظ مع علمها أنه فاعل معها ما يريد لانها أُسيرة في يديه رأت السكوت أولى لعلها ان ما توهنه أود في نفسه من الاقتدار على العرب محال وقد غلبوه في عدة مواقع  
 فلما رآها أود لا تزال ساكتة ازداد هو حنقاً فقال لها « أراك لا تزالين  
 صامتة » ٠٠

فقالت وهي تظهر التجلد وعدم الاكتئاث « وماذا عنى ان يكون جوابي لامر حوله الجند والاعوان والعدة والسلاح يهدى امرأة وحيدة لا نصير لها ولا سلاح في يدها فالذى ترى ان تفعله ايها الدوق أفعله » ٠٠٠  
 وهم أود ان يخاطبها فسمع قرع الباب قرعًا عنيفًا فاستغرب ذلك لعلمه ان اعوانه لا يجسر أحدٌ منهم على اقلاق راحتة في مثل تلك الحال فهرض بنفسه مسرعًا الى الباب وطيلسانه يجهش وراءه وقد حمي غضبه ففتح الباب فاستقبله احد رجال خاصته فصاح أود قائلاً « ما الذي حملكم على هذا القرع العنيف واتم تعلمون انني في شاغل هنا »  
 فقال « العفو يا مولاي انا فعلنا ذلك باشارة هذا الرسول فانه قادم من سفر ومعه رسالة مستعجلة في غاية الاهمية او صاه مرسلاها ان يسلّمها الى حضرة الدوق حال وصوله الى معسكره واذا كان نائماً فليوشه من نومه » ٠٠  
 فبعث أود وقال « اين الرسول دعه يدخل »

## الفصل الخامس والاربعون

### الكتاب

فدخل رجل عليه لباس الافرنج ولكن وجهه يدل على انه من برابرة افريقيا فلما شاهدته سالمة عرفت انه من جند المسلمين وقد جاء متذكرًا . اما هو فلما دخل مذ يده الى حييه واستخرج منه لفافة دفعها الى اود فتناولها وتراجع الى كرسيه فجلس عليه وفض اللافافة واذا فيها منديل عليه كتابة فأخذ في قراءتها حتى على آخرها تم عاود قراءتها ثانية والبقة ظاهرة في وجهه

وكانت سالمة تتعاير عن ملاحظة حركات اود وتسترق النظر الى الرسول فاذا هو ايضاً يسترق النظر اليها و كانه عرها وأما هي فعرفت انه من رجال البربر . ثم ما لبثت ان رأت في عينه حولاً شديداً فتذكرت انها رأته في معسكر عبد الرحمن فادركت مصدر تلك الرسالة وودت لو يتاح لها التخلص من ذلك الاسر لعلها تستطيع الفيام بخدمة للعرب أما الدوق اود فيعد ان فرغ من تلاوة الكتاب ثانية تظاهر بالاطراف واعمال الفكرة وهو ينظر خمسة الى سالمة يراعي حركتها وما قد يbedo في وجهها فرأها بالغ في التجاهل وأحب ان يعود الى البحث في شأنها لكنه رأى في ذلك الكتاب ما يدعو الى سرعة العمل به فأواما الى الرسول نفرج ثم صفق فدخل اليه بعض غلمانه وبيده حربة ووقف متأدباً . فاشار اليه اود ان يأخذ سالمة الى غرفة منفردة من غرف القصر يحبسها فيها ثم التفت اليها قائلاً « اذا كنت لا تزأين على بيتك وتجاهلك فاذهي الى حيث يقودك هذا الحارس وسرى في شائك »

فهضت سالمة ومشت ولم تجد جواباً . فسار بها الحارس حتى خرج من باحة القصر الى دهليز استطرق منه الى باب ادخلها فيه الى غرفة ليس فيها الا حصیر وطنفسة و لها نافذة تطل على معسكر الافرنج . فتركها الحارس هناك واغلق الباب عليها فظلت هي واقفة تنظر الى ما تطل عليه النافذة من الحيام المنصوبة وبينها الرجال في ذهب و اياب لقضاء حوالتهم . حتى اذا تعبت من الرفوف جلسست على الطنفسة وقد عظم عايهها ذلك السجن مع ما يترتب عليه من عرقه مساعيها وودت لو انها تطلع على نص تلك الرسالة لتعلم ما دبروه

ها او لجند العرب ولكنها قالت في نفسها « اذا لم يكن من سبيل الى خروجي من هذا المعسكر فما الفائدة من الاطلاع »

فظلت على تلك الحال الى الغروب وهي لم تدق طعنة اماماً وكانت لفطره هواجسها لا تشعر بمرور الوقت . فلما غابت الشمس اسودت الدنيا في عينيها وتذكريت ابنتها وميمونة وعبد الرحمن فاتته تلك المحفظة قتعهدتها فاذا هي لا تزال محفوظة تحت انوارها لكنها أصبحت لا ترى فائدة منها وهي في تلك الحال بعيدة عن كل نصير وخصوصاً خادمها وقد تركته بين حي وميت . فغلب على ظهرها انه لم ينج من تلك الحمى لانها أصبحت بعد وقوعها في ذلك الشراك لا تتوقع غير توالي التحوس — والانسان اذا اصابته نوبة انصرف ذهنه الى استهدافه لسواتها وادا صادف توفيقاً في عمل خيل له ان القدار ابرمت معه عهداً ان لا تأتيه بغير ما يرضاه

فاشتغلت سالمة بذلك الهواجس عمما في ذلك القصر من ضوضاء الجنديين خارج وداخل وعن غوغاء الناس في المضارب وخصوصاً ساعة الغروب وقد نفح في البوقي يدعوهم الى الطعام

## الفصل السادس والاربعون

### الطارق

وهي مشتغلة في ذلك وادا بخرمشة في مكان القفل بالباب فاجفلت ونظرت الى الباب فرات من ثقبه نوراً في الخارج ثم فتح الباب ودخل منه شاب بشبّه بلباس الافرنج في احدى يديه شمعة مضيئة وبالاخري قصعة مغطاة بشيء كالخبيز فلمعت انجم جاؤها بالطعام فاحست بالجوع حالاً ولكنها لم تمالك ان صاحت « من انت ؟ »

فاجابها الشاب بصوت هادئ « قد جئتني يا سيدتي بطعمان باسم سيدني الدوق وقد اوصاني ان اعزم عليك لتأكلني من هذا الطعام فانه من طعامه مالخاص » فاستغربت سالمة هذا الاصحاح منه بعد ما دار بينها وبينه ولكنها سكتت وهي تنتظر ما يفعله الشاب . فاذا هو قد وضع القصعة على الطنفسة ورفع الخبيز عنها فرات تحته شيئاً

من قبيل الطيور المطبوخة وقد فاحت منه رائحة يشتتها الشبعان فكيف بالجائع ولكنها امسكت نفسها مخافة ان يكون في الطعام سم او نسمة وان كان الجوع يدفعها الى الاكل . فرأت ان تنظر في وجه الغلام لعلها تتوسم فيه ما يشجعها او يخوفها فرفعت بصرها اليه والشمعة لا تزال في يده وقد وقعت اشعتها على وجهه فاذا هو مختلف في سخنته ولون بشرته عن اهل تلك البلاد مع ان كلامه افرينجي . فتبينت تقاطيع وجهه فاذا هو اسود العينين براهمي خفيف العضل اسمر البشرة خميف التجة صغير العارضين من حداثة . ويدل بمحمل ملائم على انه ليس افرينجي . فلم تستغرب ذلك لعلها بما يدخل بلاط الملوك في تلك الايام من الاسرى والمالية من ام مختلفة . فتفربت في وجهه لترى ما يزيل الشبهة التي لا تستتها من امر الطعام فلم تر في وجه الغلام ما يدعو الى الخوف لكنها ارادت ان تتحقق ذلك من سباع كلامه فقالت « ما اسمك ايها الشاب ؟ »

قال « اسمي رودريك يا سيدتي »

فلا سمعت ذلك الاسم خنق قلبها واجملت وتصاعد الدم الى محياها بغنة لكنها انتهت لنفسها حالاً وتحولت نظرها الى القصعة ومدت يدها الى الخبز وتشاغلت بقطيعه بهدوء وسکينة والغلام واقف وقد لحظ منها ذلك الاضطراب فلم يفهم له سبباً سوى انها تحتاج الى امر وقد منعها الحياة من طلبه فانتبه للحال انه لم يأتها بالماء للشرب فابتدرها قائلة « اذنك تحتاجين الى الماء »

ثم وضع الشمعة على البساط وخرج وقد ترك الباب مفتوحاً ففهمت سالمة انه يبني  
الرجوع حالاً

ولم تمض هنئية حتى سمعت خفق نعاله خفقاً سريعاً ثم دخل وبيده كوبه فيها ماء وضعها امامها وهو يبتسم وكان قد سكن اضطرابها فنظرت اليه فاحست بارتياح الى رؤيته واستأنست به فشكرت عنايتها وودت لو انه يتولى امرها دائمأ

اما هو فوضع الكوبه وخرج واغلق الباب وراءه غلقاً خفيناً كأنه عازم على الرجوع فتناولت سالمة بعض ما في القصعة وشربت الماء وهي تفكري ما آنسته في ذلك الغلام من المؤانسة ولبست بعد فراغها من الطعام تنظر رجوعه . وبعد قليل سمعت خفق نعاله وهو يمشي الموياناً ثم دخل وهو يحمل غطاء ثقيلاً ووسادة فالقاها على الارض وهو يقول « هذا غطاء ووسادة لاجل المرقاد قد اوصى مولاي الدوق بهما لك »

فتناولتهما وقالت له « اشكر عنايتك ايها الشاب وارجو ان استطيع مكافأتك وعسى

ان لا يتولى امري من اهل هذا المعسكر سواك وان كان في ذلك ثقلة عليك . . . فاجابها رودريك وهو يبتسم « وانا ارجو ان لا يتولى ذلك سواي لاني اخاف ان يتولاه من لا يعرف قدرك فلا يحسن خدمتك »

فتوجهت سالمة من ذلك انه عارف ببعض شانها فتجاهلت وسكتت . اما هو فانه اخذ القصعة والکوبه وتحول نحو الباب وهو يقول « وسترياني رهين اشارتك وسابذل جهدي في خدمتك فليطمئن بالك » ثم اغلق الباب وخرج

وبعد خروجه احست سالمة بارتياح انساها بعض ما بها من الاضطراب فاقترشت بعض الغطاء وتغطت بياليه وتوسدت تلقس الرقاد وكانت قد احست بالتعب على اثر ما قاسته في ذلك اليوم وما قبله فغلب عليها النعاس فنامت نوماً عميقاً ولما افاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها في كل ما تحتاج اليه وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت انه بعيد الشبه عن الافرنج وقرب الملامح من العرب ولكنها رأته يتكلم الافرنجية مثل اهلها واسمها افرنجي فعزمت على استطلاع حقيقته بعد ان توأنس منه وشوقاً بها مخافة ان تبدد منها كلة اذا بلغت اود زادت نقمته عليها

## الفصل السابع والاربعون

### السفر

قضت سالمة في ذلك الاسر اياماً وهي تراقب حال اهل القصر بالنظر اليها لعلها تجد سبيلاً للفرار فاذ اهم شديداً العناية في خفارتها كثيرة التضييق عليها وكان جماعة منهم موكلين بحراستها ومراقبة حركاتها فعملت ان اود مع تغييره عنها واهاله مقابلتها شديد الحرص على استبقائها في ذلك السجن

فلا طال مكثها على تلك الحال ملت الاقامة وتزايد قلقها على جند العرب لعلها انهم في انتظارها على مثل الجمر ولكنها لم تكن ترى بأساً من تاخرها عنهم لعلها انهم فائزون في فتحهم حتى يبلغوا بواليه ثم هي لا تخاف عليهم اود وجده لعلها انهم غلوبهم غير مرة على انها كانت تخاف على مریم من غدر میونة . ثم هي رجحت ان المكتاب الذي جاء به ذلك الاحوال انما هو من میونة ولكنها لم تفهم خواه تماماً فلابتنت فرصة لاستطلاع ذلك

من رودريك

واصبت ذات يوم فسحت ضوء الجندي على غير العتاد فاطم من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام وقد أخذوا في التأهيب للسفر فاشتعل خاطرها وأوجست خيبة من ذلك الانقال . على أنها رأت في ذلك سبلاً مخاطبة رودريك في ما قد يكشف لها شيئاً من ذلك السر : فلما جاءها في ذلك الصباح ومه الطعام ابدرته قائلة « مالي أراك تناهبون للسفر هل انتم مسافرون جميعاً ام بقي بعضكم هنا »

قال « اتنا مسافرون جميعاً وقد أمر حضرة الدوق ان تسيري معنا »

قالت « والى اين ؟ »

قال « الى تورس على نهر لوار »

فلا سمعت قوله بفتت واستغربت بذلك الانقال لعلها ان النهر المذكور هو آخر حدود أكيتانيا والبلاد التي وراءه تحت سلطة شارل دوق اوسترايسيا . وهي تعلم ايضاً ان بين اود وشارل منافسة ومناجمة على النفوذ وربما كان شارل أكثر حرضاً على صدّ اود عن بلاده من حرص العرب على فتح أكيتانيا فقالت « هل انت على يقين من ذهابهم الى تورس ؟ »

قال « نعم يا مولاتي وقد سمعت الاوامر الصادرة لنا بالذهاب »

قالت « ألا تعلم بما بين الدوق اود ودوق اوسترايسيا من المنافسة ؟ »

قال « بلى . ومن يجهل ذلك ؟ »

قالت « فما الذي يفعله الدوق اود في تورس اذا ألا يخاف عدوه شارل ؟ »  
فلا سمع رودريك سؤالها ثم وتلفت نحو الباب كأنه يمحاذر ان يراه احد ثم نظر الى سالمه وهو يقول بصوت مخفي « ان لذلك سرّاً لم يطلع عليه الا نفر قليلون من هذا الجندي وأخاف ان بحث به ان يتحقق اذى »

فتوسمت في وجه الغلام خبراً مهما فنافت نفسها لسماعه فتشجعته وقالت « ما الذي تخافه من اسيرة سجينه ربما لا يفهم ما تز هذا الخبر شيء ولكنني احببت الاطلاع على هذا السر لغراحته وقد جرأني على هذا السؤال ما شاهدته من موائستك ولطفك في اثناء هذه المدة . ومع ذلك لا اظنك احرص على مصلحة هذا الجندي مني لانك على ما يظهر لي لست منهم .. »  
فما قالت سالمه ذلك حتى رأت البغتة بدت في وجه رودريك وقد تحولت سخنته الى غير ما كانت عليه فتنهد وقال « لقد ادهشتني فراستك في لآنك اطمعت في أيام

على ما لم يستطع كشفه أحدٌ من أهل هذا المُعْسَكِ في أعوام ٢٠٠  
فاستبشرت سالمٌ بذلك التليح وقالت « يظهر لي أنني قد اصبتُ الفراسة فكلا أنا  
إذا نرمي إلى غرض واحد فأخبارني عما حمل أود على الذهاب إلى تورس ولا تخف وارجو  
أن يكون لك من وراء ذلك خير »

فقال « أما السبب في هذا الانتقال فهو أن العرب حاربونا ونحن قرب بوردو فغلبونا  
وقد بلغنا الآن انهم قادمون إلى هنا »

فقطعت كلامه وقد سرّها أن غيابها لم يُؤخر العرب عن التقدم في النيلج وايقنوا أنهم  
لم يلقو في طريقهم كبيرة مدافعة من أهل البلاد فقالت « فالافرج إذاً يطلبون تورس  
فراراً من العرب »

قال « لا يخلو الأمر مما ذكرت ولكنهم يطلبون تورس للدفاع وليس للفرار »

قالت « وماذا يدافعون وعدوهم هناك أشد وطأة عليهم من العرب »

قال « قد كان كذلك من قبل ولكنه أصبح الآن ظهيراً لهم »

فقالت « وكيف ذلك والمنافسة متكتنة بينهما لأن كلّاً منها يطلب السيادة  
على الآخر بعد أن رأى انتحال الدولة المرونجية التي كانت تجمعهما تحت سيطرتها . وقد علما  
ان الفائز منهما ستكون له الدولة والملك على الدوقيات كلها فزادت المنافسة بينهما حتى يتنافى  
كل منها انه يهلك الآخر »

قال « هذا هو الواقع فعلاً وهذا الانقسام هو الذي مكن المسلمين من فتح إيتانيا  
حتى وصلوا إلى هنا وإذا قطعوا نهر لوار أصبحت بلاد في أوستراسيا في قبضتهم على أهون سبيل  
لأن أساقفتها نافقون على الدوق شارل نعمة شديدة وقد يحرضون الشعب على خلعه فإذا  
 جاءهم العرب وهو في تلك الحال ساعدوهم على الفتح »

فلا سمعت سالمٌ بذلك خفق قلبه شروراً بما ترجوه من فوز العرب هناك ولكنها  
لم تتحقق بصدق تلك الرواية فقالت وما هو سبب نعمة الأكابر ورس على شارل وهو  
قائد عظيم »

قال « السبب يا سيدتي أنه استخرج أموالهم وبعض على أملاك الأديرة وفرقها في  
جنده واهان بعض الأساقفة بالقصاص وفضل بعض صغار الكهنة عليهم ولا يخفى عليك ما يجري  
إليه ذلك »

فلا تحققت غضب الأساقفة على شارل عادت إلى الاستفهام عما دعا إلى نصرة شارل

لاؤد فقالت « ولكنني لم آفهم كيف صار شارل ظبيلاً المدوق اود .. فهل فعل شارل ذلك من تقاء نفسه خوفاً من الاساقفة؟ »  
 فقال بودريك « كلام يا سيدتي ولكن الدوق اود لما ايقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده لم ير بدأ من استئصال عدوه شارل .. »  
 فقالت وقد بقى « وكيف استنصره وفي استئصاله خروج هذه البلاد من يده لامحاله »

قال « لا اظنه يجهل ذلك ولكن قد فعله مضطراً بحكم الضرورة ففضل ان تأول البلاد الى امير مسيحي افضل من ان تأول الى قوم غرباء ديننا ووطننا وعلمه مطمئن لما يعلم من اشتغال شارل بنقمة الاساقفة - ثم اني لا اظنه استنصره الا مدفوعاً بشورة بعض ثقاته »

قالت « ومن يجرأ على هذه المشورة من رجاله »  
 قال « المشورة لم تأته من هذا المعسكر ولكنني علمت بكتاب جاءه في اليوم الذي سجنك فيه . وفي ذلك الكتاب تحرى بضم على استئصال شارل والظاهر انه اثر فيه كثيراً فاما قرأ الكتاب بعث وفداً الى شارل يطلب اليه مساعدته في هذه الحرب فاتاه الجواب بالایجاب »

## الفصل الثامن والأربعون

### الاستطلاع

فلا سمعت سالمة قوله تحققت ان الحرض على ذلك انا هو ميونة فاسمعاذهت بالله ولكنها كظمت وتجددت لانها لم تكن ثق ببودريك وهو لم يكشفها بحقيقة امره فاحببت قبل الافاضة في الموضوع ان تستطلع الحقيقة فقالت والاهتمام ظاهر في وجهها « اراك بارودريك قد كشفتني بامور ذات بال مما يدل على ثقتك فيـ فاعلم ان ثقتك في معملها واذا كنت تعتقد اخلاقي لك كن على يقين اني باذلة نفسي في مكانك على اني لا ازال اعمل نفسي بالاطلاع على حقيقة امرك لاني على ثقة انك لست من اهل هذا المعسكر »

قال «لا ريب عندي في اخلاصك ولو لا ذلك ما خاطبتك بما خاطبتك به والامر الذي ثقنيه في باطن سرك هو الذي امتهن انا ايضاً وهذا ما جرأ في على هذه المكاشفة» فادركت سالمه انه على غرضها فازدادت ميلاً الى استطلاع حقيقته فقالت «فاطمه على حكاياتك لتعاون على النجاة باذن الله ..»

قال «ولكنني اطلب اليك ان تخبريني عن امر لاحظته ذلك في اول ساعة خاطبتك فيها .. هل اسالك عنه؟»

قالت «وما هو ..»

قال «لما سأله عن اسمي وعلمت انه رودريك رأيت في وجهك اثر البغثة فلا ادرى كان ذلك بسبب اسمي او غيره ..»

فتظاهرت سالمه بعدم الکتراث وقالت «لا اذكر اني بعثت لشيء من هذا القبيل» فصدقها واقتصر

اما هي فابتلت ساكتة تنتظر جوابه على سؤالها عن حكايته فرأته يتلفت نحو النافذة كانه يراقب حركة او يتوقع قادماً فالتفتت هي فلم تر غير الجندي وهو لا يزالون في اهتمامهم للحزم والرزم والاستعداد للرحيل فحولت بصرها الى رودريك فرأته يهم بالجواب وهو يتردّد فقالت «يظهر انك تحاذر شيئاً»

قال «كلا يا مولاني ولكنني اخاف ان يدعي الوقت وادعى لاسنر قبل الفراج من حكايتها لأنها طويلة»

قالت «قل لي بالاختصار إذًا هل تعرف العربية»

قال «كلا»

فتوجهت سالمه انها اخطأت الفواضة فيه لأنها كانت توهمت من ملامحه انه عزيبي فقالت «هل تكلم لسانًا غير الافرنجي»

قال «اعرف اللسان البلغاري وهو لسان حداثي»

قالت «فاذًا انت بلغاري الاصل ... ولكن ملامحك لا تدل على ذلك»

قال «لست بلغاريا ولكنني ريت في بيت رجل من البلغار»

قالت «وكيف تعلمت لسان الافرنج ويظهر انك تتكلمه حسناً كانك تعلمته من حداثتك»

قال «تعلمته من طول الممارسة لان الرجل البلغاري الذي رباني باعني بعض الافرنج

ثم صرت الى الدوق اود بالمقايضة »

فاستغربت ما سمعته ورأيت اسئلتها لم تجدر نفعاً وكانت تتوقع بها قرب الوصول الى الغرض فاذا هي تبتعد عنه فعمدت إلى الاختصار والتصریح فقالت « قل لي اين ولدت »

قال « ولدت في طليطلة »

قالت « انت اذا اسباني »

قا « كلاً »

قالت « فانت عربي »

فسكت وقد ظهرت في وجهه ملامح الخوف

## الفصل التاسع والاربعون

منظر هائل

فادركت انه يخاف التصریح لقلة ثقته بها لأن ملامحها بعيدة جداً عن ملامح العرب فقالت « لا تحف يا شاب فانك تخاطب امراة لا تحب غير العرب . ولكن لقد ادهشني حديثك . فكيف تقول انك رأيت في بلاد البلغار ثم تقول انك ولدت في طليطلة والمسافة بين البلدين بعيدة جداً . اذننك واهماً في ما تقول او لعل الذي ابناءك بولذلك قد خدعك او كذبك »

قال « اني على ثقة من ذلك لاني عشت في طليطلة بعض سنوات ولا ازال اذكر بعض مناظرها كأنها خيال .. . »

قالت بلطفة « اتدكر مناظر طليطلة .. . ما الذي تذكره منها ؟ »

قال « اذكر قصرها الكبير على نهر الناج وحوله الحدائق .. . واذكر حدائق ذلك القصر لاني كثيراً ما كنت العب فيها مع بعض الرفاق على ضفاف ذلك النهر .. . »

قالت وفي وجهها معنى لو رأاه متفرض لعلم انها بفتت اذكر طليطلة وقصرها وانها كانت تغالب عواطفها لثلاً يظهر ذلك في وجهها « فانت اذاً من ابناء ذلك القصر .. . وما الذي تذكره ايضاً ؟ »

قال « لا اذكر غير ذلك القصر لاني أخرجت من طليطلة وانا طفل ولو لا مشاهدته

هناك من الامور الخفية لم تبق صورته في ذهني»  
 قالت «وما الذي شاهدته واخافتك وانت طفل؟»  
 قال «شهدت مقتل امير الاندلس ٠٠٠»  
 قالت «الا نذكر اسمه ٠٠٠؟»  
 قال «لم اكن اعرف اسمه يوم مقتله ولكنني علمت بعد ذلك انه عبد العزيز بن موسى  
 ابن نصير الذي فتح بلاد الاندلس للعرب»  
 فلما قال ذلك كادت تظهر البغثة على سالمه لوم تجلد وتشغل رودريك بالاستفهام  
 فقالت «وما الذي تذكره من امر مقتله؟»  
 قال «اذكراني كنت في بعض شهور سنة ٩٧ للهجرة العب في حديقة القصر وانا  
 في نحو الخامسة من عمري ومعي طفلة اصغر مني كنت ااعيها وعمنا الخدم لانها  
 بنت الامير عبد العزيز وقد ربينا معاً . وبينما نحن في ذلك رأيت الخدم في هرج ومرج وقد  
 وقفوا وقفه الاحتراز فأسرعت للفرجة ويجاني ابنة الامير . واذا بالامير عبد العزيز قد  
 خرج من القصر ومر بالحديقة وعليه القباء والعامة ووراءه جماعة من ارباب العائم فلما دنا  
 منا مدّ يده اليه وليس رأسه على سبيل الملاطفة وقال كلمة لا اذكرها . فتابعته لمنظره  
 لانها اول مرة رأيته في مثل ذلك الموكب . فسألت عن مسيره فقالوا الى المسجد للصلوة .  
 فلم يهمني الامر فعدت الى اللعب ولم يمض قليل حتى سمعت ضوضاء الناس وقد جاء بعض  
 العلما وحملوا الطفلة سرعة وتركتوني . بخفت لان الحديقة اصبحت خالية وليس فيها سوالي  
 فأخذت في البكاء ثم رأيت الناس يعدون من جهة المسجد عدو الفرار واخيراً رأيت منظراً  
 اثير في حافظتي تأثيراً لا يحوجه كور الايام ولا اذكره الا ويشعر بدني — شاهدت جماعة  
 يعدون في اثر الناس نحو القصر وفي مقدمتهم رجل يحمل رأس انسان وقد قبض عليه  
 من شعره والدم يقطر منه ويد الرجل وثيابه قد تلطخت بالدم<sup>(١)</sup> ونظرت في ذلك  
 الرأس فاذا هو رأس الامير عبد العزيز فاوغلت في البكاء وليس من ينتبه لبكائي  
 لاشتغال الناس عني بشؤونهم . ولذكر اني بقيت في ذلك المكان الى الغروب ولم  
 ينتبه احد اليه ثم جاء جدي فتناولني سرعة وطلع بي الى ذلك القصر الى حجر والدي —  
 على اننا لم نبق في طليطلة بعد ذلك الحادث الا بضعة ايام ثم انتقل والدي بي وبامي  
 الى الشام ٠٠٠

(١) ابن الاثير ج ٥

وكان رودريك يتكلم سالمة شاخصة فيه وعيتها تکاد ان تجمدان وفي وجهها ملامح الاضطراب مع اصفرار البغثة وانقباض الحزن ورودريك يزداد مبالغة في تشخيص هول ما شاهده . فلما فرغ من حديثه رأى دمعتين اخدرتا من عيني سالمة فحمل ذلك منها محمل التأثير العام من مثل ذلك الحديث ولو كان السامع غرباً اما سالمة فاشت في خاطرها امور قشت بضع عشرة سنة في الصبر على كتمانها وكادت تحمد شفتها نفسها بالتصريح لم يغلب عليها التعقل والصبر فامسكت نفسها وعادت الى استئنام حديث رودريك فقالت « ان حديثك غير بريء وقد ازعجني .. فأخبرني عاماً ثم لك بعد ذهابكم الى الشام وكيف وصلت الى بلاد البلغار .. »

فقال « اظنك سمعت بسير العرب لفتح القسطنطينية منذ بضعة عشر عاماً .. واني لا استغرب الان بعد ما شاهدت تلك المدينة وعرفت حصونها وقلاعها كيف اقدم العرب على فتحها .. »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « ان الغرض من الذهاب لفتحها الوصول الى هذه الارض من ذلك الطريق فيلتقي فاتحو القسطنطينية بفاتحى الاندلس هنا ويتمنى المسلمين فتح هذه الارض الكبيرة وفي فتحها يتم للعرب امتلاك العالم كله . الا تراهم لما اعجزهم فتح القسطنطينية كيف اعادوا الكرة لفتح هذه البلاد من هذا الطريق ؟ .. »

فتعجب الشاب من سعة اطلاع سالمة على تلك الاحوال وزاد استئناساً بها فاتم حديثه قائلأ « اقصى عليك خبri ليس كما ادركته حين حدوثه لاني كنت طفلاً ولكنني اقصى كما تفهمته بعد ذلك . فاعلي انا وصلنا الشام فلم نجد الخليفة فيها ولم اكن اعرف اسمه .. »

فقطعت سالمة كلامه قائلة « هو سليمان بن عبد الملك الرجل الاعرج الا كول الذي اكل سبعين رمانة وجديأ وست دجاجات في آكلة واحدة وختم الطعام بارطال من الزبيب <sup>(١)</sup> وقد كان الاولى به ان يقيم نفسه خليفة على المطافئ وليس على الناس فيقتل الامراء ويسفك الدماء .. » قالت ذلك وهي لائحة ذلك عن اظهار الغضب اما رودريك فعاد الى حديثه وهو يختصر خوفاً من ان يداهمه الطلب قبل الفراغ منه فقال « فسألنا عن الخليفة فقالوا انه خرج بحملة من الرجال الى فرسرين واعد

جيشاً كبيراً ليسير الى القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة وكان الناس عالي الأمال بذلك الفتح والكل واثقون بالفوز ولا ادرى ما الذي اوجب ذلك الوثوق . . .  
فقالت « سبب ذلك الوثوق اعتزاز العرب به فتحوه من المالك واعتقادهم ان العالم سيكون كله لهم وقد ساعدهم على ذلك وثوّتهم مسلمة لانه من كبار القواد وقد ثبت فتوح كثيرة على يده . . . »

## الفصل الخمسون

### حصار القسطنطينية

فقال رودريك « وكان والدى من أكثر الناس ثوفقاً بذلك فلما دعوه الى مرافقته تلك الحملة لم يرض الا ان يأخذ والدتي ويأخذنى معه لاعتقاده انهم فاتحون القسطنطينية وانه باقي هناك او في ما وراءها من البلاد . وكان والدتي من المقربين الى مسلمة لانه كان يعرف الاسنان اليوناني وقد تعلم في بعض اسفاره الى بلاد الروم وهو شاب . فكان مسلمة اذا نزلت الحملة اذلنا في فسطاطه وزلت انا والدتي في خباء نسائه . وكانت تلك الحملة المائة لحملتين واحدة بحرية وخرى بحرية . وكان عدد جند البر الذي نجح فيه ١٢٥ مقاتل وفيهم العرب والفرس وغيرها وكثرهم ركوب على الافراس او الجمال . وكانت الحملة البحرية على ما ياغني بعد ذلك عبارة عن ١٩٠ سفينة استقدمها مسلمة من سواحل مصر والشام والأندلس وفيها المؤونة والذخيرة . فشقى الجندي البري كأنه غابة من الناس والدواب . فهررنا بتیانة وعموریة وبرغاموس ففتحوها وسلم من كان فيها من الروم او فرسوا واستولى المسلمون على اسلامهم وموالئم . وكانت تلك الحملة تزداد ثقة وتتسع آمال رجاحتها كلما تقدمت لأنهم لم يروا ييلد الا فتحوه ونهبوا حتى وصلنا الى حدود اسيا<sup>(١)</sup> من جهة الخليج القسطنطينية وهو الفاصل بينها وبينها . وكانت الحملة البحرية قد وصلت الى هناك فاستخدمنا بعض سفنها في نقل الرجال والاحمال من بر اسيا الى بر القسطنطينية عند مكان يسمونه « اييدوس » وهي اول مرة قطع جند المسلمين به ذلك الخليج<sup>(٢)</sup> . على اتفاق اسينا

(١) المراد بآسيا في الاصطلاح القديم آسيا الصغرى (٢) حين ج ٢

في ذلك السبيل مشقة كبرى وكم اغرق مع والدي ولكن العناية ارادت بقائي لزيادة شقائي . »

فقالت سالمة بصوت منخفض « لا بل ارادت العناية ببقاءك خيراً يم على يدك لاناس انت تحبهم » فضل رودريك في اقام الحديث فقال « وبعد ان قطعنا ذلك الحدج بافراسنا وحملنا واحمالنا نزل البر ودرنا حتى اقبلنا على القدس من جهة الغرب فعسكرنا هناك في سهل واسع وحرنا حولنا خندقاً وبنينا سوراً من التراب ومكتنلا للحصار ونحن في شبه مدينة كبيرة فيها كل ما يحتاج اليه من المؤن والذخائر . وهذه اول مرة اشرفت بها على تلك المدينة الهاينة وكنت بالنظر الى صغر سني لا افقه معنى العظمة ومع ذلك فقد هالني علو اسوارها وما على تلك الاسوار من عدد الحرب — علمت ذلك مما كانوا يرشقوننا به فيما بعد من النبال والحجارة بالمجانق . وهناك شاهدت احوال الحرب الاول مرة . فقد كنت اصعد الى السور حتى اشرف على اسوار المدينة فأرى النبال مغروسة في جدار سورنا مثل ريش القنفذ وبعضها مات في السهل يلتنا وينهم حتى كثيراً ما كنت وانا العب امام خيمة الامير مسلمـة أرى النبال تساقط حولي فالقطتها ولم تكن تهمني . وكنت لا ازال أحسب الحرب لعبة حتى شاهدت ذات يوم أمرأ م أجسر بعده على الخروج من خباء والدي :

« وذلك اني صعدت مرة على سور معسكرنا لا تخرج كالعادة فرأيت شيئاً تطاير عن سور القدس نحو اشيه بشعلة متقدة كانها كوكب مذنب حتى وقعت خارج سور قبيحه واعملت مسافة كبيرة من المشب اليابس هناك وتطايرت منها رائحة حادة فذعرت وأسرعت الى والدي وانا في تلك الحال واستخبرتها فأخبرتني انهم كثيراً ما يطلقون هذه النار فتحرق ما تصيبه وخوفني فلم أعد أجسر على الاقتراب من السور . ثم علمت بعد ذلك انها ما يسمونه « النار اليونانية » واظهر لهم غلوبونا بتلك النار . لانهم احرقوها اسطولاً من جهة البحر . والاسطول المذكور كانت الريح قد ساعده حتى دخل الحاريج الى مقابل المدينة من جهة الشرق وكان لوصوله تأثير شديد على قلوب الروم وقد اخبرني بعد ذلك بعض الذين كانوا داخل المدينة في أثناء الحصار انهم كانوا اذا أطلوا على البحر رأوا اسطولاً كانه غابة اشجارها الاشعة والسواري لا يقف البصر على آخرها اذا نظروا من جهة البر رأوا معسكراً كانه بحر امواجه الناس والدواب وسفنه الحيوان والاعلام

وقد ساعدنا الحظ ان السلسلة التي تعود قياصرة الروم قطع مدخل القسطنطينية بها عند قرن الذهب في مثل هذه الحال كانت محلولة . وتحدى الامراء باغتنام هذه الفرصة والدخول في ذلك الخليج فشار عليهم بعض العارفين بالتوقف ببرهة لثلا يكون في الامر دسيسة . ولكنهم مع ذلك اقتربوا من الشاطئ وكثيراً فما شعوا الا والاسطول اليوناني يقترب منهم فهياوا للدفاع واذ بهؤلاء يطلقون عليهم تلك النار كلها خارجة من منافذ جهنم فاحرقوا معظم السفن والذين نجوا منها جاؤنا وهم ينادون بالويل والثبور وقدمات منهم كثيرون

« فاپیح اسطولنا بعد ذلك لا نفع منه وتحولت الانظار الى قوة البر . وكان مسلمة يتوقع ان يمل اهل القسطنطينية من طول الحصار وتقل عندهم المؤونة فيضطرون الى التسلیم وقد أطمئنا بذلك انا بعد المحاصرة ببضعة أشهر بعث الروم الى مسلمة يعرضون عليه ان يعطوه عن كل رأس ديناراً وينصرف فطبع وابي الا ان يفتحها عنوة<sup>(١)</sup> او يسلم اهلها جوعاً . وأما نحن فكان مسلمة قد اعد كل ما يلزم للزرع والصاد فقضينا الشتاء والصيف وزرعنا ورعاينا الماشية ونحن نتوقع ملل اهل القسطنطينية هارأيناهم ملؤا وقد حاصرناهم سنة وبعض السنة<sup>(٢)</sup> وعلمت بعد ذلك ان ملك القسطنطينية يومئذ واسمه آنستاسيوس او ارتيميوس قبض على ازمة الملك وليس هو من عائلة القياصرة ولكنـه كان حكياً عاقلاً فلما عاد اليه سفيره من دمشق بخبر الحرب وقدوم العرب عليه رجراً وبحرراً علم ان العرب سيحاصرونه فاعان أهل القسطنطينية ان كل من لا يستطيع الخزانة مؤونة تكفيه ثلاثة سنوات فليخرج<sup>(٣)</sup> من المدينة . فاشتغل الناس باخزان الحنطة والحبوب ورموا الاسوار واستعدوا للدفاع والمحاصرة . ولذلك فقد ملتنا نحن قبلهم لانا كنا نتوقع نجدة من الخليفة في مرج دابق فلات وانقطعت الميرة عنا »

فقطعت سالمه كلامه قائلة « اتعرف سبب موته ؟ »

قال « كلاماً »

قالت « لقد مات شيد الشره . . . مات من التخمة . . . وذلك ان احد نصاري دابق اناه بنبييلين ممولئين تيناً وبيضاً فامر من يشير له البيض وجعل ما كل بيضة وتبنة حتى اتى على الزبييلين تم اتوه بین وسکر فاكاه فاتخم ومرض ومات<sup>(٤)</sup> »

(١) مختصر الدول (٢) نيسفوروس (٣) حبيب ج ٢ (٤) ابو الفداء ج ٢

## الفصل الحادى والخمسون

### البلغاريون

فعاد رودريك إلى كلامه وهو يخاف فوات الوقت فقال « و مع وفاة الخليفة فقد كان يمكننا الصبر على الحصار سنة أخرى وقد تعودنا الزرع وأتنا الأقليم ولكن جاءنا شتاء قاس لم نستطيع معه الزرع ولا العمل فقلّت مؤوتنا حتى اكتنا الدواب والجلود واصول الأشجار والورق وما زاد الطين برة نعمة ان ملك القسطنطينية وهو يومئذ لاون لما طال عليه الحصار ورأى العرب مقيمين عمل على مضائقنا بعث الى البلغار بين المقيمين على ضفاف الطونة (الدانوب) واستجاشهم للدفاع عن عاصمتهم بالاموال والمدايا فجاؤا في البر واحاطوا بمعسكرنا وضيقوا علينا حتى اصبح الرجل منا لا يستطيع الخروج من المعسكر وحده ثلاثة يصطاده أو لئك البرابرة<sup>(١)</sup> ونشر لاون منشوراً فرقه في أهل بلده أوهم الناس فيه ان الافرنج قادمون الى القسطنطينية بالاساطيل الهائلة للدفاع عن الناصرية . فلما وصل ذلك الخبر الى مسلة لم يعد يستطيع صرراً على البقاء فازمع على الانسحاب

« فاستقدم ما بقي من اسطوله وامر بالاقلاع والتقويض للركوب في البحر والرجوع الى شواطئ اسيا . فباءت السفن واخذوا ينقلون اليها الطعام وما بقي من الخيول والجمال وكانت انا كـما اخبرتك مقيماً مع والدتي في المباء . فلما اخذوا في تقويضه استغل كلّ يوم نفسه واغتنلت والدتي عني خفرجت لانقطاع بعض النباله المبعثرة هناك فبعدت عن المعسكر وانا لا ادرى والظاهر انهم لم يتبعوا لي فما شعرت الا واثنان من أولئك البلغاريين اقضوا علي كالذئاب الكاسرة . فصاحت وناديت يا اباه يا أماه فما من مجيب . على اني التفت بعد هنجه نحو معسكر العرب وانا بينه ذارعي احددها فرأيت والدتي المسكينة تنظر الي من ذوق السور وهي تلطم وجهها وتصيح وتستغيث ثم توارى في الرجل بين الاشجار فلم اعد أرى احداً فأخذت في البكاء وهم تارة يهددوني وطوراً يملكوني

(١) مختصر الدول

فلا يبلغ رودريك الى هنا لم ثقلك سالمه عن ارسال دمعتين تدحرجن على خديها حتى ضاعنا في هداب خمارها وهي تنظر الى رودريك والاسف باد في وجهها يخلله الاستغراب فهم انها فعلت ذلك لتأثرها من حكايته فهم باقامة خديه فإذا هي قد قطعت حدشه قائلة «هل علمت ما اصحاب والدتك والدك»

قال كلا يا مولاتي لاني لم اعد اراها ولا سمعت خبرا عنهم ولا رأيت احدا اعرفه من ذلك الحين لاني رأيت في بلاد البلغار في اشق الاحوال اعمل في رعاية الماشية وجمع العيدان والاخشاب للوقود من شدة البرد وكنت اطوف التلال والاوادي مع رفافي من اولاد البلغار او بعض خدامهم نلتقط ما نعثر عليه من كسر الخشب ونجوها ونأتي به الى المنازل فاذا اظلم الليل اجتمع اهل المنزل في غرفة قد اوددوا النار في وسطها من الخطب والعيدان والاعشاب اليابسة فيصطفون حولها يستدفئون وفيهم الرجال والنساء والاطفال وكلهم احسن كساء مني . فقد كان على بعضهم اردية من الفرو او الصوف وانا لا ازال كما جاؤا بي ليس علي الا رداء وقيص ولو لا اشفاق ربة ذلك المنزل علي لمت من شدة البرد فانها فتحتني بقبية خمار مبطن بالجلد كان بعض اولادها فخررتني به واعطتني شبه جبة من جلد الماعز كانت لزوجها وقد تهرا فلبستها ففتحتني الى اسفل قدمي فارتدت الي روحي . ولا اظنهما فعلوا ذلك شفقة واما ساءهم ان اموت فيخسروا ما كانوا يطمعون به من ثني

## الفصل الثاني والخمسون

### سوق الرقيق

«فقضيت في ذلك بضعة اعوام وقد تعلمت اللسان البلغاري وتعودت عاداتهم في الطعام والشراب والصلة ونحوها ونسرت اسان امي وديانتها . فلما بلغت الثانية عشرة حملوني في جملة احداث كانوا قد جمعوهم من اعلى بلاد الصقالبة وساقوهم وفيهم الذكور والإناث ولا كساء عليهم غير الجلد وشعورهم مسترسلة كأنهم كانوا يقتلون على نبات البرية ويعاشرون حيواناتها . فجتمعونا معاً وشدوا ايديينا بعضها بعض بامراس وساوهونا فتشينا بضعة ايام على تلك الحال ونحن نساق كالانعام حتى اتيتنا الى بقعة راينا فيها ازيد حاما من كثرة الناس

والخيول والماشية والاحمال فسألنا عن المكان فقالوا انه سوق عمومية يجتمع فيها الناس من اصحابي البلاد للبيع والشراء او للبادلة او المقايضة . وساقونا جميعاً الى شبه زرية حوطها سور بعضه من الخشب وبعضه من الاجبار واقفلوا بابه علينا بعد ان حلوا ايدينا من الامراض . وعند وصولي الى السوق نسيت متابعي ومصائي لاشغال خاطري بما شاهدته هناك من اصناف الناس واشكال السلع على غير المألوف عندي . وكنا قد وصلنا الى ذلك المكان قبيل الغروب فبتنا في الظلام والبرد وانا لا اكلم احداً من رفافي لاني لا اعرف لسانهم ولا هم يعرفون لساني . ولا اصبح الصباح واشرقت الشمس نسينا البرد ثم رأينا الناس يتباينون ويتقايسون ونحن نتوقع ساعة يبعنا . واذا برجليت احدها طويل القامة جداً والآخر قصيرها وقد ترددتا بالحبيب المبطنة بالفرو الشغرين وتلتها بخمارين من صوف وبرزت لحياتها من بين جناحي التمار واحمررت عيناهما من كثرة الدفع او من شرب الخمر دخل الزربية واصحابنا البلغاريون يسيرون امامها باحترام وفي اثرها جماعة من الخدم

« فلما دخلنا ظل احدها الطويل وافقاً مع اصحابنا ونقدم القصير اليانا وجعل يتفحصنا واحداً واحداً وينتقي من يقع عليه اختياره منا حتى اذا وصل اليه ترس في وجهي وتكلم بلسان لا افهمه اظنه قوطياً او عبرانياً لاني علمت بعد ذلك ان الرجل من تجار اليهود . فهد يده فامسك بيدي وجدني نحوه وامرني ففتحت في فتحه اسنانى وحنكى وجسّ كتفيّ وهزها ونظر في عيني واذني ويدى ورجلی ثم اشار اليه فانضممت الى المختارين . وبعد الفراغ من الانتقاء تساوموا فلما تمت صنفة البيع ساقنا اصحابنا الجدد الى زرپتهم بعد ان دفعوا الثمن واظنه بخساً جداً ثم فرقوا فينا خبزاً يابساً والبسونا اكسيه شجينة من الحيش والجلد بشكل واحد وقصوا شعورنا واصلحوها من شأننا بعض الشيء فسررت للشعب والدقع

« وحملنا اولئك التجار بعد ايام على الدواب مناوية ونحن نحو المائة حتى اتوا بنا بلاد الافرنج فانزلونا في خان حبسونا فيه اياماً ثم افردوا جماعة منا انقوهم من بيننا لصغر سنهم وجمالهم وارسلوهم الى مكان يخصون فيه الصبيان . وبلغني بعد ذلك انهم اغضوا عني لاني كبرت على تلك العملية . . . . . »

ولما وصل بكلامه الى هنا سمعوا صوت النغير يدعوا الجند الى الاجتماع فقال « اظنني اطلت الشرح فاقول بالاجمل اني انتقلت بالبيع الى بعض الاعيان من الافرنج ثم بالمقايضة الى الدوق اود . و كنت في اثناء اقامتي في هذه البلاد قد سمعت بقدوم العرب لفتحها وكانت تحدثني نفسى بالفارار اليهم لا يبحث عن والدى ووالدى لاني لم اعد اسمع عنهم شيئاً

منذ خطفت منها بالقسطنطينية . وكنت قد أزمعت اذا كان معسكراً بقرب معسكر العرب ان افرأ اليهم فلم اتمكن من ذلك لاسباب يطول شرحها فهنا قد قصصت عليك خبri »  
قالت « لقد سرّني صدق فراستي فيك فانت الآن عربٌ وانا مستسلمة في سبيل العرب ولا يسمح لنا الوقت الآن بالتفصيل فاشترك ذلك لفرصة اخرى وعنددي امور تتعلق بوالديك وجديك سأقصها عليك . اما الآن فماض في عملك واجتهد اذا حملتوني معك في هذا السفر ان اكون في عهديك لتخابر بشأن الخجا .. . »

قال « سمعاً وطاعة » وتحول من الغرفة واغلق الباب وراءه . فاذا هو يكاد يغادر برجه عليه لباس مخالف لزي الجندي كأنه قاعداً القرفصاء في الدهلiziز بقرب الباب . وقد ادار كوعيه حول ركبتيه ودفن رأسه في حجره . فلما رأاه رودريك اجهض وخاف ان يكون قد سمع ما دار بينه وبين سالمة فرسنه برجله كأنه يوقيه من النوم فلم يتحرك فرسنه ثانية وهزه فتضليله الرجل بالكسيل الشديد ورفع رأسه وثأب وقطعي وجعل يفرك عينيه ويتلفت حوله كأنه افاق من سبات عميق . فارتاح بالرجل قبله لتوهمه انه كان نائماً هناك من كسل او تعب فانتحره وامرها ان ينصرف فتضليله بالخوف ووقف مسرعاً وخرج بهرول

## الفصل الثالث والخمسون

### موكب اود

اما سالمة فانها فرحت برودريل واستبشرت بالنجاة على يده لما ظهر لها من ثقة الذوق اود به فاذا كان هو خيرها في ذلك المعسرك هانت النجاة عليها فتذهب الى معسكر العرب وتخبر عبد الرحمن بما علمته من استنجاد اود لشارل (قارله) لئلا يخدع بقلة جند الافرنج فياً تيه شارل على غرة فيغلبه اذا غلب العرب هناك في وقعة واحدة حبطت مساعيهم كلها . ثم تذكرت حسان وكيف توكته في العuir وتمتنع ان يكون في خير وعافية وان يبقى في قيد الحياة حتى يرى رودريك ويعرف من هو لامره — وكانت الشمس قد مالت عن الماجرة فوققت سالمة الى النافذة تشاغل بما يبعد عن اهتمام الجندي بالبيوبيض والتحميم ريثما يأتيها النبا بشأنها لترى الى اين مصيرها — قضت ساعة

وهي في تلك الحال حتى رأت موكب الدوق اود وحوله الفرسان على افراس سروجها مفضضة وعليهم الابسة البراقة بالالوان الباهرة كالازرق والارجوانى والدوق اود في الوسط على فرس من جياد الخيل وعلى راسه قبعة مرصعة ثنلاً لحجارتها باشعة الشمس كانها مصابيح . وعلى كتفيه طيسان او رداء سنجابي اللون . كالطيسان موركش بالقصب الى اردانه . وفي عنقه قلادة من الذهب يتندلى منها على صدره صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة من الالمس والياقوت . ونظرت سالمة الى سرج الجواد وجلامه فاذا هما ايضاً مرصعان والجواد تحنهن ينلاعب كانه يرقص تيهًا وهو كثريه من فارسه الدوق . وكان الدوق قد اصلاح من شأنه ولكن الا ضطرب ما زال بادياً من خلال تلك العظمة . وربما كان السبب في ذلك ندمه على استنجاده عدوه شارل على العرب — ولعلك لو اطلعت على باطن سرور لرأيته اشدة ندمه يفضل ان لا يحيب شارل دعوته او يحدث ما يثنىء عن عزمه فيبقى هو وحده امام العرب فاما ان يغلبهم فيبقى سيد اكيتانيا وحده او اذا خاف ان يغلبوه صالحهم فينكوه ارضه تحت حماتهم . واما شارل فاذا تم النصر على يده لا يقنعه غير السيادة على الافرنخ كافة ويصبح اود نسيماً منسيماً اذا لم يقتله بعض المترفين لشارل . ونظنه لو تتحقق بقاء حاله مع الافرنخ مثلها مع العرب لفضل العرب على الافرنخ لما في فطرة البشر من التحاسد بين الاقرباء اكثراً مما بين الغرباء . فالانسان اذا ترك افطنته وخيرته ان يذلل نفسه لبعض ذوي قرابته او لاحد الغرباء لفضل الخضوع للغريب . ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء اسهل قياداً واقرب خصوصاً لقوانين الدولة من يحكمهم اناس من ابناء جلدتهم للذهب المبيبة بين ابناء الاب الواحد لانهم يتعارفون وهم صغار ومن يعرفك صغيراً لا يختارك كبيراً . وبهذه القاعدة تستدل على كثيرون غواصين التاريخ في المختلف في حقيقتها كاصل الفراعنة الاولين مثلاً فالمؤرخون مختلفون في هل هم مصريون او دخلاء . ونظرًا لما نعلمه من استبعادهم اهل البلاد الاصليين نرجع اتهم غرباء فاتحون للاسباب التي قدمناها . ناهيك بالتحاسد بين الرئيس والمرؤوس في ابناء الوطن الواحد ويشتد الحسد بين اثنين على نعمة كما تقارب افتخارهما على نيلها او تشابه اسبابهما اليها . ولذلك كان التحاسد على اشديه بين اصحاب الملة الواحدة —

فلا غرو بعد ذلك اذا تخيلنا في اود الدنم على استنجاد شارل — على انه لما اقترب بموكب من نافذة سالمة الثفت نحوها فوق نظره عليها فرنا اليها قليلاً ولم يبد اشاره ثم توارى الموكب عن سالمة ورأت الجنود تسيرا على الاقدام في اثره جماعات بحسب قبائلهم

وينهم الامراء والقواد بالادراج والخوذ على الاهeras وبين يديهم حملة الاعلام وهي كثيرة الاشكال والالوان على بعضها رسم الصليب وعلى البعض الآخر صورة العذراء تحمل طفلها او صور ملائكة او طيور او غير ذلك من الشارات المسيحية او المرومانية . وكانت جوقة الموسيقى قد دمشت بين يدي السوق صامتة فلما نم تحرك الجندي شمعت سالمه قرع الطبول والصنج والابواق ونحوها فتحركت عواطفها وتصورت قرب انشاب الحرب بين العرب والافريقيين وصول النجدة لمؤلاء فكيف تكون العاقبة لو قدرت الغلبة للافريقيين وعاد العرب مدحورين فاذا تصورت ذلك اشعر بدمها وصد الدم الى وجهها

فلا سار الجندي وكاد يتوارى عن بصرها ولم يبق في ذلك العسكرية الا شرذمات قليلة من الخدم والاعوان ورات نفسها لا تزال منفردة هناك ولم يات رودريك اليها ب الطعام ولا كلام اشتغل بالها واجست من تاخره شرقاً فتحولت عن النافذة نحو الباب لعلها ترى احداًقادماً فاذا هي تسمع وقع اقدام بلا خفق نعال ومشية غير مشية رودريك . فقالت في نفسها من عساها ان يكون القادم . وما عانت ان فتح الباب ودخل منه رجل بلباس اشبه بالبسة العرب وحالما وقع بصرها عليه رأت فيه شيراً بالرسول الذي جاء بالكتاب الى اود وهي عنده فاستعاذه بالله وخافت ذلك القدوم ولكنها تجلدت وثبتت جاشها وابتدرت الرجل قائلاً «ما الذي تريده؟»

## الفصل الرابع والخمسون

### الأحوال

فنظر اليها وعيناه تبتعدان من شدة الحول وترافقان وقال «لا اريد شيئاً ولكن حضرة السوق امرني ان اكون في خدمتك» قال ذلك وهو يصلح رداءه على كتفيه وقد بان السيف من تحته

فلا رأت سالمه حوله عرقه فانقبضت نفسها وخافت شوء العاقبة لعلها انه من اكبر جواسيس ميونخ وانشدت ان كل ما نادما من الشر اذا كان على يده . ولكنها لم تكن تجسر على التصریح بذلك . فلم تر خيراً من التجاهل والتجلد فقالت «بورك فيك ٠٠٠ العمال من اهل هذا العسكري؟»

فابتسم كأنه يهزأ من جهله وقال « لا .. ولكنني من معسكر آخر ... » وضحك ثم قال « هل تحتاجين الى خدمة اقدمها لك » فظلت سالمة على تجاهلها يوم تكريثها بـها بدأ منه فقالت « لا غنى لي عن خدمتك .. ولكن اين هو الشاب الذي كان يخدمني قبلاك ... » قال وهو يقلب شفتيه السمني استخفافاً « لا ادرى ... ولعله سار بهمة الى طليمطلة او بلغار يا ... او ربما اشتد حنينه الى اجداده فطار اليهم ... » فلما سمعت تعريضه بما دار بينها وبين رودريك سرراً اخفق قلبه وكادت تظهر البغة في وجهها فبالت في التجاهل وقالت « اني اشكرك ... لا احتاج الى شيء الا ... » وارادت ان ينصرف لتجلو بنفسها وتذكر في امرها فقال لها « ألا تحتاجين الى شيء ابداً مطلقاً؟ ... ألا تثق نفسك الى احدٍ في بوردو او في نهر لوار ... »

تعلمت انه يسخر بها وانه مطلع على اسرارها ولو اجابته لسمعت من هزء ما يؤلمها فتحولت عنه وهي تتظاهر بالسداحة وقالت « لا ... لا احتاج الى شيء ... » فقال « اذا كنت لا تحتاجين الى شيء فانا احتاج الى اشياء ... » فالتفت اليه ل تستطع غرضه فاذا هو يضحك ويستخف بها ثم قال « اني احتاج الى حضرنك ... » فأقطبت حاجبيها وبـذا الغضب في وجهها وغلبت عليها الانفة وعزّة النفس وقالت « وما هي حاجتك يا غلام ... ؟ » قال وقد هاب منظرها « لا تخضبي يا مولاي اني اطالبك بما امرني به حضرة الدوق ... »

قالت « وما هو؟ » قال « ان تتأهي للمسير في اثر هذه الجملة فنزل حيث ينزلون » ففهمت من صيغة الجمجمة في كلامه انه سائر منها فقالت « وهل نسير الان؟ » قال « نعم في هذه الساعة وقد اعدنا لك فرساً تركينه ... » قالت « اني مستعدة اذ ليس عندي اثاث احمله معي » قال « فتفضلي اذاك ... » قال ذلك وأشار بيده نحو الباب قالت « اخرج وانا خارجة في اثرك » خرج

فالتقَّت برديمها فوق الحمار وفقدت المحفظة وسائر ما معها وخرجت إلى الدليلز ومنه إلى الباحة حتى اطلت على صحن الدار فرأى هناك فرساً مسرجاً وحوله فرسان مدججون بالسلاح وفي أيديهم الحراب وعليهم الأدراع كانوا يخرون عشرين سجيناً متربدين . فلم تعبا سالمه بهذا المنظر فقدت إلى فرسها فركبته وساقته فشي الفرسان حولها في شبه الحلقة . وركب الأحوال حماراً كان هناك وسار في أثرهم سارت سالمه في ذلك الموكب وهي غارقة في بحصار الهواجس تفك في ما داهمها على غير انتظار بعد أن كادت تنجو من الخطط . وفكرت في رودريك فغلب على ظنها انهم جسروه او قتلوه وأنها هي صائرة إلى مثل ما صارهوا إليه ولم يكن الموت ليخفيفها ولا خوفها ضياع امور تود أخجازها قبل الموت — ومن الناس من تتسلط فيه معرفة الواجب حتى تنسيه حاجيات نفسه فلا يطلببقاء الالواح يقوم به فإذا أدى الواجب أصبح الموت والحياة سيئين عنده

قضت برهة في هذه الهواجس حتى تعبت وفرسها سأرها إلى حيث لا تعلم ولكنها كانت ترى الجملة تارة امامها وطوراً إلى جانبها فعلمت أنها تابعة لها . وتبينت من مسیرهم نحو الشمال انهم يقصدون تورس على نهر لوار . فلما تذکرت ذلك النهر احتاج قليلاً في صدرها وتصورت ما عليها من العهود والموائق المتعلقة بذلك النهر وتذکرت أشياء كثيرة زادتها انباتاً وتعاظم عليها الامر حتى كادت تبكي ولو بكت لأنشرح صدرها

وفي الغروب وصلت الجملة إلى سهل حطوا احمد لهم فيه للبيت موقتاً وفي الصباح نهضوا لمواصلة السير وسالمه لا يخاطبها أحد في شيء غير ما لا بد منه مما يتعلق بالطعام أو نحوه — وكانت في أنساء الطريق تتأمل في ما يقع عليه بصرها من الدروب أو التلال او نحوها وتفهم ما يدور بين الجند من الحديث لعلها تطلع على خبر جند العرب وain هم وكانت تتصفح الطريق الذي هم سأرون فيه عساها ان ترى أثراً يدل على اجتيازهم ذلك المكان فلم تر شيئاً يدل على مرؤودهم . فترجع عندها انهم لم يصلوا إلى هناك بعد مع أنها سمعت بقياهم من بوردو يطلبون بواليه فهز لوار . وكانت على يقين انهم لا يلقون في طريقهم كبير مقاومة لما مهدته لهم . وأما المعركة الكبرى فستكون على ذلك النهر — فمن غالب هناك ملك

## الفصل الخامس والخمسون

تورس

وباتوا تلك الليلة أيضاً في الطريق واصبحوا مسافرين يجدون السير . وقضوا يوماً رابعاً على هذه الصورة وهم تارة ينحدرون في واد وآونة يصعدون على جبل وحينما يردون في سهل حتى وصلوا في أصل اليوم الرابع إلى نهر صغير يقال له نهر شير تحف به التلال من الضفتين فضلاً عن الغياض والبساتين فقطعوا النهر من ضفة اليسرى إلى الميغ ثم صعدوا على أكبات اطلوا منها على سهل واسع ينتهي بمدينة تورس « الكبرى ووراءها نهر لوار لأنها واقعة على ضفته اليسرى . وكان الليل قد سدل ثقابه فلم تشاهد سالمة شيئاً بعد المدينة عنهم

وبعد مسيرة بضعة أميال من شير اختاروا مكاناً عسكروا فيه على نية الاقامة هناك فعلمت سالمة أنهم قد حطوا عصا التسيير فلبيت تنتظر ما يفعلونه بها فإذا هي بالاحول المعهود قد جاء ومعه بعض الخدم نصبوا خيمة خصوصية على مقربة من فسطاط الدوق أود — علمت ذلك من شكل الفسطاط بما فيه من دلال البذخ والقصف فلم يهمها الأمر وقد كادت تيأس . فقضوا معظم ذلك الليل في نصب الخيم واعداد اسباب الاقامة أما سالمة فانها دخلت خيمتها فرأت الخادم قد احضر لها الطعام فتناولته وأتمست الراحة فنامت وهي تفك في رودريك لأنها لم تشاهده في أثناء الطريق ولا سمعت عنه شيئاً ولم تكن تجسر على ذكر اسمه خوفاً من زيادة الشبهة عليه

وافاقت في صباح اليوم التالي على صوت البوقي بما لم تعهد من قبل فنهضت واستنهضت الرجل الموكل بحراستها عن المسبب فقال لها « ان الدوق يدعو الجندي الى الاجتماع في الساحة الكبرى امام فسطاطه للصلوة قداساً كاملاً على اسم القديس مرتين حامي حمى الافرنج لانه مدفون في هذه الجهات وقدره حجج للنصارى من اخاء اكتانيا او ستاراسيا »

و كانت سالمة تعرف ان القديس مرتين المذكور كان رسول النصرانية الى الغاليين في القرن الرابع للميلاد وكان اسقفاً في تورس ولما توفي دفنه في ضاحية من ضواحيها وبنوا بجانب قبره كنيسة وديرًا وأصبح المكان تحفة تعرف باسمه وصاروا يحجون اليه وينسبون له

العجزات

فليارأة سالمة اجتماع الجنود كم تهم في تلك الساحة للصلوة وفدت بباب خيمتها المشاركون في صلواتهم فإذا بالدوق قد خرج من فسطاطه في حاشيته واعوانه وكليم بالملابس الرسمية وقد نقدمهم القسوس بالثياب الكهنوتية وبآيديهم الصليبان وهم يرثمون واماهم بعض الشمامسة يحملون صليباً على عصا طويلة حتى وقوفهم في تلك الساحة في شبه منبر ووجوههم مولاة نحو كنيسة القديس مرتين عن بعد والجند وقوف . فاقاموا قداساً طويلاً وكانت القلوب متختشنة وملئها الآمال بالنصر على الاعداء ببركة تلك الصلوة

— ومن غرائب مطامع البشر وضعف طبيعتهم انهم يشنون الشرائع بجرائم القتل ويشددون التكير على القاتلين ثم يرثمون أكف الضراوة الى موجي تلك الشرائع ان يساعدهم على قتيل ابناء جلدتهم وهم مع ذلك يتوقعون اجاية سؤلم لاغتفادهم انهم اما يائسون نصرة الحق وتأيد الدين الصحيح . وكل طائفة تعتقد ذلك وت فعله . ولو عقلوا وادر كانوا معنى النذين لطلبوا حجب الدماء . وتكلفوا على حفظ السلام . ولكنهم لا يفعلون ذلك كأنهم ادر كانوا بالسلبية ان الحرب ضرورية للبقاء وانهم لو لم يقتلوا بعضهم بعضاً اقتلتهم الجموع او لو باه لان الارض اذا مضى عليها بضعة قرون ولم تحدث فيها حرب ضاقت بساكنها . وقد قدروا عدد الذين قتلوا بالحروب من اول عهد التاريخ الى الان بخمسة اضعاف

سكان البسيطة كلها غير ما يترتب على بقاياهم من التكاثر بالتنااسل المتضاعف ومهما يكن من الامر فالحرب باقية ما بقي حب الذات وهو باق ما بقي الانسان وبناء على هذا الاعتقاد سعي بعض رجال التمدن الحديث في تحريف ويلات الحرب مقابلة لما اخترعوه من آلات الدمار التي لم تكن في عهد التمدن القديم

وكان سالمة لما سمعت اصوات المرتلين وشم رائحة الجنور قد تخشم واستغرقت في الافكار وتذكرت تاريخ حياتها وما مرّ بها من الاحوال . ولم يقف فكرها الا في معسكر عبد الرحمن اذ تذكرت ابنته مريم وكيف خلفتها هناك وماذا عسى ان يكون من امرها بعد انتقال العرب في طريقهم الى تورس . وتذكرت ميونة فاخذت قلبها لذكرها خوفاً على مريم من حيالها لما تحققته من امرها واصبحت شديدة الرغبة في اطلاع العرب على ما عرفته عنها واذا استطاعت ذلك فانها تقدّم من مكانها . ولما بلغت بها تصوّراتها الى هذا الحد تذكرت حساناً لانه لو كان معها لانفذته في هذه المهمة — فاستغرقت في هذه المواجهة والناس ينجون بالصلوة والقسوس يرفعون اصواتهم بالترتيل ووجوههم متوجهة نحو دير القديسين مرتين

وكان سالمة وهي واقفة لسماع القدس لا ثالث لـ عن ارسال بصرها الى اطراف ذلك المعسكر وما وراءه من السهل الى نهر لوار ومدينة تورس على ضفته وبازائها محلة دير القدس مرتين على انها لم تكن ترى من تلك الاماكن الا رؤوس الابنية الشائكة بعد المسافة.

وفيها هي تسرب بصرها على تلك الصورة رأت الى يسار المعسكر شجعين ظهرا من وراء الافق عن بعد فاطل اولاً رأساها ثم تبين بدنها بالتدريج فإذا هما فارسان . فظل بصرها عالقاً بهما وشعرت برغبة في استطلاع حالمها ثم ما لبثت ان رأت عليها لباس الرهبان الاسود وعلى رأسيهما القبعة . فقللت رغبتها في الاطلاع لكثرة الرهبان في تلك الاصقاع وكثرة تردادهم الى المدن لابتاع حاجيات الاديار . وبعد قليل رأت الراهبين قد اختلطوا بالجندي ووقفوا معهم للصلوة فحولت وجهها عنهما وعادت الى هواجسها فتذكرة الشاب رودريك ووادت لها تجتمع به هناك ولو لم يكن من ذلك الاجتماع فائدة لها ولكنها كانت قد استأنست به

## الفصل السادس والخمسون

ثم سمعت دق الاجراس مؤذنة بالفراغ من الصلاة وتفرق الجندي الى مضاربهم وعاد اود الى فسطاطه وحوله الحاشية والاعوان ودخلت سالمة خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال اود بالحراب يحرسونها ولكنها لم تر الا حول ينتمي ولا رأته من ذلك الصباح . قضت بقية ذلك اليوم في الخيمة وقباها يحدوها باصر سيفحدث ويكون فيه الفرج لها وان كانت لا ترى باعثاً على هذا الامل بل هي ترى كل ما حولها ينذرها بضد ذلك — ولكن في صواحب الاحساس الدقيق من النساء نوعاً من الشعور لا يعبر عنه بغير الاهام لما فيه من الغرابة بالنظر الى الرجل . فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه وتنذر رجلها به . ولو طالها بالدليل لا سكتها لانها لا تتكلم عن افتتاح بالبرهان ولكنها تشعر فقول ما تشعر به وينقلب صدقها فيه لاسباب لا تزال مجهولة . وأما الرجل فانه لا يرتئي الا ما يرشده اليه

عقله بالقياس والبرهان — فلما أحيت سالمه عبته الآمال انبسطت نفسها ولكنها كانت لتعقلها تحمل ذلك الشعور محمل الوهم لأنها ترى المصائب محدقة بها من كل ناحية ولما أمسى المساء جاست على بساط مفروش في خيمتها وهي تشعر بارتباك وتردد فعمدت إلى الصلاة لأنها كانت قد تأثرت من قداسى ذلك الصباح ورأت في الصلاة راحة وبعد الصلاة توسدت وليس في خيمتها مصباح . وهي لم تطلب الرقاد نهساً ولكنها ملت الاحتباس ومن يظلم بصره تستثير بصيرته فاستقرت في الأفكار ولم يكن يعرض مجري افكارها غير ضجيج الخدم في ذهابهم وإيابهم وصوت النفير أحياناً — وبينما هي كذلك سمعت حدثياً قريباً من خيمتها فانهضت رأسها وافتقت فرأت بصيص نور يتراهى في الخارج وراء جدار الخيمة وسمعت لغطاً لم تستطع فهمه فجلست واصاحت بسماعها فانجلى لها الصوت فسمعت الحديث الآتي بلغة البلاد :

- لا أظنك تقدر على منعي
- بل أنا قادر حتى يأمرني الدوق بما يريد
- وما في هذه المسألة ما يستدعي مشورة الدوق
- بل لا بد من مشورته لأن هذه السجينية شأنها خصوصياً لا يقاس بشؤون سائر المسجونين وقد أوصانا حضره الدوق بمنع أي كان عن مقابله
- يا للعجب أباً ثـ منك الفحـة ان تقـ في سـيل الفـوضـ الـديـنـية ٠٠٠
- لا يهـي ٠٠٠ وما الذي يـضرـكـ لوـ اـتـاذـنـتـ الدـوقـ فيـ ذـالـكـ ؟
- لا يـضرـناـ شـيـئـاـ ولكنـكـمـ تـعلـمـونـ أنـاـ قدـكـرـسـناـ حـيـاتـناـ لـاستـتابـةـ الـجـرمـينـ وأـحـبابـ الذـنـوبـ وـأـنـاـ نـاطـوـفـ السـسـجـونـ وـنـرـفـ الـمـسـجـوـنـينـ وـنـعـظـهـمـ وـنـخـرـضـهـمـ عـلـىـ التـوـبـةـ
- ربـماـ كـانـ ذـالـكـ صـحـيـحاـ وـأـكـتـتاـ غـيرـ مـأـذـونـينـ بـغـيرـ المـنـعـ الـقـطـعـيـ وـمـعـ ذـالـكـ فـانـ لـاـ قـيـماـ لـوـ كـانـ هـنـاـ لـاغـثـانـاـ عـنـ مـشـورـةـ الدـوقـ لـاـهـ مـفـوضـ مـنـ قـبـلـهـ بـهـذـاـ الشـأنـ
- أـينـ هوـ ذـالـكـ الـقـيـمـ ؟
- لـاـ نـدـرـيـ فـقـدـ ذـهـبـ فـيـ هـذـاـ الصـبـاحـ وـأـكـدـ الـصـاـيـهـ عـلـيـنـاـ وـشـدـدـ فـيـ مـنـعـ أيـ كـانـ
- منـ الدـخـولـ
- اـرـسـلـواـ وـاحـدـاـ يـسـتـاذـنـ الدـوقـ
- ثـخـنـتـىـ أـنـ يـكـونـ فـيـ فـرـاشـهـ فـاجـلـواـ الـمـقـاـبـلـةـ إـلـىـ الـفـدـ
- الـوقـتـ ضـيقـ لـاـ يـأـذـنـ بـالـأـجـيلـ لـاـنـاـ ذـاهـبـونـ فـيـ صـبـاحـ الـفـدـ إـلـىـ دـيرـ الـقـدـيسـ

مرتين ٠٠٠ اذهب فاستاذن الدوق ولا تهمل الجدال ٠٠٠ اني لم ألاق مثل هذا الواقع في طول عمري ٠٠٠ واذا لم يعجبك الذهب فاني داخل الحيمة رغم ارادتك وستلاقي جزاء وقاحتك في الغد

— (صوت آخر) لا تنقض يا حضرة الاب ان رفيقي شاب لا يعرف حقوق السادة الرهبان والقسيسين ٠٠٠ تفضل فادخلا ولا حاجة الى الاستئذان لكتنا نطاب اليك ان تذكرنا في صلاتك

— بورك فيك يا ابني هكذا يكون ابناء الخلاص ٠٠٠ ولكنني اتقدس اليكم ان تبتعدوا قليلاً عن جوانب الحيمة لثلا يصل اليكم حديث الاعتراف ولا يخفى عليكم ان الاعتراف سر من الاسرار المقدسة

— طبعاً ٠٠ لا شك في ذلك ٠٠٠ تفضل وادخل ونحن متبعدون ولكن أرجو من قدسسك ان تختصر بقدر الامكان لثلا يبلغ الامر حضرة الدوق فيلومنا على ادخالكم بدون اذنه «

وكانت سالمة تسمع ذلك وقلها يتحقق خلقاناً متشارقاً لدهشتها واستغرابها ويدلت جهدها في معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه ولكنها أذكرها بالراهب الذي صحبها من الدير الى قرب بواته لانه مثل صوته . فلبثت صامتة لترى ما ينتهي اليه الجدال فلما انتهى على تلك الصورة تطاولت بعنقها لترى الداخل واذا هو راهب يده مصباح على شكل ظائر ملتفت نحو الاعلى والثور فتيلة مضيئة بارزة من منقاره وقد امسك الراهب ذلك المصباح باحدي يديه على قبضة في أسفله بشكل الصليب وتوكأ باليده الاخرى على عكازه . فلما رأتاه سالمة نهضت وتفرست في وجهه فإذا هو ذلك الراهب بعينيه فرحبت به وهمت بنقبيل يده والصلب الذي هو قابض عليه . وهي تفعل ذلك اذ رأت راهباً آخر دخل واسرع الى يدها ليقبلها فاجنلت وتراجعت وقد خجلت ولكنها ما لبثت ان تفرست في وجهه حتى عرفت انه خادمها حسان فبعثت وكانت تنطق باسمه ولم تتبه ل نفسها وتحف الفضيحة فنجابت وأشارت الى الراهب وحسان يلقيه وقعدت هي والدهشة لازالت بادية في وجهها وهي تتوقع ان تسمع من احدهما ما يذهب دهشتها

فوضم الراهب المصباح على الارض وقعد وظل حسان واقفاً فاشارت اليه ان يقعد فقعد متادياً وهو يقول بصوت مخفي « احمد الله على وضولي اليك يا مولاكي وارجوان اكون قد جئتكم بالفرح »

فهمت سالمة بالجواب وهي تخادر ان يلهو منها ما تؤاخذ عليه لعلها ان رئيس ذلك الدير شديد التعصب للأفرنج ويكره العرب فلم تكن متوقعة بجيء ذلك الراهب إليها لضررتها فقالت « وما الذي جئتني به . . . أليس حضرة الإب من رهبان الدير الذي بنايه وبقيت انت هناك جريحاً؟ »

فاجاب الراهب قائلاً « بلى . . . وانا اوصلك الى بواتيه حتى اخزوك مني فرجعت واخبرت حضرة الرئيس بما جرى ولو لا ذلك لم يكن الاهتداء اليك ممكناً . . . » فلم يزدها قوله افة احرا عن المسمة التي لها قادمان بها فالافتقت الى حسان وتفسرت في ثوبه فكاد يضحكهما ما هو فيه من لباس الراهب فقالت له « يظهر انك انتظمت في سلك الراهبة . . . »

قال « لبست هذا الثوب يا مولاي ذريعة للوصول اليك وقد حرضني على ذلك حضرة الرئيس وانفذ معى حضرة الإب برسالة سيمانها اليك » فاشتاقت لمعرفة تلك الرسالة فالافتقت نحو الراهب ولسان حالها بقول « تفضل »

## الفصل الرابع والخمسون

بشرى

ولما هم الراهب بالكلام تذكرت سالمة ما اصابها في المره الماضية مع زورديك وكيف اطلع ذلك الاحوال على حدتها فتقدمت الى الراهب ان يتهلل وأشارت الى حسان ان يتقد الحرس واما كنهم . فاطلعاً من باب الخيمة ومن ثقوبٍ في بعض جوانها فتحقق بعد الحراس بضعة امتار عن الخيمة وهم جلوس يتحادثون فعاد وطماها وقعد . فأخذ الراهب بالحديث بصوت مختنق وسالمة متطاولة بعنقها وكلها اذان لاستيعاب كلامه فقال : « لا يخفى على مولاي انا معاشر الراهب وسائر جماعة الاكيروس قد اوقفنا حياتنا لخدمة الله وخدمة بي الانسان لا نبتغي على ذلك اجرًا غير خلاص نفوسنا . ولذلك فقد اكرم الامراء والملوك وفادتنا وساعدونا في مشروعاتنا ونحن ايضاً ساعدناهم في حل الشعوب على الطاعة : وكثيراً ما كنا سبباً في تصفيتهم وعزلهم . فاصبح الراهب موضع ثقة اولي

الامر وتحل احترامهم لا يحابون امراؤتهم ونحن نحافظ على ولايتم ونخدمهم بما في وسعنا . وكان الدوق اود ( وخفت صوته ) من انصارنا ونحن من انصاره الا في بعض الاحوال ولكننا على الاجمال كنا نغضي عن بعض سقطاته ونحملها منه على الضعف البشري لعلنا اننا في حال تدعوا الى جمع الكلمة في اثناء الحرب . ولو انحرفنا عنه قليلاً واظهرنا استحياء نامنه امام الشعب لقضى على دولته من زمان مديد . لأن الشعب الغالي اهل هذه البلاد الاصليين لا يحبون الافرنج وهم مستعدون للخواص نيرهم عند أول اشارة منا . ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد في حفظ تلك السلطة لهم واظنك لاحظت ذلك من رئيسنا المحترم في اثناء حديثك معه . اما الان فقد ارتكب الدوق اود امراً دل على ضعفه وجبنه لم يبق لنا معه صبر على هذه الحال - اظننك عرفت ذلك الامر ؟ ..

فاطرقت سالمه واعملت فكرتها في استطلاع ذلك السبب فلم ينتظر الراهب جوابها فقال « ان الامر الذي اراده الدوق اود اذا توفق اليه فإنه يذهب بسلطانه ويضيع كرامتنا ويخرب اديارنا فتضيع الديانة ويصبح الناس فوضى . »

فانتبهت سالمه لغرضه فقالت « اظننك تعني استنجاده الدوق شارل صاحب اوستراسيا .. »

قال « نعم هذا الذي اعنيه لأن هذا الدوق من اشد الناس وطأة على رجال الله وقد اذاق اكليروس اوستراسيا مر العذاب فقبض املاك الاديرة وفرقها في ينده واهان الاساقفة وارتكب في ذلك كل معصية . وقد دعاه اود الان لنصرته فإذا فاز بالعرب أصبحت اكياسيا هذه في قبضته واصبحت اديرتها عرضة لطامعه »

« وكثيراً ما كان اود يهم باستنجاد شارل ونحن نرجعه ونخوفه على نفسه وعيينا فلما خاف خيول العرب وسيوفها عمد الى استنجاد ذلك الرجل - وقد وقع هذا الخبر وقعاً سيئاً عند اهل هذه البلاد كافةً مكتبتها وشعيبها لعلمهم بما سيترتب على هذا الامر .. »

وكان الراهب يتكلم وقلب سالمه يكاد يطفح سروراً وتذكرة ما كانت تحدثها به نفسها في اثناء ذلك النهار واعتقدت انه اهتم الصواب وان الامر ابتدأ بنقاب على الافرنج من تلك الساعة ولكنها ظلت صامتة لتسمع بقية الحديث

ولم يتوقف الراهب عن الكلام الا ريثما سمع ومسح ثحيته بمنديله ثم قال « وكان من اشد الناس غثباً لذلك رئيسنا المحترم لانه كان من اكثريهم ولاه لاود دفاعاً عن مصلحته فلما علم اورتكبه اصبح شديد الرغبة في عرقلة مساعيه لاعتقاده انه اذا ينجح في ذلك

يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته . والظاهر انه كان قد لحظ من كلامك نصرة العرب او ربما جاءه كتاب من اسقف بوردو في هذا الشأن — لا ادرى . ولكن الذي اعلم انه بعث الي ذات صباح وساًلي عنك مع اني كنت قد ابأته يوم رجوعي بما جرى امام باب بواتيه ولكنك دقق عنك في البحث وساًلي عن الرجال الذين اخذوك مني . فاخبرته انهم من رجال الدوق اود فهز راسه ومص شفته وامرني ان استقدم هذا الشيخ وكان قد اخذ في النقه من جرحه ولم اخبره بعد بخبرك لئلا اذكره . فلما امرني الرئيس باستقدامه سرت اليه وقصصت عليه خبرك فتذكر ثم اتيت به الى الرئيس . فلما وقف بين يديه اعرني فاقفلت الباب فسر علينا امراً كافني ان ابلغك اياه ولا ريب انه يسرك لانه سيكون طبق الغرض الذي انت ساعية فيه . . . هل اقوله ؟ »

فقالت « اتسألكي ؟ قل »

قال « قد اعطياني كتاباً كتبه بخط يده الى رئيس دير القديس مرتين لا ادرى فهوه ولكنك بلا شك يتضمن تحريره على مقاومة شارل وجندته حتى لا يفزوا على العرب او لكن لا يحار بهم لأن رئيسنا اصبح بفضل سلطان العرب على سلطان شارل وزمرة لما تتحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فـا من بالاقل على اديرتنا وكرامتنا . . . »

فلم تهالك سالمه عند سماع تلك العبارة عن الابتسام من شدة الفرح ونسمت كل ما صرّ بها من المتابع وتحققت ان كل ما أصابها من الشرور انما كان القصد منه الوصول الى هذا الحير وان ذلك كله حدث بعنایة خصوصية من مدبر هذه الكائنات — ذلك هو اعتقاد اهل الایمان من كل الاديان . والانسان من فطرته ميال الى ذلك فيحسب الدنيا وجدت لخدمته وتحده فاذا زرع وأمطرت السماء قال انها تمطر اكراماً له واذا جفت فجفافها نكایة فيه . ولذلك فاذا أصابته مصيبة ولو كان هو الجاني بها علي نفسه شكا من فاعل آخر يتبع خطواته فاذا لم يسمه الحالق سماء الدهر او الزمان . فلما توسمت سالمة قرب بمحاج مهمتها اتسمت وقالت للراهب « وain الكتاب ؟ »

فديده الى كمه واستخرج لفافة دفعها اليها فتناولها فاذا هي مختومة فوضعتها في جيبيها وهي تقول « وما هو السبيل الى دير القديس مرتين وحولي الحراس ساهرون ليلا ونهاراً ؟ الا يقوم بايصال هذا الكتاب أحد بانياية عني . . . ؟ »

فقال الراهب « لا يستطيع ذلك احد سواك لانه عبارة عن كتاب توصيه بك وقد ترك اقانع الرئيس لك — واصنانا رئيسنا حفظه الله ان نبذل الجهد في افرازك من هذا

السجين فما الذي تزنه؟ »  
قالت « لا أدرى . . . وأظن حضرة الرئيس قال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضييق  
المدحبي في هذا السجن وقد شاهدتم ذلك بنفسكم الآن وسمعتم أقوال الحراس فهل  
ترون لي حيلة . . . »

## الفصل الثامن والخمسون

شہامة

وكان حسان لا يزال صامتاً إلى تلك الساعة فلما رأى حيرتها قال « عليٌّ تدبر  
هذا الأمر . . . »  
فالتقى إلينا مما وها لا يتوقعان منه الاستطاعة على ذلك فاصاحا بسم عمهما إليه وقالت  
سالمة « وما هو التدبر؟ إذا كان من تدبر فليكن عاجلاً »  
قال « عليٌّ تدبر ذلك في هذه الساعة »  
 فقالت « وكيف؟ . . . »

فوقف حسان وعمد إلى جهة الرهبنة التي كانت عليه فعل حبلها من حول خصره  
وطوّقها من حول عنقه وأخذ في نزعها وهو يقول « عليك بهذه الحبطة فالبسها فوق  
أثوابك واجبلي هذه القبعة على رأسك وهي تغسل من الجانين فتعطي الوجه وإليك هذا  
العказ واخرجني مع حضرة الراهب فلا يشك أحد في أنكما الراهبان اللذان دخلوا  
الآن ومتى بعدئذ عن المعسكر أفعلاً ما ترياه . . . »

فأعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة واستغرب شہامة حسان بجثت فضل أن يلتقي  
بنفسه إلى التهلكة فداء عن مولاته — أما سالمة فلم تستغرب ذلك ولكنها لم تهلك عن  
الثناء على حسان وقالت « لا استغرب هذه الشہامة يا حسان فقد رأيت منك منها صراراً  
ولكنني ضئيلة بك لسابق تعبك وقد دنا الوقت الذي آن لي فيه ان أكاففك على شقائص في  
خدمتي منذ أعوام عديدة — وخصوصاً الآن فقد كنتُ راغبة في لقائك لا بشرك باصر  
بشكوك كثيرة . . . ولا أقدر ان أخبرك به الا اذا كنا معـاً وأخاف اذا افترقا الآن ان  
لا نلتقي . . . »

فتوقف حسان عن خلع الجبة وتناول بيته وقال « اخبرني عن ذلك الآن قبل ان تفترق »

قالت « وعندك امور كثيرة أقصها عليك واستطلع رأيك فيها وأحتاج اليك في تنفيذ بعض الشؤون »

قال « وهل تظنين في بقائي هنا خطراً على كوني في برatha وتقي انكم لا تخرجون من هذا المعسكر حتى الحق بكم »

قالت « اطنبك اذا اطلعت على ما سأقصه عليك تفضل البقاء هنا بضعة أيام »  
فيتم بعد حسان يستطيع صبراً عن ساع ذات الخبر فقال « اخبرني يا مولاني يا عامت ما يهمي ساعه او مريفي بما ت يريدين ثم نتداول قبل ذهابك بما تأمرین »

ثم انتهت سالمة الى نفسها فرأت الاولى ان تغض النظر عن اطلاع حسان على ما يشغلها او يؤخره في ذلك المعسكر والحالة تدعوا الى سرعة افاده الى عبد الرحمن لتخبره بما علمته من شأن ميمونة وما في معسكر الافرج من المعدات وما كان من استجاد او د لشارل وغير ذلك مما يأول الى نصرة العرب فلما رأت من حسان القلق على استطلاع الخبر قالت « ان الوقت لا يساعدنا على ذلك يا حسان واني افضل ان ابقى انا هنا ونذهب انت برسالة افادها ملك الى امير العرب فان الحالة تدعوا الى سرعة الذهاب والا ضاعت الفرصة وذهب سعينا هباءً مثوراً فاطعني واذهب انت ولا بأس على من البقاء هنا »

قال « الامر اليك يا مولاني ولكنني لا ارى شيئاً ادعى الى العجلة من اطلاق سراحك مقابلة رئيس دير القديس مرتين وعرقلة مساعي الدوق شارل القادم لنجدتك هذا الجيد ومتى تم لنا ذلك نذهب بال بشائر الى الامير عبد الرحمن دفعه واحدة »

قالت « ولكن الامر الذي اطلب ابلاغه الى عبد الرحمن الان اهم كثيراً من خبر دوق اوستراسيا »

فاستغرب حسان ذلك وقال « وهل ام من خبر دوق وهو قادم لنجدتك او د بجيشه جرار معه العدة والسلاح فضلاً عن اشهار شارل بالبسالة والقوة ؟ »

قالت « اني انما أخاف على جند العرب من عدو مقيم في قصر اميرهم وهم يحسبونه صدقاً وقد اكتشفت سره في أثناء اقامتي في هذا الاسر ولم يكن استجاد شارل الا برأيه فإذا لم اغبادر الى كشف سره استفتح امره »

## الفصل التاسع والخمسون

### أول الاسرار

فجفت حسان لذلك وحدق بعينيه وتطاول بعنقه وقال «من هو ذلك العدو يا مولاي هل تخبريني . . . قولي الآن ولا تخافي من وجود حضرة الراهب معنا فانه صديق لنا مخلص في نصرنا او تكلمي بالعربية فانه لا يفهمها . . . قولي من هو ذلك العدو » قالت « هو ميمونة . . . او بالحرفي تلك المرأة الدهنية التي سمت نفسها ميمونة وما هي الا ملعونة . . . » قال « ولم تكن هذه المرأة مجهرة لدينا فقد شاهدناها غير مررة فما الذي عرفته من امرها هنا . . . »

قالت « لم اكن اجهل أمرها مامنذ رأيتها في معسكر عبد الرحمن للمرة الاولى ولكنني احجزت كشف امرها اعود من مهمتي هذه وخفت اذا اباحث بشأنها ان يجر ذلك الى تصرّحها بحقيقة أمري وانت تعلم اننا لا نريد ذلك الان وان كان اطلاع عبد الرحمن على حقيقي لا يزيده الا كراما لي ولكنني مقيدة بالعهود والمواثيق ان لا أطلع احداً على شيء قبل عبور هذا النهر ( وأشارت الى نهر لوار ) ولو علمت ما قد يتربّ على سكوتني عنها لما صبرت على كتمان امرها وأما الان فلا بد من كشف سرّها عبد الرحمن على محمله . . . » قال « وما هو شأنها يا مولاي هل يجوز لي الاطلاع على هذا السر » قال ذلك وجثا بين يدي سالمة وتطاول بعنقه وحملق بعينيه

فقالت « هل اخفي عنك سرّاً وانت تعلم انك جزء اسراري بل انت الرجل الوحيد المطاع على حقيقة حالي غير الكومنت اود صاحب هذا المعسكر فانه عرقني وهددني نازية ولكنه اشتعل عندي او اجل شائي بعد الحرب لانه مطمئن من قبلي لاعتقاده انني سجينته حتى بشاء — فلا اخفي عنك سرّاً يا حسنان ، قاعداً ان المرأة التي يسمونها ميمونة وتعد نفسها من حظايا عبد الرحمن وتقترب اليه بجماتها ومكرها انما هي لمباجحة بنت الدوق اود صاحب هذا الجند . . . »

فلما سمع حسان قوتها بعثت ولم يحالك عن الوقوف وقال وقد يجيء صوته من محاولة تحفيظه مع تهيج عواطفه وبغيته « بنت الدوق اود هذا . . . قائد هذا المعسكر ؟ . . . »

قالت «نعم هي بعيدها وأظنك تعرفها أنت وقد رأيتها غير مررة وهي مع زوجها المقتول ٠٠٠ إلا تعرف المنيذر الأفريقي الذي كان حاكماً في جبال البربرية بين إسبانيا وакيتابيا ٠» قال «نعم اعرفه وبلغني أن الامير عبد الرحمن الغافقي لما قام بجنبه لفتح هذه البلاد بلغه أن المنيذر لهذا متواطىء مع الأزرج على العرب فسار إليه وبفعله وقتلته وبعض أمواله ونساءه وبعث بها إلى الخليفة في دمشق »

قالت «اتعلم السبب الذي بعثه على مواطأة الأفريقي على العرب ٠٠»

قال «كلاً»

قالت «أن الدوق أو دعلم بما بين العرب والبربر من التحاسد لأسباب لا تخفي عليك وبلغه أن المنيذر البربرى المذكور صاحب نفوذ كبير في قبائل البربر وأنه اذا كتب سفنه واسترضاه يكون عوناً كبيراً له على العرب فتخيبراً وافتضت المخابرة الى ان يتزوج المنيذر بلمبةاجة ابنة الدوق او د وقد رضي او د ان يزف ابنته الى هذا البربرى على امل ان تكون وهي عنده قابضة على زمام ارادته تستخدمنه في ما تريده لمصلحة والدها وهي مشهورة بالجمال والدهاء ٠ وبعد ان اقامت مع زوجها المذكور مدة وهي تدبر الحيل لاندباب بدولة العرب هض الامير عبد الرحمن وعرف الخطر الذي يحدق بالعرب من ذلك الامير فبعثه وقتلته ٠٠»

قال حسان «نعم سمعت ذلك من قبل وسمعت ايضاً ان امرأة أخذت في جملة الغنائم والاموال الى دمشق فيئاً للخليفة»

قالت «قد اشاعوا ذلك زوراً وبهتاناً فالظاهر ان هذه الاداهية البست بعض نسائهم سببها واوهمت عبد الرحمن ان تلك هي لمبةاجة وانها هي من بعض خدمها وسراريهما لتبقى في معسكر عبد الرحمن عيناً لا يهرا على العرب وحرركا لهم ٠ وقد تحققت اتها هي التي كتبت الى ابها بالامس ان يستجده شارل دوق او استراليا ولم يكن هو ليقدم على ذلك من تلقاء نفسه حياءً من رجاله ورعاياه فاغرته هي بما لها من النفوذ عليه فاستجده - وما يخفيفي من امردا ان الامير عبد الرحمن يشقها ويساوها ويستشيرها فهل من خطر على جند العرب اعظم من هذا؟»

فقال حسان «كلاً يا مولاي ٠٠ فينبغى ان اذهب بهذا الخبر الى الامير سريعاً فهل

تكلتين كتاباً احمله اليه حالاً »  
 قالت « ولا يد قبل كل شيء أن نخرج من هذا السجن ومتى خرجنا یهون علينا كل  
 أمر عسير » ٠٠

## الفصل السادسون

### الجوزة

وكان الراهب في أثناء ذلك الحديث واقفاً يت shading بالشيء في أرض الخيمة ويتصفح  
 من بعض شقوصها ونقوبها إلى الخارج وكانه رأى امرأً يفتحه فاسرع إلى سالمه وهي تقول  
 ذلك وقال لها « اطتنا اطتنا الكلام حتى فاق الحراس فاني ابراهيم في هرج وحركة يتشارون  
 ويتهامسون وآخاف ان يكون من ذلك خطر علينا » ٠٠

قال حسان « عليك بهذا الرداء يا مولاتي فالبسيه وآخرجي مع حضرة الاب واطلبها  
 خارج المعسكر وساتبعكما سريعاً والملتف على ضفة نهر شير عند الجوزة الكبيرة التي قعدنا  
 تحتها بالأمس يا حضرة الاب » قال ذلك والبس سالمه عباءة الرهبان وجعل على رأسها  
 القبعة واعطاها العصا وأشار إليها بالذروج على عجل

ففتح الراهب وقوع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من باب الخيمة وسالمه  
 في اثره . فلما اطل على الحراس ظاهر باشتغاله برسم الصليب والصلوة ثم رفع يده كأنه  
 بياد كرم خفوا رؤوسهم جميعاً وزعوا قبعاتهم أحلاً واحتراماً . ولم يتجبرا أحد على الدنو  
 مهما لما لاحظوه من اشتغالها بالصلوة تتمة . وكلت سالمه تمشي وركبتها ترتعش  
 ليس خوفاً على حياتها ولكنها استنكشفت الفرار خلسة والتذكر بلباس الرهبان . ولا بعد عن  
 المعسكر واطلها على نفسها مما اشتغل بها سالمه على حسان وآخاف وقوعه في الاسر . سارا في  
 المعسكر وهيا بزي الرهبان والحرس لا ينتبهون لها وأكثر الجنديان حتى خرجا من بين  
 الخيم . وكانت سالمه تمشي وتنقلب يميناً وشمالاً ثم ثلثت إلى وراءها لعلها ترى حساناً فادعها  
 وقد ندمت في باطن سرها على تركه في تلك الخيمة لانه اقدر منها على اتخاذ ما اطلبها  
 في تلك الساعة . وكان الظلام مخيماً لا يربان مما يحيط بهما غير الروابي او الاشجار العالية  
 اذا اعترضت بينهما وبين الافق . وكانت سالمه تمشي في اثر الراهب كيفما مشى لأنها لا

## تعرف مكان تلك الشجرة

وبعد مسيرة ساعة وها صامتاً التفت الراهب إلى سالمه وقال «قد أصبحنا على مقرية من الجوزة يا مولاتي وهذه روؤوس أغصانها» وأشار يده إلى الإمام فالتفت فلم تر شجراً ولكنها رأت أغصاناً متفرقة نثراء في الأفق فعلمـت أن الشجرة في منخفض وإنها ترى روؤوس أغصانها. ثم رأـت شجـعاً يظهر بـجوار تلك الأغصـان روـيداً روـيداً كانـه قادـم من وراء أـنـكـة نـحوـها فـفـرـستـ بـذـلـكـ الشـبـعـ حتى بـدـأـكـهـ وـدـنـاـ مـنـهـماـ فـإـذـاـ هوـ بـلـبـاسـ جـنـدـ الـافـرـنجـ وـلـمـ اـقـرـبـ مـنـهـاـ اـخـتـلـعـ قـلـبـهاـ فـيـ صـدـرـهـ لـعـلـمـهـاـ إـنـهـ عـدـلـانـ الـاحـولـ فـاستـعـاذـتـ بـالـلـهـ مـنـهـ وـخـافـتـ عـلـىـ حـسـانـ مـنـ دـهـائـهـ . اـمـاـ هـوـ فـظـلـ ماـشـيـاـ لـاسـلامـ وـلـاـ كـلـامـ . فـسـرـتـ سـالـمـةـ بـذـلـكـ وـبـعـدـ قـلـيلـ وـصـلـاـ إـلـىـ قـمـةـ التـلـ فـشـاهـدـتـ سـالـمـةـ وـرـاءـ شـجـرـةـ هـائـلـةـ تـظـلـلـ سـهـلاـ وـاسـعـاـ فـانـحـدـرـاـ نـحوـهاـ وـقـعـدـاـ تـحـتـهـ وـبـيـنـ يـدـيـهـماـ عـيـنـ مـاـ تـصـبـ فـيـ مـنـحـدـرـ تـحـتـهـ وـادـ يـجـرـيـ فـيـهـ نـهرـ شـيرـ . وـكـانـتـ سـالـمـةـ قـدـ تـعـبـتـ مـنـ الـمـشـيـ وـالـقـلـقـ فـقـعـدـتـ عـلـىـ حـجـرـ قـدـ تـمـلـسـ مـنـ كـثـرـ مـاـ لـامـسـهـ مـنـ الـايـديـ بـكـرـوـرـ الـادـهـارـ . وـكـانـتـ تـلـكـ الشـجـرـةـ مـنـزـلاـ لـلـسـافـرـينـ هـنـاكـ

ولـمـ قـعـدـاـ قـالـتـ سـالـمـةـ لـلـراهـبـ «أـنـيـ خـائـنـةـ عـلـىـ حـسـانـ وـلـاـ اـظـهـرـ يـسـطـعـ الخـروـجـ مـنـ ذـلـكـ المـعـسـكـرـ وـاـذـاـ كـانـ لـمـ يـخـرـجـ الـآنـ لـمـ اـعـدـ اـرـجـوـ خـروـجـهـ»

قال «وـكـيفـ ذـلـكـ ؟ اـذـاـ لـمـ يـخـرـجـ الـآنـ يـخـرـجـ بـعـدـ سـاعـةـ اوـ ساعـتينـ وـبـكـونـ

الـحـرسـ نـيـلـمـاـ»

قالـتـ «لـاـ اـخـافـ عـلـيـ الـحـرسـ وـلـكـنـيـ اـخـافـ عـلـيـهـ هـذـاـ الرـجـلـ الـذـيـ رـأـيـتـهـ مـارـاـ بـنـاـ وـهـوـ الـذـيـ وـشـىـ بـيـ حـتـىـ قـبـضـواـ عـلـيـهـ . وـلـوـ لـمـ يـكـنـ غـائـبـاـ الـلـيـلـةـ عـنـ الـعـسـكـرـ مـاـ اـنـظـلـتـ حـيـلـتـكـ عـلـىـ الـحـرسـ . . . . .»

قضـيـاـ مـدـةـ فـيـ مـشـلـ ذـلـكـ وـعـالـمـةـ تـعـدـ الـحـلـظـاتـ وـتـحـسـبـ السـاعـةـ يـوـمـاـ مـنـ شـدـةـ القـلـقـ ثـمـ سـمـعـاـ وـقـعـ اـقـدـامـ مـسـرـعـةـ فـالـتـفـتـاـ فـرـأـيـاـ شـجـعاـ يـعـدوـ نـحوـهاـ فـلـمـ تـشـكـ سـالـمـةـ اـنـ حـسـانـ فـلـمـ اـقـرـبـ مـنـهـ اـرـتـعـدـتـ فـرـائـصـهـ مـنـ مـنـظـرـهـ لـانـهـ كـانـ عـارـيـ الصـدرـ وـالـذـرـاعـيـنـ مـكـشـوفـ الرـأـسـ وـقـدـ نـبـشـ شـعـرـهـ وـارـسـلـهـ عـلـىـ وـجـهـهـ حـتـىـ أـصـبـحـ مـنـظـرـهـ مـثـلـ مـنـاظـرـ الجـانـ اوـ الشـيـاطـيـنـ عـلـىـ مـاـ كـانـواـ يـصـفـونـهـمـ فـيـ ذـلـكـ الـعـصـرـ . وـلـمـ تـكـدـ سـالـمـةـ تـخـافـ حـتـىـ سـمعـتـ الرـجـلـ يـقـولـ «لـاـ تـخـافـ يـاـ مـوـلـاتـيـ اـنـاـ حـسـانـ»ـ فـاطـمـاـتـ فـلـمـ دـنـاـ مـنـهـ صـاحـتـ فـيـهـ «وـيـلـكـ

مـاـ هـذـاـ الـعـملـ ؟ـ»

قال «لـوـ لـاـ هـذـهـ السـيـنةـ مـاـ نـجـوتـ مـنـ الـاـسـرـ فـاـنـيـ مـاـ تـحـقـقـتـ بـعـدـكـ عنـ الـعـسـكـرـ

تعرّبت كما تربان ونبشت شعري وخرجت من قفا الخيمة اعدو على يديه ورجلٍ واضح صياغ الشياطين . فاجفل الحرس من حولي وتفرقوا لاملاقاً لهم اني شيطان ولم يرجع اليهم رشدهم وينقها الحيلة حتى سرت خارج المعسكر . ولكنني النقيت هناك برج اذنه عدلان البربرى الاحوال وقد رأىني ولم يعرفني . . . هل شاهد كذا هنا »

قالت «نعم رأينا ولكنه لم يعرفنا»

فقال «لا بد لنا اذًا من تغيير هذا المكان — اعطوني العباءة اولاً»

فاعطته سالمة العباءة فلبسها وهو يقول «هلْ بنا نذهب من هنا فان هذا البربرى الشرير لا يأبه ان يصل الى المعسكر ويعرف بقرارك على يد الراهبين حتى يطأب هذا المكان بالجنيد ولا طاقة لنا بالحرب»

فقال الراهب «هذا هو الصواب فلنمض اذًا الى دير القديس مرتين فاننا نصله قبل الصباح فنصير هناك في مأمن واذا شئت ارسال حسان بعد ذلك افعلي وربما ارسلنا معه من يهديه الى الطريق»

## الفصل الحادى والستون

دير القديس مرتين

فاستحسن الرأي ونھضت فتشوا يطلبون الدير والراهب دليهم فوصلوه عند الغدر وقد اخذ التعب منهم مأخذًا عظيمًا . فاطلوا اولاً على حالة اشبه بيلد صغير وفي وسط البلد بناء شامخ محاط بسور عال مثل سائر الادبار هناك ولكنه اخْنَمَها جميعاً ومحيط السور هائل حتى يحسبه الناظر سور مدينة لسعته وارتفاعه ، وكان دير القديس مرتين مشهوراً في آكيتانيا واوستراسيا وسائر اوربا بالغنى والثروة لكثرة ما حواه من الآنية الذهبية والفضية غير الاموال المذكورة في خزينته من الهبات والذور ونحوها . وكانت سالمة تسمع بذلك الدير ولم تدخله بعد فلما اطلت عليه تركت للراهب ان يتصرف في كيفية الدخول ، فاذابه نقدم الى الباب وهو كبير خلافاً لآبوب سائر الادبار فامسك بجمل مدلى هناك وشده فدق الاجرنس دقة خصوصية وبعد هنئية اطل بعض الراهبان من برج فوق الباب فكلمه الراهب رفيق سالمة باللاتينية فاسرع ذاك الى الباب وفتحه

ورحب بالقادمين . فدخل الراهب سالمه من باب آخر وراءه فاطلا على فناء واسع اشبه شيء بالحدائق وفي وسط الفناء بناءً كبيراً هو الدير وبجانبه بناء آخر عرفاً من قبة والصليب على قمتها انه كنيسة القديس مرتين .

وكان حسان سائراً في اثرها وهو لا يزال في شكله الغريب فامر رفيقه الراهب ان يكث عن الباب وأشار الى الباب ان يقيمه عنده ريثما يطلبانه . فكث هناك وظلت سالمه والراهب سائرين والراهبان يتحاطبان باللاتينية فلم تفهم سالمه من خطابهما الا قليلاً ثم تكلم راهبها بالافرنجية قائلاً « ان حضرة السيدة قادمة بكتاب الى حضرة المترم رئيس هذا الدير فهل هو هنا؟ »

قال « اظنه لا يزال في عبر النهر عند دوق اوستراسيا الا اذا كان قد دخل الدير من بابه الآخر المشرف على هذا النهر »

قال « ومتى قطع النهر »

قال « قطعه قبل الامس على حين غفلة »

قال « وما الذي دعا الى ذلك .. »

وكان الراهب يتكلم وهو يمشي في الحديقة بين اشجارها ويتفرس في طرقها كأنه يفتش عن احد فلما افضى بهم الحديث الى هنا كانوا قد وصلوا الى مقعد من الحجر بجانب جدار الكنيسة فاشار الراهب اليهم بالجلوس وجلس هو ونور الصبح آخذ بالاشراق وقد تطايرت العصافير وانطلقت النسائم فاختلط حنف الاشجار بتغريد الاطيارات . فكان ذلك تأثيراً شديداً على سالمه بعد ان قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليل الغابر . واحست بالنعاس ولكنها تنبهت كل حواسها لسماع حديث الراهبين لترى الداعي الى خروج الرئيس من ديره على غرة فسمعت الراهب يقول « ان الذي دعاه الى ذلك انخروج يا اخي امرٌ جديد كفانا الله شره »

فقال الراهب « وما هو ذلك الامر لا سمع الله »

قال « لم تسمع بقدوم الدوق شارل صاحب اوستراسيا بجيشه الجرار .. »

قال « سمعت انه سيقدم فهل وصل؟ »

قال « نعم يا اخي وصل منذ ايام وهو الان على الضفة اليمنى وفي حال وصوله بعث الى حضرة المترم رئيس ديرنا ان يوازيه الى هناك على عجل فلم يسعه غير الطاعة .. »

قال « وما الذي يغييه منه؟ .. وليس عنده جند ينげده به .. »

قال « يظهر انك تجهل حال هذا الدوّق مع رجال الله والكنائس والاديارات .. »

قال « اعرف عنه قليلاً .. »

قال « ألا تعرف طمعه في اموال الكنائس وارزاقها ..؟ وهل فاتك ما اجراء من طرق الظلم مع اكليروس اوستراسيا ..؟ »

قال « سمعت بعض الشيء .. واخاف ان يفعل مثل ذلك في كنائسنا هنا »

قال « وهذا الذي تخافه نحن .. »

وها في ذلك اذ سمعا قرع الجرس فبعث راهب الدير ووقف ووقف الباقيون وهم يحسبون الجرس يقرع للصلوة ولكنهم رأوا الكنيسة لا تزال مغلقة وقد ثاقط الرهبان من كل ناحية نحو طرفة من طرقات الحديقة توادي الى سور الدير من جهة النهر فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقداد ينتظران ما يكون . ولم يمض قليل حتى رأيا جماعة الرهبان عائدين وفي مقدمتهم راهب بليس خاص يمتاز عن الباقيين وعلى رأسه قنسوة خاصة فعرفت سالمة انه الرئيس وقد عاد من مهمته التي ذهب بها الى شارل فاستغربت رجوعه باكراً بهذا المقدار وتفرست به عن بعد فرأته ماشياً وحوله الرهبان والجميع سكت تهيباً مما في وجهه من ملامح الغضب

وكان ذلك الرئيس كهلاً كثيف التجربة قد وخطه الشيب في اواسط لحيته من مقدم الذقن ولا يزال باقيها غاضباً حالكاً . وكذلك شاربه فانها كانا غليظين كثيفين وعيناه كبيرتان براقتان فوقها حاجبان عريضان ومنظره على الاجمال وفور مع جلال وقد زاده الغضب هيبة وقاراً حتى الجم الرهبان كافة عن الكلام . فتوسمت سالمة من ذلك الغضب خيراً ولما دنا من الدير اسرع رفيقها الراهب الى يده فقبلها وهو جاث وقبعته يده ففعلت سالمة مثله ثم تحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبان وعلى وجوههم علامات الاستغراب ولا يجسر احد على التكلم الا همساً

فظلت سالمة وراهبها يتوقعان فرصة بدخولها بها على الرئيس . وكانت سالمة تفضل الدخول عليه وحدها ومعها الكتاب . وبعد نهاية جاء الراهب الذي كان قد استقبلهما من باب السور وقال « هذا هو الرئيس قد عاد فما الذي تريدهانه »

قالت سالمة « اريد ان احظى بتبجيل يديه ومعي كتاب اربد نقدميه اليه »

قال « واين الكتاب »

فمدت يدها واستخرجته من جيبها ودفعته اليه مختوماً فتناوله . ودخل ثم عاد ودعا سالمة

للدخول وحدها فسرت لذلك ومشت وهي تعد في ذهنها ما سبقه على الرئيس لعلها ان رئيس دير القديس مرتين يمتاز عنسائر رؤساء الاديار بعلو منزلته وغنى ديره . فدخلت في دهليز انتهت منه الى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويحيطون كأنهم في شاغل عظيم وقد تسلبوا ازواجاً واثلاثاً . فلما رأوها وسعوا لها الطريق فشت والراهب يتقدمها حتى وصلت الى غرفة الرئيس وعلى بابها ستر شقه الراهب يمساره وأشار الى سالمة بيئنه ان تدخل فدخلت الى قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بدعة الصنعة مثل اهم حوادث النصرانية . وفي صدر القاعة صورة القديس مرتين بالقد الطبيعى الكامل ورأى الرئيس جالساً على مقعد في صدر القاعة تحت تلak الصورة . فلما دنت منه تظاهرت بالجثو ونقبيل يده فانهضها ودعا بكرسي اجلسها عليه والكتاب لا يزال يده وقد تبسم ترحاباً بالقادمة والغضب لا يزال بادياً في عينيه

## الفصل الثاني والستون

### أمل جديد

بلغت سالمة متأدبة والتمار يجل رأسها وثوبها الاسود يزيدها كلاماً ورزانةً وظللت صامتة احتراماً للرئيس . اما هو فاعاد نظره الى المكتوب بيده وتفرس فيه كأنه يقرأ ثانية ثم قال « من هذا الكتاب ؟ »

قالت « ان عالمة صاحبه فيه »

قال « لا أرى عالمة ولكنني عرفته من خطه . هل انت سالمة ؟ »

قالت « نعم يا مولاي اني امتك سالمة »

قال « العفو يا اخي كنا عبيد ربنا وخلصنا . ما الذي تريدينه مني الان ؟ »

قالت « لا أريد الا ما تريده قد سكم وليس لي رأي بوجودكم »

فابتسم غصباً وقال « لا حاجة بنا الى التجميل والتزدد . لقد جئتني لامر يقول

أخي رئيس دير . انه يهمني ويهمنه وان عليه يتوقف مستقبل الكنيسة في اكياسيا

فتقضي بما تأمرن »

قالت « اني خاطئة لا استحق هذه العناية ولكني كنت قد خطبت كتاب هذا الكتاب

في شأن دافعني فيه وانكره علي ثم ما لبث ان سمع بقدوم الدوق شارل الى هذه البلاد حتى استصوب رأي فهل أتعجب حضرة الدوق بمحبته ٠٠٠ اصفح عن جساري في هذا السؤال لأن عليه يتوقف حديثي «

قال « صدق يا ابني ان هذا السؤال لا يجسر احد من رهابي ان يسألني اياه ولكنك جئت في وقت احيز لك فيه هذا السؤال وفي كلام أخي الرئيس صاحب هذا الكتاب ما يحملني على الوضوء بك ٠٠٠ فاقول اني وجدت الدوق شارل خطراً على الكنيسة في اكتانيا »

قالت « وهذا الذي رآه هو وأراد ان اكون الواسطة في عرض طريقة ارجو ان تعود بالنفع على الكنيسة وأهلها ٠٠٠ »

قال « وما هي طريقتك »

قالت « هل تعدد الدوق شارل مسيحيًا حقاً »

قال « هو يزعم انه مسيحي ولكن اني له ذلك وهو يحمل ما حرمته الكنيسة ٠٠٠ كنا نسمع عنه اموراً لم تكن نصدقها لغرايتها حتى سمعناها من شفتيه » قال ذلك وقد تجدد غضبه ثم قال « كنا نسمع انه أخذ مال الايديار واساء الى الاكيروس وكنا نستغرب ذلك عنه حتى دعاني بالامس اليه وبدلاً من ان اسمع منه تملقاً وتزلفاً لشدة حاجته اليها في كل شيء سمعت منه تهديداً ووعيداً »

فانتشر حصدر سالمة هذه الشكوى واستبشرت بذيل بغتها ولكنها أظهرت الاستغراب

وقالت « تهديد ووعيد؟ ولماذا؟ العكم عصاة؟ »

قال « كلاً يا ابني ولكنك كلفني امراً لم اوفقه عليه كاً اراد ٠٠ دعائي وطلب الي ان ادفع اليه ما في صندوق هذا الدير من الاموال عاجلاً لانه يحتاج اليها في الحرب ثم عرض بفضله علينا في هذه الساعة لانه سيدفع عن العرب ٠٠ سامح الله الدوق اود ما أضعف قلبه ٠٠ انه سيجر علينا البلاء مضاعفاً باستجاد هذا الرجل المستبد ٠٠ »

فاظهرت سالمه الاهتمام وقالت « بالحقيقة ان الخطأ الاكبر من الدوق اود فقد أضاع استقلاله وجر البلاء على الكنيسة ٠٠٠ وما الذي يظنه مولاي الرئيس في هؤلاء العرب ٠٠ »

قال « هم اعداؤنا واعداء ديننا؟ ٠٠ »

فابتسمت بلطف وقالت « اسمح لي يا حضرة الرئيس المحترم ان اعترض على هذه

الرّهمة . هل رأيت العرب أو عاشرتهم ؟ » .  
 قال « كلاً ولકنتى سمعت عنهم شيئاً كثيراً . سمعت انهم يعبدون الأصنام وأنهم  
 اذا نزلوا بلداً نهبو كنائسه وسبوا نساءه وآخر بوطاً مجازل أهلها . . . »  
 قالت « الأتصدق امرأة عاشرتهم اعواماً ؟ » .  
 قال « هل عاشرتهم كثيراً وain ؟ وما هي علاقتك بهم ؟ وانت من اهل هذه  
 البلاد على ما يظهر . . . »

قالت « يسمح لي مولاي ان احيب على اسئلته بما في الطاقة . . . قد عاشرت هؤلاء  
 العرب اعواماً فظهر لي انهم اهل ديانة مثل ديانتنا يعبدون الله مثنا وهم اهل رفق وعدل  
 يفون بالعهود ويحافظون على المواثيق وقد فتحوا بلاداسبانيا ومعظم اكتيابيا ولم يظهروا  
 منهم الا العدل والرفق . ترى النصارى في اسبانيا وفي بوردو وبواتيه وغيرها من البلاد التي  
 فتحوها متعمدين بحرثهم الدينية لا خوف على كنائسهم ولا على اموالهم ولا على شيء مما  
 يمكن — لا يخلو ان يطمع بعضهم بهب او سلب فاذالم يكن محقاً فانه ينال جزاءه من اميره » .  
 ثم قصت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها في تنسيق العبارة وبسطها لعلمه أنها  
 اذا اقنعت رئيس دير القديس منين هان عليها اقناع اسقف تورس . واذا لم يساعدوا  
 العرب كفاهما ان لا يساعدوا الافرنج

## الفصل الثالث والستون

### الرهينة

وكان الرئيس يسمع كلامها ويتفرس في وجهها ويستطيع حقيقها فلم تسعن الفراسة  
 الا قليلاً وظل مستغرباً غيرة هذه المرأة على العرب وهي غير عربية — ولذلك استحسن  
 امتداحها العرب خصوصاً وهو في تلك الحال . فتوهم أن مجيء هذه المرأة وهو في حال  
 نفوره من شارل وخوفه منه لا يخلو من عنایة خصوصية روحانية . فقال الى مباراة سالمة  
 في رايها ولذلك اعظم ان ينصاع اليها حلاً واراد من الجهة الثانية ان يحافظ على غيرته  
 الدينية لعلمه ان انحيازه الى العرب اذا لم يكونوا كما وصفت يغير مستقبل النصرانية في تلك  
 البلاد ويقلب الاحوال رأساً على عقب . وكان من الجهة الثانية يرجو رجوع شارل عن

طالبه فإذا رجع لم يبق منه داع لعدوله عن نصرته . فظل مدة مطروقاً وهو يبعث باطراف لحيته بين انامله ثم التفت إلى سالمه وقال لها « أني شاكر لسعيك وارجو ان تمهيني فيها اعمل الفكره واستخير الله ويعمل بالهامه جلت قدرته »

فقالت « تبصر يا مولاي بالامرك كما تشاء ولتكنى اذكريك بما انت مسئول فيه امام الله في مصالح الرعاعيا واما غرضي ان يعود سعيك بالخير على الكنيسة واهلها » قالت ذلك ووقفت فابتدرها الرئيس قائلاً « وما انت قبقين عندنا ريهما نرى ما يكون »

فادركت انه يريد استبقاءها عنده رهينة حتى يصدق قوله فلم تبال لاعتمادها على مواعيد عبد الرحمن فقالت « اني رهينة امرك في الذي تريده »

فصفق الرئيس بخاء احد الرهبان فقال له « انزل هذه الضيفة في غرفة خاصة بها واكرموها »

قضت مع الراهب الى علية اعدوها في طرف الدير من جهة نهر لوار ولهما نافذة مطلة على ذلك النهر فانكأت على السرير وقد اخذ التعب منها ما اخذ عظيماً فاستلقت ونامت واستغرقت في النوم ولم تفق الا على قرع الجرس يدعو الرهبان للغداء فنهضت والتمنت بشياها واطلت على النهر فبغتة لما شاهدته عن بعد من السفن الصغيرة المتراقبة صنوفاً كالجسور وقد اخذ الناس في العبور عليها الى هذه الضفة ومعهم الاعلام اشكالاً والواناً فعلمت انهم جنود شارل فوقفت تنظر الى مجرى النهر وقد رجعت بها افكارها الى مريم وتذكرت العهود التي تربطها بذلك النهر وما يتوقف على الجيшиين هناك من الامر المهام . وكانت كثيرة الاطلاع على احوال الانفرنج وقد علمت انهم لم يبق عندهم رجل شديد غيره شارل هذا فاذا دارت الدائرة عليه فالغابة ل المسلمين على كل اوربا اذ لا يقف في طريقهم واقف بعد ذلك . واذا كانت الغلبة للافرنج فلا مقام ل المسلمين هناك ابد الدهر — واسد من ذلك وطأة عليها ان العرب اذا لم يقطعوا نهر لوار لم يبق لها ولا لابنته عيش . فلما تذكرت ذلك مدت يدها الى جيبيها وانفقت المحفظة وفيها كل سرّها واستخرجتها وقبلتها ولم ثبت ذلك ان دمعت عينها واحست من تلك الساعة بشوق شديد الى مريم بعد ذلك الغياب الطويل وهي لا تدري كيف حالها على انها لم تكن تخاف عليها احداً لعلها بتعقلها وبعناده عبد الرحمن بها — استغرقت في تلك المواجهات وعينها تنظران الى نمير الجنيد وقد استغربت كثرةهم على الضفتين وكانت تسمع صوت الطبول مع بعد المسافة لأن المواء كان يهب من الشمال والشرق والصوت يأتي معه — قضت ساعة في ذلك سامة ولو تركت لنفسها لانقضى النهار

ولم تنتبه ولكنها ما لبشت ان سمعت قرع الباب فتحولت وفتحته وإذا براهب ومعه خادم يحمل خواناً عليه الاطعمة فقدماه لها وخرجا فاحسست بالجوع وكانت قد نسيت نفسها بخلست ولم تزدرد اللقمة الاولى حتى تذكرت حساناً ورفيقها إِلَرَاهِب فصقت فباءها خادم فطلبت اليه إن يستقدم خادمهما من عند بواب الدير فذهب ثم عاد بحسان وهو بعبادة الرهبان وشعره لا يزال منبوشًا فدخل وتأدب فامرته ان يقفل الباب وراءه فلما خلت به دعنة للجلوس فأجبى فقالت «دعنا من التجمل فانك من اعز الأعزاء إلى» واي عزيز يضحي نفسه في مصلحة صديقه او صاحبه كما فعلت فاسمح لي ان اعاملك معاملة الصديق فاجلس وكل معي »

فتراجع وقال «اما الجلوس في حضرتك فاطيئك به واما الطعام فلا حاجة لي به لاني اكلت مع بواب الدير الساعة وقد شغل بالي لابطائك في دعوتي وخفت حبوط مسعاك فارجو ان تبشرني ... هل افاحت مع رئيس الدير؟»

قالت «امد الله على ذلك ولم يبق الا ان نبلغ نتيجة اعمالنا الى الامير عبد الرحمن لعلم كيف يتصرف مع تلك الظاهرة ... وain جند العرب الآن يا ترى»

قال «قد علمت من حدث داريبي و بين بعض الرهبان في هذا الصباح ان العرب أصبحوا على مقربة من هذا المكان ولكنهم قادمون من جهة الغرب وان جند شارل قادم من جهة الشرق وسيلتقي الجيشان في هذه الساحة جنوبى هذا الدير»

بغتت وابرق اسرتها معاً وقالت «هل انت واثق من ذلك يا حسان؟»

قال «هذا الذي سمعته يا مولاتي وهو متواتر واظنه صحيحًا»

قالت «فعلينا الاسراع في ابلاغ الرسالة وكنت اود ان اذهب انا ايضاً معك لولا اشتراط الرئيس بقائي هنا لغرض لا اعلم»

قال «لا يأس من بقائك في الدير لأنك تكونين هنا في مأمن من كل شرّ لانه فضلاً عن امتناعه بالأسوار والابراج فهو محظى من الجيشين — واتركي ما بي من المهام على فاني افعل ذلك ان لم يكن اكراماً لك فاكواماً لنفسي وفي فوز العرب فوزي وفي سقوطهم سقوطي»

فتذكرت سالمة ما كان من حدث رودرييك . وقد فانتها ان تخبره به بالامس

فقالت «بورك فيك وعندك خبر جديد يهمك اكثرون من كل ذلك ...»

فقال «وما هو يا سيدتي؟»

قالت «الا تذكّر حفيديك سعيد ..»  
 فاجفل عند سماع ذلك الاسم لطول مامّر به من الأيام على اغفاله وهو يحسبه في  
 عداد الاموات وقال «كيف لا تذكّره ؛ رحمة الله ورحمة والده»  
 قالت «انه لم يمت يا حسان ..»  
 قال «من ؟ سعيد ؟ سعيد حي .. اين هو ؟»  
 قالت «هو في معسكر الدوق اود واسمه عندهم رودريك» وقصت عليه بعض خبره  
 فاطرق واستغرق كأنه في حلم ثم رفع بصره وقال «وهل هو هناك الان ؟»  
 قالت «لا ادري واذا كان هناك فانه يكون مسجوناً»  
 قال «ساطلبه وابحث عنه بعد ذهابي برسالتك الى الامير عبد الرحمن»  
 فانجذبها منه اى شار خدمتها على البحث عن حفيده مع شدة قلقه عليه فلما فرغت من الطعام  
 امرت حساناً ببناءها بهدادٍ وتناولت منديلاً وكتبت عليه رسالة الى عبد الرحمن ولقتها  
 ودفعتها الى حسان وقالت له «سر بحراسة الله واذا احتجتم الى شيء فاني مقيمة هنا .  
 وارى قبل ذهابك ان تصلح من شائك وتزيّناً يزي الرهبان لتأمن غواصات الطرق . واظن  
 رفيقنا الراهب عائداً الى ديره فاصطحبه واقره السلام عني ..»  
 فودعها حسان وخرج

## الفصل الرابع والستون

فانطبع الى ما كان في معسكر عبد الرحمن بعد طول سكتنا عنه واشتغالنا بمحديث  
 سالمـة - تركناهم قرب مضيق دردون بعد ان فرّ الافرنج من وجوههم فشكروا هناك  
 بانتظارون رجوع سالمـة من مهمتها ، وقد رأيت ما كان من مقتل بسطام وفشل ميونة  
 وعرف القاريء أنها لمباجة بنت الدوق اود وكانت بارعة في الجمال والدهاء كما رأيت وقد  
 وضعت نفسها موضع المبة خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ولو لا  
 سالمـة لظل امرها مكتوماً . وكانت سالمـة قد عرفتها منذ قابلتها في اخلياء ولكنها خافت منها  
 على كشف سرها هي فاجلت الامر الى رجوعها ولو علمت حقيقة غرضها ما صبرت عن كشف

امرها بـ فظلت ميوننة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون انها من حظاها لماجحة وهي لاتنذر وسعاً في عرقلة مسامي العرب بكل سبيل . فلما فرغت يدها من واقعة دردون وتخلاصت من التهمة عمدت الى احد شياطينها فبعثت معه الى والدها كتاباً انبأته به عن هممة سالمة والغرض الذي ذهبت من اجله الى بوردو وبواتيه وغيرها وحرضته على القبض عليها لانه اذا حبسها فكانه حبس نصف جيش المسلمين . فلم تدركها المكيدة الا على ابواب بواتيه كما رأيت . وكانت ميمونة قد تتحقققت عجز والدها عن دفع ذلك الجند من العرب بعد ما شاهدته في الواقعتين الاخيرتين بفضل اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها فعمدت الى شيطانها الاخوي وبعثت معه الى والدها تستجهش على استنجاد شارل لعلها ان اباها لا قبل له بذلك وحده . ومن غريب دهائهما واقتدارها انها كانت شديدة التاثير على والدها لا تكاد تشير عليه بـ امر الا انفذه لاعتقاده بـ شعقيها وسعة اطلاعها خصوصاً على احوال العرب بعد الاقامة بينهم اعواماً . ولما جاءه كتابها كان قد يئس من الفوز وخاف على نفسه فوافق رأيها مصلحته فبادر الى تخابر شارل دوق اوستراسيا فابى الدعوة لعله انه اذا انتصر على المسلمين انتصر على اود وملك فرنسا كلها

اما عبد الرحمن فـ لما طال غياب سالمة ملـ الانتظار وبعث يفتقدها في بوردو فعلم انها خرجت منها منذ ايام وكانت مرعى اشتغالها بهانيء واستغرافها في لبع العواطف اشد الجميع قلقاً على والدها وكان هانيء يختلس الفرص في اثناء الاقامة هناك ويجمع مريم اما في انجباء او في الصحراء وبخادثان ويتشاركيان في غفلة من الرقباء وعبد الرحمن يغض النظر حتى تكمشت الحجة بينهما وكادا يتناisan الحرب واسبابها لو لم يكن زواجهما متوقف عليها وعلى اختراق اكتيانيا الى نهر لوار . ولذلك فـ ان هائماً لم يكن يفتر عن تحرير عـ عبد الرحمن على المسير قبل فوات الفرصة واستعداد الاعداء وعبد الرحمن يأخذ الامر بالتوذة والتـ انيـ حتى جاءهم الجوايسـ ذات يوم باستنجاد اود لـ شارل فـ عـ عبد الرحمن جلسـ من الامراء حضره هانيء فـ اطلعـهم على الخبر فقال هـ انهـ « وهذا ما كـ نـتـ اـخـافـهـ ولـ ذـكـ كـ نـتـ اـسـتعـجـلـ الـ اـمـيرـ فـ الـ نـهـوضـ »

فـ قال عبد الرحمن « فالـ ذـيـ أـرـأـهـ انـ نـبـادرـ حالـاًـ إـلـيـ المـسـيرـ »

قال هـانيـهـ « وهذاـ هوـ رـأـيـ »

ولـ بـ ثـ عـبدـ رـحـمـنـ سـاـكـتاـ لـ يـسـمـعـ آـرـاءـ سـائـرـ الـأـمـرـاءـ وـ فـيـهـمـ اـمـرـاءـ الـبـرـبـ فـ لمـ يـفـهـ اـحـدـ مـنـهـمـ بـ كـلـمـةـ فـيـخـافـ ذـكـ السـكـوتـ وـ اـدـرـكـ هـانيـهـ خـوفـهـ وـ عـلـمـ اـنـ مـطـامـعـ الـبـراـبـرـ مـنـصـرـةـ

إلى الغنائم والسبايا وأنهم لما علموا بالتحاد "جيشي أكتينيا وأوسترا시ا خافوا على أنفسهم فوق هاني، وهو يتنسم وقال « لا حاجة بنا إلى طول البحث في هذا الشأن فان الله قد ضم جيش أوسترا시ا إلى جيش أكتينيا غنيمة لنا لأن عند أولئك من الأموال والتى حف ما لا تقاوم به تحف هذه البلاد وإذا دخلينا الحشين مرة واحدة ملكتنا هذه الأرض الكبيرة كلها وقطعناها حتى نذهب إلى رومية والقسطنطينية فتم فتح العالم كله ونشر الإسلام في الناس كافة ويكون الفضل في ذلك لسيوفكم وخيولكم » قال ذلك وقد مزج طلب الغنائم بالجهاد حتى لا يخجل طالب الغنائم من اجابة الدعوة لأنها جامعة للاثنين فما أتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد « الخيل الخيل »

فقال عبد الرحمن « بارك الله فيكم ونفع الإسلام بكم » ثم أمرهم بالاستعداد للرحيل ولما انصرف الامراء بقي هاني وعبد الرحمن ولاحظ هاني فيه اثقباً فقال « ما بالك من قبض النفس وقد اطاعنا هؤلاء على المسير »

قال « انت تعلم يا هاني إنهم لا يختارون الا طمعاً بالأموال وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينؤمنون تحت أنفاسها فالرجل منهم يكاد لا يستطيع حمل طعامه وغنائمه فيما إذا يقاتلون »

قال هاني « لقد نبهتني إليها الامير إلى امر ذي بال – ان تعلق هؤلاء البربرة بالغنائم ضربة ثقيلة على هذا الجيش ليس لاستئثارهم بها دون سواهم ولكنهم يشتغلون بها عن الحرب اذا حملوها انقلتهم واعاقت حركتهم وإذا خلفوها خلفوا قلوهم معها فلا بد من حيلة لنجاتها عليهم في ذلك »

فأطرق عبد الرحمن ثم وقف فوق هاني معه وتشاغل عبد الرحمن بصلاح عمامته وهاني بصلاح بنده سلامة ثم التق عبد الرحمن بعياته وهو يقول « لا بد لنا من النظر في هذا الامر – وفي اعتقادي ان ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب إلى الحرب بدونها ارجح لنا جميعاً ولكن من يحمس أن يقول هؤلاء البربرة تخليوا عن غنائمكم ونحن انما رغبناهم في الحرب بذكر الغنائم والأموال » فضحك هاني وقال « اذنك لحظت ذلك من عبارتي في هذا الشأن – وقد كان في نفسي ان ارغبهم في سرعة المسير إلى تورس بذكر ديرها الغني لأن بقربيه ديرأ يقال له دير القديس مرثيان هو من أغنى الديور الافرنجية <sup>(١)</sup> ولكنني خفت اذا أنا قلت لهم ذلك ان يشتغلوا بهم عن الحرب

فـكـسـبـ عـدـاـوـةـ الـاهـالـيـ وـالـكـهـنـةـ فـوـقـ عـدـاـوـةـ الجـنـدـ »

قال عبد الرحمن « لقد احسنت بالسکوت عن ذلك والذى ارطه انسنا مقي وصلنا ساحة الحرب بـنـدـبـرـ تـدـيرـاـ لاـ يـغـضـبـ اـحـدـاـ فـجـعـلـ هـذـهـ الـفـنـائـمـ فيـ مـكـانـ خـاصـ فـيـكـونـ اـصـحـابـهاـ فيـ اـطـمـشـانـ لـاـ يـخـافـونـ عـلـيـهـاـ بـأـسـاـ منـ الـعـدـوـ اوـ نـجـعـلـهـاـ وـرـاءـ الـاخـيـةـ اوـ يـئـنـاـ وـيـنـ الجـنـدـ »

فـتـنـيـ هـانـيـ وـهـوـ يـقـولـ «ـ سـنـنـطـرـ فـيـ ذـلـكـ فـيـ حـيـنـهـ »ـ وـخـرـجاـ لـاـ عـدـادـ مـعـدـاتـ السـفـرـ اـمـاـ مـرـيمـ فـقـدـ كـانـتـ لـاـ تـزـالـ عـلـىـ اـعـتـقـادـهـ بـصـادـفـةـ مـيـمـونـةـ وـهـذـهـ لـمـ تـكـنـ تـذـخـرـ وـسـعـاـ وـلـاـ تـضـيـعـ فـرـصـةـ لـاـجـتـذـبـ بـهـاـ قـلـبـ مـرـيمـ بـالـاطـرـاءـ وـالـاعـجـابـ وـمـرـيمـ لـسـلـامـةـ نـيـتـهـ وـصـدـقـ مـحـبـهـاـ كـانـتـ تـشـقـ بـمـيـمـونـةـ الـثـقـةـ التـامـةـ - وـلـمـ يـكـنـ ذـلـكـ عـنـ جـهـلـ اوـ بـلـهـ فـيـهـاـ وـلـكـنـ حـرـ الضـمـيرـ يـصـدـقـ النـاسـ وـيـعـتـقـدـ أـنـهـ يـصـدـقـوـهـ فـاـذـاـ سـمـعـ قـوـلـاـ صـدـقـةـ لـسـلـامـةـ نـيـتـهـ وـصـدـقـ طـبـجـتـهـ .ـ وـفـيـ جـلـةـ مـاـ اـسـتـخـدـمـتـ مـيـمـونـةـ مـنـ اـسـبـابـ اـخـدـاعـ لـمـرـيمـ اـنـهـاـ كـانـتـ تـحـمـيـلـهـاـ بـحـوـادـثـ وـقـعـتـ هـاـ مـعـ عـبـدـ الرـحـمـنـ اوـ غـيرـهـ تـرـعـمـ اـنـهـاـ مـاـ لـاـ يـفـشـىـ لـغـيرـ الـاـصـدـقـاءـ الـاخـصـاءـ وـتـسـوـقـ اـنـ تـفـشـىـ هـاـ مـرـيمـ شـيـئـاـ مـنـ سـرـهـاـ مـعـ هـانـيـ وـلـكـنـ مـرـيمـ كـانـتـ شـدـيـدةـ الـحـرـصـ عـلـىـ اـسـرـارـ الـحـبـ وـمـيـمـونـةـ تـسـاـيـرـهـاـ فـيـ كـهـنـةـهـاـ فـيـزـيـدـهـاـ ذـلـكـ اـسـتـسـلـامـاـ لـهـاـ فـلـمـ تـكـنـتـ مـيـمـونـةـ مـنـ مـرـيمـ وـقـبـضـتـ عـلـىـ قـهـمـاـ اـصـبـحـتـ مـرـيمـ لـاـ تـفـارـقـهـاـ الـاسـاعـةـ الـرـقادـ اوـ عـنـ لـقـيـاـهـ هـانـيـ اوـ اـسـبـابـ قـهـرـيـةـ

## الفصل الخامس والستون

### ساحة القتال

وـفـيـ صـبـاحـ الـغـدـقـ وـضـوـاـ الـخـيـاـمـ وـشـالـوـاـ الـاـخـمـاـلـ عـلـىـ الـجـمـالـ وـالـبـغـالـ وـسـارـ الجـنـدـ عـلـىـ تـرـتـيبـ تـلـكـ الـاـيـامـ -ـ المـشـاـةـ حـسـبـ قـبـائـلـهـ وـامـامـ كـلـ فـقـيـلـةـ رـاـيـةـ خـاصـةـ بـهـاـ يـحـمـلـهـاـ اـحـدـ فـرـنسـانـهـاـ وـقـدـ يـكـونـ لـلـقـيـلـةـ عـدـدـ رـايـاتـ تـلـاعـبـ فـيـ الـهـوـاءـ حـتـىـ اـذـاـ نـظـرـ نـاظـرـ اـلـىـ ذـلـكـ الجـنـدـ وـرـايـاتـهـ عـنـ بـعـدـ تـوـهـ الـرـايـاتـ اـشـرـعـةـ وـظـنـ حـمـلـهـاـ سـفـنـاـ وـالـنـاسـ بـحـرـاـ وـمـسـيـرـهـمـ موـجاـ يـتـلاـطـمـ وـكـانـ عـمـائـهـمـ الـبـيـضاـ وـيـجـوـانـهـاـ رـؤـوسـ الـاـسـنـةـ تـكـسـرـ المـوـجـ عـلـىـ سـطـحـ الـبـحـرـ .ـ وـكـانـ فـيـ جـلـةـ المشـاـةـ رـجـالـ الـبـرـ بـحـسـبـ قـبـائـلـهـ وـمـعـهـمـ سـائـرـ الـمـوـالـيـ مـنـ غـيرـ الـعـربـ كـالـبـطـ وـالـشـوـامـ وـغـيرـهـمـ

وهم سائرون بازاء العرب . والبسم تحالف عن البسة العرب بعض الشيء . واما الفرسان فقد اصطفوا فرقاً على حدة تقدمها الرایات بحسب الامراء وهاني أكبرها جميماً واكثر الفرسان بالادراج المتباعدة على رؤوسهم الحوذ الفولاذ . وكان عبد الرحمن يسير تارة بجانب هانيء امام الفرسان وطوراً يطوف حول المعسكر يتفقد احواله خوفاً من الفشل . ووراء المشاة والفرسان اصحاب الاخية ومعهم النساء والعياط في هوادج الا مريم فكانت على الجواب كاحد الفرسان . وكانت ميمونة تظاهر بالرغبة في رفقها فتركب جواداً الى جانبها . ويجيء وراء تلك الحلة ساقفة الجندي واماهم الاحمال والاتهال وكان عبد الرحمن وهانيء اذا دارا حول ذلك الجيش او نظرا اليه من افة اطمئنا لكتبه وتوسما النصر به وكان المسلمون يسيرون ولا يلاقون في طريقهم الا حقولاً مهجورة وادوات متروكة وبيوتاً خالية فإذا خذلوا ويتكون ما شاؤا حتى اذا امسى عليهم المساء يخطرون رحالم فياكلون وينامون ثم ينهضون . فلما وصلوا بواتيه لم يلاقوا منها كبير مقاومة لأن معسكراً اود كان قد بعد عنها وقل من دخل المدينة وانما كان مقصدتهم مدينة تورس قاعدة تلك الناحية وعندها جند الافرج

وانباءهم الخبراء في ذات صباح انهم اصبحوا على مرحلة من نهر لوار فاستراحوا واصلحاوا شؤونهم وساروا وعبد الرحمن وهانيء ينقدمان الجندي نحو ميل ومعها كبير الخبراء لاستكشاف موقع العدو قبل النزول ويتشارا مكاناً يعسكرون فيه . وفي اصيل ذلك اليوم صعدا في راية على ضفة نهر شير ووليا وجويها نحو الشرق فكان نهر لوار الى يسارها عن بعد الشمس ورايهما فنظرتا الى مابين ايديهما شرقاً فاشرفا على سهل واسع مثلث الشكل قاعدةه ضفة نهر لوار الى يسارها ورأس المثلث في الجنوب . وشاهدوا عنده خياماً واعلاماً وهو معسكراً للدوق اود . وبين هذا المعسكرا وضفة نهر لوار مسافة ميلين سهل . واسع يصلع ميداناً للقتال خلقيه من الاحزان والاغواز حتى ينتهي عند قاعدة المثلث بالابنية على ضفة النهر واقربها اليها مدينة تورس ثم محلة دير القديس مرتين ومع بعدها عندها عرفها من خواص ديرها وقبة كنيستها . وشاهداً وراء تلك الحلة تمايل النهر حرقة وغباراً عرفاماً يتحلل ذلك من الاعلام والخيول انها حرقة جند قادم من جهة النهر - فامر عبد الرحمن رجالاً في ركباه ان يمضي الى جنده المسلمين فيما مرهم بالوقوف حيثهم ربئاً يعود من هذا الاستكشاف . ثم التفت الى الخبر وكأن من الافرج وقد تعلم العربية وقال « ايس هذا دير القديس مرتين »

قال الخبير «بلي يا مولاي هذا هو اغنى مدیار النصرانية في هذه البلاد . . .»  
قال «وما الذي نراه وراءه»

قال «هو جند الدوق شارل يعبر النهر من فنجه الشماليه الى الضفة الجنوبيه وقد  
علم من رجل لقيته في هذا الصباح قادماً من محله وهذا الديران الدوق المذكور اخذه منذ  
بعضه ايام في تدعية رجاله على جسور من السفن ولم يفرغ بعد لكثره ما جاء به من  
الرجال والاحمال»

قال «ألا يعرفون عدد جنده . . .»

قال «لم يجصوه ولكن لاريبد عندي ان الدوق شارل جرد كل ما يستطيع  
تجريده من قبائل الافرنج في اوستراسيا وما وراءها لعله بشدة بطش المسلمين وقوتهم ولا ن  
على حربه هذه يتوقف اما انتشار سلطانه على فرنسا كله او خروج اوستراسيا من يده»  
فقال هاني، «وسينال الثانية باذن الله . . .»

فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلاً «اليس مازاه الى يميننا في الجنوب معسكر الدوق

او شريبد مضيق دردون؟»

فضحك الخبير وقال «بلي يا سيدى — وهو شريبد في كل حال . . . لانه سواء انتصر  
عبد الرحمن او شارل . . . فان سلطانه على اكتيانا ذاهب من يده امامكم واما لشارل  
فحاله تستوجب الشفقة . . .»

فاكتفى عبد الرحمن بما سمعه ونظر في اختيار مكان يعسكرون فيه فقال هاني، «لا  
اري لنا مكاناً نعسكر فيه خيراً من النقطة التي نحن فيها فنقطع هذا النهر الصغير (شيو)  
ونعسكر وراءه فنكون على بعد واحد ثقيرياً من هذين الجيшиين وإذا تصماماً فنكون متقابلين  
ويكون هذا الماء وراءنا فإذا اقتضت الحرب ان ننقمق لا يسمح الله قطعنا النهر وجعلناه  
خندقاً يبتنا ويلهمهم»

فاعجب عبد الرحمن برأي هاني، وابتسم له ابتسام والد سمع من طفله عباره تدل على  
الذكاء وقال «لقد رأيت الصواب وأزيد على ذلك ان نوك اشقانا واحمالنا ونساءنا هنا  
ولا يقطع النهر الا الرجال المحاربون فنكون في اطمئنان على اموالنا واعراضنا . وأرى ان  
نترك هنا ايضاً الغنائم التي اثقلت رجالنا فيذهبون الى المعركة خفافاً . وقد اخبرتك ان امر  
هذه الغنائم اقلق راحتي فإذا لم نقنع رجالنا وخصوصاً الباربرة في التخلٰ عنها يوم الحرب  
كانت سبباً في فشلنا . وانت تعلم ان الرجل اما يغلب مجده حركته»

## الفصل السادس والستون

### مسألة الغنائم

قال «عقد مجلساً اذا امرت بخبار الامراء فيه ونقعنهم في وجوب التخلی عن الغنائم ونبين لهم ما يتربى على تحمل اثقالها من الاضرار ونرى ما يكون» — وكان في رکاب عبدالرحمن ايضاً صاحب النفير (البوق) فاعره ان يذهب الى المعسکر فيخبر الامراء ببيت الجند هذه الليلة حيث هم ثم يدعوا الامراء الى تلك الاكمة حيث هما واقفان للخبارة في شأن المكان الذي سيعسکرون فيه — فاسرع الرسول ولم تمض هنئية حتى ثقاطر الامراء على افراسمهم فلما وصلوا تحول عبد الرحمن عن فرسه وهانه عن ادهمه فتحول سائر الامراء وسلوا افراسمهم الى الخدم ووقفوا على تلك الراية فاطلوا على سهل تحف به ترس وعجلة القدس مررتين من الشمال الى يسارهم ومعسکر اود من الجنوب الى يمينهم . فقص عليهم عبد الرحمن ما خطر له بشأن المكان الذي يعسکرون فيه بحيث يكون الماء وراءهم الى ان قال « واستشيركم في امر خطولي واظن فيه خيراً لنا وهو ان لا يعبر هذا النهر مثنا غير الرجال المخاربين وإن تختلف النساء والاحمال هنا وعهم من يحميهم .. فما رأيكم ؟ .. »

فقال اثنان من امراء القيسية «لقد رأى الامير صواباً .. » فوافق سائر الامراء على ذلك

فقال عبد الرحمن وهناك امر ذو بال طالما خفته على هذا الجند — وذلك ان جندنا قد اصبح من كثرة ما افاء الله على المسلمين من الغنائم متقلاً بالخف والاموال حتى لقد يعسر على الرجل ان يحمل غنائمه فكيف يستطيع القتال بهـ .. ؟ فالذى اراه ان يجعل الغنائم المذكورة في مكان امين في جملة ما سخلفه هنا عند ذهابنا في الغد فتجعل تلك الذخائر والخف في خيم خاصة يحرسها من ثقون به من رجالكم كما فعلنا بقرب بوردو

فلم يتم عبد الرحمن كلامه حتى اعترضه شاب من امراء البربر قائلاً «اما نحن فلا نوافق على هذا الرأي .. ولا نذكرنا بما اصابنا في بوردو على اثر مثل هذا العمل .. فقد افردنا الغنائم هناك حسب اموك فكانت النتيجة انا خسرنا اكبر امرائنا وشجع رجال هذا الجند»

فلا سمع عبد الرحمن تلك العبارة وما تنطوي عليه من التعريض بقتل سبطان مع ما تدل عليه من الضغينة والحقد خاف الانقسام اذا هو اجابه او وبحه لعله انه لم يحسن على هذا

القول إلّا وهو مدفوع من جماعة . فتظاهر عبد الرحمن بالسذاجة والاسف وقال « بالحقيقة اننا خسرنا في تلك الواقعة خسارة يصعب تعويضها لأنّ الامير بسطاماً يندر مثاله . ولكنني لا ارى علاقة بين مقتله والغنائم » ثم التفت إلى جمهور الامراء وقال « واظنك توافقوني على تسامي ذلك الحادث والاشغال بما هو اهم منه وقد عرضت عليكم رأياً فاذا كنتم ترون فيه خطأً ينوه لأن الغرض واحد والمصلحة واحدة »

فتهامس الامراء وتداولوا ملياً ثم قال احد امراء اليونية « ارى الامير مصيباً في رايته كل الاصابة لأن الرجل لا يستطيع الحرب فهو مثقل بالاحمال — واذا خسر الانسان غنيمتة وانتصر في حربه عوض اضعافها »

فوافقه على ذلك كثيرون ولحظ هانئ ان البربر لا يزالون سكتاً بخاف الفشل فقال « وازيد على ما قاله الامير . . . اننا اذا انتصرنا في هذه الواقعة كانت غنائمنا فوق ما تدركه العقول . لأن الدوق قارل (شارل) صاحب هذا الجندي (واشار إلى جند شارل) قد حمل معه كل ما في بلاده من التحف في الادبار والكنائس والقصور . . . فاذا ظفرت به ظفرت بالغنى والفخر والسعادة » قال ذلك بهجة الاخلاص وهو يبتسم ويترفس بيوجوه الامراء

فلم يجد امراء البربر ما يدفعون به قوله فتكلم شيخ من امرائهم وقال « لا مشاحة في ان الجندي لا يستطيع الحرب الا اذا كان خفيناً ولكن من لنا بن يقع افراد الجندي ان يتركوا غنائمهم التي اصابوها بعد شق الانفس لهم لا يطمعون بamarah او قضاء وانما ربحهم من هذه الحرب ما يرجعون به من الغنائم . فعندى اننا بدلاً من ان نترك الغنائم هنا نحملها معنا في صباح الغد ونجعل لها مكاناً بجانب عسكرنا فان ذلك ايسرا على اصحابها من ان يتركوها في مكان يحول بينهم وبين النهر »

## الفصل السابع والسبعون

رسول امين

فلم ير عبد الرحمن بذلك من الموافقة ، فعادوا إلى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك واصبحوا في اليوم التالي واصعدوا في عبور النهر اما خوضاً او عموماً على قوارب نصبوا لها عرضاً وكان ذلك

النهر جدولًا صغيرًا لا يبعد شيئاً بالنظر إلى تهير لوار وهو يصب فيه . فعبر أولاً عبد الرحمن وهانىء ليعبينا أماكن الخيم فوقا على مرتفع اطلأ منه على ذلك السهل وأخذنا في تعين الأماكن والجند يستغلون في نصب الخيم وغرس الأعلام إلى قرب الأصيل . فلاحت من هانىء التفاة وهو ينظر إلى الأفق فرأى شبيجاً يعدو نحوها عدواً سريعاً فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه لباس الرهبان فازداد استغراباً ثم رأه سقط على الأرض وهو يشير بيده نحوه هانىء فركض هانىء فرسه حتى وقف عنده فإذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض بأحدى يديه على جنبه كانه يشكو المآه هناك وامسك بيده الأخرى شيئاً أو ما به نحو هانىء فترجل هانىء حالاً وارد أن يعين حساناً على الجلوس فاشار له بعينيه أن يتركه فسأله عن أمره فقال بصوت متقطع وهو يلهمث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الألم « أرسلتني مولاتي ... سالمة بر رسالة إلى الأمير عبد الرحمن ... من دير القديس مرتين ... فحملتها ( وأشار بيده والرسالة فيها ) حتى إذا خرجت من الدير ورأيت أعلامكم عن بعد أسرعت نحوكم فما شعرت إلا ونزل أصابني في جنبي من خائن أظنه عدلاً الأحول ... فايقنت أني مائت ... فاسرعت حتى ادرككم بهذه الرسالة لأنها في غاية الأهمية ... فسقطت قبل الوصول إليكم ... فهذه هي الرسالة »

ثم انقطع صوته وتزايد لهشه واغمض عينيه وارخي بيديه . فناداه هانىء فلم يجب وكان عبد الرحمن قد شاهدهما واسرع اليهما وسمع كلام حسان . فلما رأه في تلك الحال اسف حاله أسفًا شديداً وكذلك هانىء وترجع عنده انه مائت ولكن الامل لا ينقطع من الحياة ما دام النفس فاشار عبد الرحمن إلى هانىء ان يستقدم احد الاطباء

فركب بنفسه على ادھمه وركبه نحو الجند وصاح « هاتوا طيباً » وبعد قليل جاء الطيب وهو من نصارى الاندلس وقد قضى في خدمة العرب زمناً طويلاً . فاسرع إلى حسان وجس نبضه فإذا هو ميت لا حراك به فامر ان يدبوا غسله ودفعه نحوه إلى خيمة خاصة بذلك

اما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضه واخذ يتلوه وهانىء يسمع فإذا فيه :

« الى الامير عبد الرحمن الفاتي »

« اكتب هذا اليك من دير القديس مرتين وقد وصلت اليه بعد مشقات يطول شرحها ساقصها عند اللقاء القريب ان شاء الله ... وإنما استعجلت هذه الرسالة لا خبرك بأمر هام اطلع عليه في اثناء سياحتي هذه . وهو ان المرأة التي تسمى نفسها ميمونة اما هي

لباجة بنت الدوق اود وقد نصبت لي الحبائل الكثيرة في اثناء هذه السياحة — وهي التي حرّضت اباها على استنجاد صاحب اوستراسيا بكتاب ارسلته مع خادمها الاحوال فاحدروه وافعلوا بها ما شئتم . ثم اني ابشركم بأن رئيس هذا الدير نائم على شارل وقد وعدني بالمساعدة ولكن استيقاني عنده رهينة . وإنما في امن واكرام اطلب لكم النصر . واوصيك بفلادة كبدى مريم . والسلام » سالمة

فما جاء على آخر الكتاب حتى بعث قنطر الى هاني ثم أعاد نظره الى الكتاب وقد أخذ منه الاندهاش مأخذًا عظيماً فقال هاني « لم اكن اعتقد في هذه المعلومة خيراً وكانت مع فرط جمالها اشعر بعنفور من منظرها لسبب لا اعلم » فكان قلبي داني على حقيقتها وكثيراً ما كنت استغرب اكرامك لها ٠٠٠

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « كنت اراعيها على حذر ولم اتفق بها قط ولكنني كنت اتوقع منها نفعاً في اثناء حربنا لانها من اهل هذه البلاد . وقد قضي الامر الآن فيجب ان تتدبر في شأنها فما الذي ترى ان نفعله » قال « ارى ان نقتلها حالاً ونزيل افسنتها منها »

قال « سننتظر في ذلك بعد الفراغ من ترتيب هذا المعسكر »

قال ذلك وركب جواده وتحول نحو الجندي لاتمام ترتيبهم — فجعل معسكره في نحو ثلث الضلع الممتدى بين تورس ومعسكر اود وجعل فسطاطه في وسط المعسكر نحو الامام وبجانبه خيمة هاني يليهمما بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة وخيمة اميرها في وسط خيمها ورابة الامير مغروسة في باب خيمته . وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة امراء وعدة رايات باعتبار البطون والافخاذ . وجمع بين القبائل المترابطة في النسب المضرية في جانب واليمنية في جانب وجعل البراءة في جانب آخر جنوبى المعسكر ببقعة اختياروها هم وعبد الرحمن يسايرهم لأنهم أكثر فئات الجندي عددًا . فترتبو باعتبار قبائلهم وبطونهم وكذلك الامم الأخرى من الانباط والشومان وهم أقل سائز الفئات . ثم أمن بالغناائم ان توضع في خيم نصبوا لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب . والبراءة طلبوا ذلك لتكون غنائمهم اقرب الى مضاربهم كلهم خافوا ان يسطوا عليهما العرب ويأخذوها منهم . ولنصبوا مرابط الحيل وراء المعسكر مما يلي التهوي الصغير

وكان هاني في اثناء ذلك الترتيب يطوف المعسكر لمساعدة عبد الرحمن وهو يفكّر في ما قرأه عن ميمونة وسالمه وخطر له ان مريم اذا عرفت بمقام والدتها في ذلك

الدير ربما طلت الذهاب اليها فارتاح الى ذلك الفكر لاعتقاده انها تكون هناك في مأمن على حياتها ولو قضي على العرب بالامزام . على انه ترك الاختيار لها وان كان بالحقيقة لا يقوى على فراقها

## الفصل الثامن والستون

قضوا ذلك اليوم واليوم التالي في الانتقال والترتيب حتى لم يبق في الضفة الأخرى غير الاخيبة والاحمال الثقيلة ونحوها وفي أصيل اليوم التالي سار عبد الرحمن وهاني معه الى الاخيبة المحكمة ميمونة سيداً وكان هاني لا يرى باعثاً على المحاكمة ولو ترك الامر له لقطع رأسها بسيفه بلا سؤال ولا جواب . اما عبد الرحمن فاراد التصرف بالحكمة والتؤدة فلما وصلا الى الحباء الاكبر ترجل ودخل القاعة وبعث عبد الرحمن الى القبرمانة بجاءته بخلالها ودمالجها وهي تترجرج في مشيتها كأنها في بعض قصور طليطلة في رغد ولعيم . فلما وصلت الى عبد الرحمن حيثه . فقال « اين ميمونة »

قالت « لم أشاهدها من مساء الامس واظهرها مع مریم في غرفتها »

قال « ابعش اليها ان تأتينا وحدها »

فضفت القبرمانة فجاءها بعض الصقالبة الحصيان فقالت « ادع السيدة ميمونة » . وقل لها ان الامير عبد الرحمن يحتاج اليها » . وقد كلامه بالفاظ عربية مشوشة على نحو ما ينطق بها غرباء اللغة اذا تعلموها التقاطاً من أفواه الناس شأن اولئك الصقالبة والافرنج وأمثالهم من كانوا في خدمة العرب في تلك الايام

فasher الصقلي برأسه اشاره الطاعنة وخرج ولبنوا في انتظاره وهاني يود الانصراف ليرى مریم ويخبرها عن والدتها ويكون هو اول من يخبرها بذلك — وفي هذا السبق لذلة يشعر بها كل انسان وخصوصاً بين الحسينين — فان الرجل اذا سمع خبراً جديداً وهو بعيد عن امرأته او خطيبته او حبيبته فإنه يشعر بعيل شديد الى اطلاعها عليه . واذا كان ما سمعه من قبيل السرّ كان اشدّ رغبة في مكاشفتها به وكلما بالغوا في تحريضه على كتمانه ازداد رغبة في كشفه وهو لا يعد ذلك افشاء للسر لانه يكشفها به سراً

ويوصيها أن تكتمه • وربما كان السبب في هذه المكاشفة شعور الحسينين بالامتناع قليلاً  
وروحاً بحيث لا يسوغ مع ذلك الامتناع تكتم • وزد على ذلك ان المسارّة تزيد في توثيق  
عرى المؤدة فإذا تواطأ أشان يزداد توادها وثوقاً إذا كان بينهم ما سرّ لا يعلم به سواهـاـ •  
ولهذا السبب عـكـانت المحافظة على الاسرار الماسونية من أقوى أسباب ثباتها وإن لم  
تكن تلك الاسرار مهمة فكيف اذا كانت مهمة • بل كيف اذا سمع المحب خبراً يتعلق  
بشخص حـيـيهـ كـاـكـانـ الـحـالـ مـعـ هـاـنـيـهـ فـاـنـ الـحـبـ مـتـعـلـقـ بـهـرـيمـ نـفـسـهـاـ فـلـاـ غـرـوـ اـذـ رـأـيـاهـ  
شدـيدـ المـيلـ إـلـىـ مـكـاشـفـتـهـ

على أنه كان من الجهة الأخرى يريد القاء مع عبد الرحمن بعد مجيء ميمونة ليحضره على قتله، فأفطالت غياب الرسول فبعثت القيمة مانة رسولًا آخر وآخر، وبعد برهة عاد الرسول الأول وحده وهو يقول «بحثت عن السيدة ميمونة في كل مظالمها فلم أقف لها على أثر» فبلغت عبد الرحمن ودانى، أكثر من بقية القيمة مانة لعلمه بما لم تعلمه فقال عبد الرحمن «وأين ميمونة يا خالة؟»

قالت «ربما كانت في شاغل ستعود منه قريباً ٠٠»

قال «أبي أريد مقابلتها الساعة اذهبى انت للتفتيش عنها ٠٠»

فهضت وهي تقول «لم ارها من غروب الامس وليس احد أعلم برواحها وغدوها من مرسم » ثم خرجت وهي تهابيل وترجج وطال غياها . ثم عادت ومرسم معها وهي تقول « لم اجدتها في مكان . فهبي بلا شك في غير هذه الاختية » ٠٠

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبة وابتسم لها عبد الرحمن رغم غضبه من ميمونة وحوفه  
من افلاتها بعد ظهور ذنبها . وكان في وجه مريم من المعانى واللامح ما لا يستطيع  
الاظطر معه غير الاعجاب بها والاشواح لرؤيتها فلما فوجئ بها نبى بعد ان ملكت فؤاده واستولت  
على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من التسيم فاصبح عند دخولها كله آذاناً وعيوناً يراقب  
ما يبدو منها أو من عبد الرحمن عند المقابلة . ولا مسوغ لتلك الغيرة غير الحب الشديد  
لان الحب يدعو الى الغيرة حتى من اقرب الناس نسباً وأبعدهم شبة . وهاك لسان حال  
المحب الغير يخاطب حبيبته

اگر علیک من نظری و منی و منک و من خیالک و ازمان

ولو أني وَضْعِتُكَ فِي عَيْوَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا كَفَانِي

اما عبد الرحمن فلما بث ان ابتسنم لريم وأمرها بالقعود حتى ابتدرها بالسؤال عن

ميمونة فقالت « لم أشاهدها من مساء الامس وقد قضيت كل ما مضى من هذا النهار وأنا أبحث عنها لأنها رفيقتي ومعزتي على غياب والدتي »  
 فقال « وهل عرفت سبباً يدعو إلى خروجهما »  
 قالت « لم اعرف شيئاً من هذا التفاصيل ولكنني رأيت منها ما يدل على اضطراب باهلا من أصل الامس فلم اعجا به ولا سألتها عن سببه » ٠٠  
 قال « هل رأيت أحداً جاءها بكتاب أو خطاب في صباح الامس »  
 قالت « لم أشاهد غير بعض الخدم من تعودوا خدمتها » ٠٠  
 قال « هل كان بينهم عدلان الأحول » ٠٠  
 قالت « نعم ٠٠ وكنت قد مضى على مدة لم أشاهده » ٠  
 فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهاني نظرتين تفاهمهما بهما فتحققنا أن عدلان بعد ان رمى حساناً بالليل جاء الى ميمونة وحرضها على الذهاب الى أبيها خوناً من انكشاف أمرها

## الفصل التاسع والستون

هانى و مريم

و كانت مريم تنظر الى هاني و تتوسم في وجهه خبراً وخصوصاً بعد تلك الاسئلة وكانت القهر مانة قد خرجت ولم يبق هناك غير مريم والاميرين ٠ فنظرت مريم الى هاني نظرة اغتنمه عن خطاب طويل عريض ففهم أنها استفهمه عمما يكتمانه ٠ فالتفت الى عبد الرحمن فرأه مستغرقاً في التفكير فقال له « الارجح ان تلك الحائنة علمت باقتصاص أمرها ففررت الى ابها ولكنها لن تنجو من حد هذا السيف باذن الله ٠٠ ٠  
 فبغشت مريم ما سمعته لانه ينافق اعتقداتها في ميمونة على خط مستقيم و ظهرت البفة في وجهها بما تصاعد اليه من الدم و ابرقت عيناها والتفت الى هاني و لم تهالك ان سأله قائلة « وما الذي حدث حتى استوجب هذه المسكينة غضب الامير وعهدي انها من أشد الناس غيرة واصفاهم سريرة ٠٠ ٠  
 فالتفت هاني الى عبد الرحمن وقال « أنا ذن لي بذلك الكتاب ٠٠ ٠

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانيء في طلب الكتاب لانه لم يكن ينوي اطلاع مرسم عليه خوفاً من قلقها على والدتها ولم يجد استياءه من اعادة لاحساس هانيء ولكنها انكر الكتاب وظاهرة أنه لا يعرف مكانه فازدادت مرسم قلقاً واضطراباً وسبق إلى خاطرها ان لذلك الكتم سبباً يسأوها ذكره ولم يخطر ببالها شيء غير والدتها فصاحت بلغتها المعهودة ولم تستطع امساك عواطفها «ما الذي تكتمانه عنى ٠٠٠ دل أصاب والدي شع (شرع) ٠٠٠ اين هي ٠٠٠» قالت ذلك واجهشت للبكاء فثار منظرها في هانيء فلم يتمالك ان قال «اطمئنك يا مريم ان والدتك في خير وأمان» قالت «وain هي ٠٠٠؟»

قال «هي في هذا الدير» وأشار إلى دير القديس مرتين قالت «ولماذا لم تأت إلى هنا العلها مريضة أم مسجونه أم ماذا ٠٠٠» ظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده فدفنه إليها وهو يقول «هذا هو كتابها وفي قراءته حواب كاف»

فتناولته بهفة فلم تستطع رؤية الأحرف مما يغشى عينيه من دموع البغثة والخوف والامل والفرح معاً فمسحت عينيهما بكهما وقرأت الكتاب حتى انتهت على آخره وما وصلت إلى قوله «واوصيك بفلذة كبدك مريم» صاحت «أمامه» وقد خنقتها العبرات ثم اعادت النظر إلى ما ذكرته عن ميمونة فهمت وحسبت نفسها في حلم ثم رفعت رأسها إلى عبد الرحمن وقد تحولت حناتها النسائي إلى غضب وقالت «قبح الله تلك الخائنة ..... قد فهمت الآن سبب اخلاقها بذلك البربرى الاحوال في مساء الامس ..... ولكنها ستندوقي جزاء تلك الخيانة ان شاء الله» ثم سأله عمرن حمل ذلك الكتاب لي تواجهه وتتسارعه من الخبر والدتها فقص عليها هانيء ما كان من أمره وانه مات ودفنه فاستفدت عليه كثيراً حتى بكت ولو لا اشتغال خاطرها بخيانة ميمونة والسوق إلى والدتها لندبته كثيراً لانه ربها منذ طفوليتها وكان ضئيلاً بها حريراً على راحتها وراحة والدتها — ولكنها كانت في قلق عظيم على والدتها وأصبحت لا تصبر عن رؤيتها فنظرت إلى عبد الرحمن بعينين يعشاشما الدمع وتوسلت إليه بصوت يمازجه ذل السؤال وقالت «ألا يسمح لي الامير بالمسير إلى والدي للاشهدها واقبل يدها ثم اعود؟»

فثار عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه إلا الإجابة فقال «لا امنعك من الذهاب إليها

ولكنني احب المحافظة على وصيتها وقد رأيت انها ختمت هذا الكتاب بك ... »  
فقالت « لا بأس عليَّ باذن الله والطريق سهل والمكان قريب وكأنني ارى الديرين من  
هنا فاركب اليه سريعاً ... »

قال هاني « لانخاف عليكِ بأساً بعد ما شاهدناه منكِ في مضيق دردون ولكنني ارى  
ان اسير في ركبك حتى اوصلك الى باب الدير واعود » قال ذلك بنغمة التصميم القطعي  
فاستحسن عبد الرحمن رايته فقال « اذا كان لا بد من الذهاب الى الدير فانهضا الان حتى  
تصلاه قبل الغروب ... هل يحتاج هاني الى استئثار لسرعة الرجوع ... ؟ » مما مرير  
فلا بأس من بقائهما هناك بل هو امن عليها ... »

ففرح هاني بذلك المهمة فنهض وامر بفرس لمريم فلبت ثوبها والتفت بعيالها وركبت  
وركب هاني ادهمه والتفت بعياله واصلاح عامته وساقا الجمادين سوقاً حديثاً وقطعوا النهر  
الصغير على جسر ما نصبوه بالامس وسارا شرقاً شماليّاً يلمسان دير مرتين . وبعد ان ركضا  
جماديهما برهة امسكها ومشيا متزاحدين وقد حللت لها تلك الخلوة فاراد هاني مداعبة  
مريم فقال لها « أتعلمين ما وراء هذه الابنية »

قالت « وراءها النهر الكبيغ »

قال « وما اسمه ... »

قالت « نهر لوار » بلفظ الراي غيناً ولكنها لم تك تنطق بهذين اللفظين حتى فطنت  
لموعده المضروب لاقترانها هناك فتجلت وحوّلت وجهها الى عرض البر وارادت تغيير  
الحدث فقالت « وكأنني ارى جند الدوق شارل آتياناً نحونا »

فيغت هاني وتغرس في الغبار المتصاعد وراء محلة الدير وقال « لاشك انكِ ترين  
معسكر الدوق شارل واما الغبار المتصاعد فوقه فليس غيار المسير ولكنهم يلاعبون خيولهم  
على سبيل الترین ... » قال ذلك وأخذ يفك في ما يتوقعه من القتال المائل في تلك  
الساحة ولكن كأن شديد العزم قوي القلب لانه لم ينكسر في قتال بعد ولذلك فاول ما يسبق  
الي ذهنه عز الانتصار

## الفصل السبعون

### سالمة في الدير

وينما هو يفكر في ذلك سمع جرساً يقرع فاصاح بسمعه فابتدرته مريم قائلة « هذا جرس الدير لأننا على مقربة منه » وكانت الشمس قد دنت من الغيب ولو افتتا إليها لرأيا شكلها يتجسم وجرمها يتعاظم وحدتها تنفي حتى يخيل لها اذا لمسها انها لا تذاع - ولكنها كانت في شاغل عن ذلك بغيار رأوه يتصاعد في بعض السهل من جهة الجنوب قرب معسكر اود كان خيالة يسوقون افراسهم . فحمل ذلك على ما شاهدوه في معسكر شارل . ووصل في الغروب تماماً الى باب الدير فقرعه هانئاً فاطلراهيب الباب بخاطبته مريم بالافرنجية انها تسأل عن ضيفة هناك . فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب لباس هانئ وخصوصاً عامته لانه لم يكن رأى عربياً قط وان كان قد سمع بجيء العرب للحرب . فترجلت مريم وهي هانئ بداعها للرجوع وقلبه لا يطواوه على ذلك الفراق وكانت هي في مثل حالة فيما اراد وداعها نظرت اليه نظرة خرقت ادراءه الى احسائه فوافقت رايه فتحوّل عن ادهمه وهو يقول « أرى ان اوصلك الى والدتك واطنان عليها وعليك ثم اعود » فاستحسنـتـ هـاتـيـاهـهـ لـغـرضـهـاـ وـابـتـسـمـتـ وـمـشـتـ فـمـشـيـهـ هوـ بـعـدـ انـ اـشـارـ الىـ بـعـضـ خـدـمـ الـدـيرـ انـ يـمـسـكـ الجـوـادـينـ فـاخـدـهـاـ الـبـوـابـ الـىـ الـاسـطـبـلـ .ـ وـلـاـ دـخـلـ مـنـ الـبـابـ الثـانـيـ اـسـقـبـلـهـاـ رـاهـبـ آـخـرـ وـسـأـلـهـاـ عـمـاـ يـطـلـبـانـهـ فـقاـلتـ مـرـيمـ «ـ عـنـدـكـ نـزـيلـةـ اـسـمـهـاـ سـالـمـةـ ؟ـ »

فابتسم الراهب وقال «نعم» وأشار اليها فتبعاه حتى دخلوا الدير وصعد بهما الى علية سالمة . وكانت سالمة لا تزال بعد ارسال حسان منفردة في تلك العالية تارة تطل منها الى النهر وطوراً نقعد على الارض تفكري في مريم وقد ذاب قلبها لفراقها وكانت لم تفارقها قبل هذه المرة قط - ثم تنتقل بافكارها الى ما تكتمه في صدرها ولم يأن وقت كشفه وتختلف ان يطول وقته او تحول الاقدار دون ذلك فتنذهب مسامعيها ادراج الرياح - ونهضت في صباح ذلك اليوم منقبضة النفس فنزلت الى الكنيسة لاستئناع الصلاة وتحشرت في صلاتها كثيراً ودعت لابنتها بالسلامة ثم صعدت الى عليتها فما حست كأنها في سجن مع انها في احسن غرف الدير وكثرها انطلاقاً . ولكن السجن سجن الارادة فقد يحبس الانسان نفسه بارادته اياماً في مكان مظلم وهو يعذ نفسه مطليقاً فاذا حكم عليه بالانحباس

يوماً واحداً أول في انغم المصور فانه يعذ نفسه سجينًا  
 ولما عادت من الصلة وصعدت في السلم حدثها نفسها ان تطل على سهل تورس لعلها  
 ترى رسولاً قادماً او تنسى ريح ابنتها اذا رأت معسكر العرب عن بعد فمشت حتى اطلت  
 من سطح الدير على ذلك السهل وعرفت مكان كل من العرب والافرنج بخنق قلبهما  
 لما توقعه من القتال المائل هناك . ثم عادت الى ابنتها وهواجسها تزايده بالخلوة — فلما  
 كان الغروب احسست بزيادة الاتقباض وشعرت بضيق وقحط . وساعة الغروب انقل  
 ساعات اليوم على الانسان وهو حرّ مطلق فكيف اذا كان سجينًا — فهممت بالخروج  
 للصلة فسمعت وقع اقدام على السطح بخنق قلبهما وليشت اترى ما يكون فلما سمعت الخطوات  
 نقترب نحوها تزايده خفقان قلبهما واخيراً سمعت قرع الباب فكان لهم قرعا صدرها .  
 فنهضت وركبتها ترتجفان وفتحت الباب فاستقبلها الراهب وأشار بيده الى رفيقيه . فلما  
 رأت ابنته صاحت « مريم » والقت نفسها عليها وجعلت تقبلها وتشمها والمدموع تساقط من  
 عينيه حتى كاد يغمى عليها ومريم تقبلها وقبل يدها ودموعها تساقط بهدوء . ثم دخلتا العلية  
 وهانىء لا يزال بالباب فقالت مريم « هذا الامير هانىء قد جاء ليوصلي ويراك ثم يعود »  
 ففرحت به واثنت عليه ودعنه للدخول فقال « لا بد لي من سرعة الرجوع لأننا في  
 حال تدعوا الى التيقظ . كيف انت ؟ قد وصلنا كتابك وشكراً فضلاك واهتمامك » .  
 فقالت « وماذا فعلت بتلك الخائنة »

قال « لم ينجدها في المعسكر مع انها كانت فيه الى الامس فالظاهر انها علمت بكتابك  
 ففررت الى ابئها »

فلطم سالمه كفافاً بكاف وصاحت « نجت هذه الملعونة . . . الظاهر ان شيطانها  
 الاحوال اخبرها بخبرنا فايقنت بكشف امرها فهربت . . . »  
 فقالت مريم « قبح الله ذلك الاحوال فانه اصل شرور كثيرة ولو علمت الذي فعله هذا  
 الشيطان لحزنت . . . »

قالت « ما الذي فعله ؟ »  
 قالت « انه رمي حساناً بنبل وهو ذاهب من عندك فاصاب جنبه فحمل ذلك المسكين  
 جرحه واسرع حتى ادركه معسكر العرب وهو على آخر رمق من الحياة فبلغ الرسالة ومات . . . »  
 فصاحت « مات ؟ حسان مات ؟ . . . »

قالت « نعم يا امامه مات اشرف ميتة . . . مات شريفاً اميناً صادقاً وقد قاموا بواجب

غسله ودفنه رحمة الله . . .

فاطرقت سالمة وسكت ثم هزت راسها وهي تقول بصوت مختضر «مسكين حسان . . . مات ولم يشاهد حفيده بعد ان علم بمقاته حيل ولا شاهد نتيجة انتظارنا الطويل لهذه الواقعة المهولة . . .»

## لفصل الحادى والسبعون

### دعوة خطرة

وكان هاني قد دخل الغرفة وذهب الراهب فاتاهم بالشمع فاضاؤه وغرسوه في مشمعة نائمة من الحائط وعاد الراهب . وكانت مرتبه في شاغل داخلي يتعلق بهاني لانه احبته ووالدتها لا تعلم . وقد اوصلها الى أمها وسيرجع قريباً ولا طاقة لها بفراغه وهي تريد ان تستطلع رأي والدتها بشأنه فاذا لم توافقها على جبه كانت المصيبة كبيرة عليها . وأرادت من الجهة الثانية ان تشغله عن حديث حسان فقالت « الا تعرفين الامير هانئا يا أماه ؟ »

فابتسمت وقالت «كيف لا اعرفه ؟ اليه هو الذي انخدنا من ذلك الامير البربرى ؟

قالت « بلى . وهو اكبر أمراء جند العرب بعد الامير عبد الرحمن . والامير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لانه امير الفرسان وهو يده اليمنى في تدبير الجيش . ففيجل هاني من هذا الاطراء واحب ان يتعرض ليفطي خجله فلم تمهله سالمة فقالت « لم يخف على شيء من شأن هذا الامير وقد صحبته في مهمته الى أسقف بوردو الاتذكرين ذلك ؟ »

فانشرح صدر هريم واطمأن بالها وهبت بالطرق الى ما وراء ذلك فسمعت بدبة وضوضاء فتوقفت وانصتوا جميعاً ثم سمع هاني جواده يصله صهيلاً متواصلاً كأنه يطلب النزال فوق هاني وهو يقول « أرى جوادي يدعوني الى النزال وهو ينبعني الى سرعة الرجوع ؟ . . .»

وما اتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح ثم فتح الباب ودخل الراهب

رفيق حسان وكانت سالمة تحسبه سافر فلما دخل رحبت به ودعته لايجلس  
فإذا هو يهم بالكلام والبغة ظاهرة في جهه وكانه أراد التكلم فارتح عليه فظنته أمسك  
حياته من الحضور فقالت له بلا فرنجية « تفضل يا حضرة الاب اخبرنا بما عندك وليس  
هنا أحد غريب »

فقال ولسانه يتلجمح « كلفي رئيس هذا الدير ان ابلغك أمرًا ايعزه علي ان اكون  
الرسول فيه ٠٠٠ »

نفق قلب سالمه ومریم واما هانی « فلم يفهم شيئاً لانه لا يعرف الانجليزية ولكننه لحظ من تغير الوجوه ما أفقه — فقالت سالمه « قل يا حضرة الاب ٠٠٠ وماذاك ٠٠٠ قال « ان الدوق اود بعث بکوكبة من الفرسان بالعدة والسلاح وقد وصلوا الدير ومعهم رسول يحمل كتاباً الى حضرة الرئيس يطلب منه فيه ان يبعث بك اليه ٠٠ ونظراً لما يعلم الرئيس من دالٍ عليك بعث اليه واطلعني على ذلك الكتاب وشاوري في شأنه خسنت له ان يتعنم عن تسلیک فاظهر انه يود ذلك من صميم نواذه ولكننه يخاف العاقبة وهو لا يدرى لمن تكون الغلبة في الحرب القادمة وواجباته ثقفي عليه ان يكون نصيراً للانجليز — ثم كلفني ان اكون انا برفقتك من قبله لا وحي الدوق اود برعايتك واذا شئت اخذنا من الرئيس كتاب توصية بشانك ايضاً »

وكان الراهب يتكلم ولسانه يكاد يتلاطم والتاثر باد في كل حركة من حركاته وكانت سالمة ومريم متطاولتين بعنقيها وقد شخص بصرها في الراهب كأنها أصيبتا بالجمود فلما فرغ من قوله قف شعرها وخصوصاً مريم وذلت هانىء ينظر اليها ويقرأ تلك العواطف في وجهيهما فلما فرغ الراهب من الكلام قال هانىء «ما الخبر . . .»

قالت «مريم ان الدوق اود بعث الى رئيس هذا المدير يطلب والذى منه»

قال «وماذا يرید منها؟»

قالت « يطلبها اليه لفرض

قال « لا تذهب . . . »

فقالت سالمه «بل ارى ان اذهب لاني لو ايدت الذهب لاخذونني فهرأ» . . .  
فضاح هاني «قدأ» . . . بلخذونك قدأ وهانيء معك ؟ ذلك لا يكون» ووقف

عَلَى قُضَّةِ حَسَامِهِ وَتَدْ أَخْذَ الْفَضْلَ مِنْهُ مَا أَخْذَ عَظِيْنَا

ويده على قبضة حسامه وقد أخذ الغضب منه مأخذًا عظيمًا

ففرحت مريم بما ابداه هانىء من الحمية بشأن والدتها ولم تكن هي اقل حمية منه ف فقالت

«كيفه نسمح يا امهه ان يأخذوك اسييرة ولو كانوا الوفاً فاننا ندافع عنك الى الموت ..»  
فقالت «اعلم ذلك ولكن شروط الحرب تقضي علينا ان لا نعرض امير فرسان العرب  
وعمدة امرائهم لشريذمة من الافرنج ربها اصابه اسدهم بنبيه كا اصابوا حسانا بالامس  
فيذهب الامير هانيء رخيصا لا سمح الله وهو موعول جند العرب وقادتهم وواسطة عقدتهم  
فكأننا عرضنا الجند كله للخطر .. فإذا كنتما تحباني اطيعاني في ما اقول ولا تخافا عليء بأمسأ  
لاني سأسيء مكرمة وسيكون معي حضرة الراهب وسامحه من رئيس الدير كتاب توصية  
او نحوه بحيث لا اخشى شرّاً — بل ارجوان اخدم العرب وانا هناك مالا استطيعه وانا معهم  
ومع كل ذلك فلا حيلة في قضاء الله ..»

فقال هانيء «إنك تحاولين محالاً — أكون حاضرًا وتساقين انت اسيرة؟ • ذلك لا يكون ابداً • والله لا أعمل السيف في الأفونج ولو كانوا الوفاً ..»

فقط سالمة كلامه قائلة « اذا فعلت غير ما اقوله فانك تکدرني وانا اعلم انك لا ترید کدری — ان الدوق اود يعرف عني اکثر ما تعرف انت او تعرفه ابني هذه — وهو لا يطلبني اليه ليسو»ني ولو كان ذلك غرضه لعمله وانا سجينه عنده الى الامس . دعنا الان من هذا البحث وانقدم اليك بشرف العرب وعز الاسلام ان تطيني في ذلك وقد آن لي الان ان اطلعك على شيء جدید حفظته منذ اعوام . . . ثم التفت الى الراهب وقالت « قال لحضره الرئيس اني اتأهّب للخروج حسب امره بعد ساعة او ساعتين لغرض لي مع ابني هذه قبل سفرى »

خفيه الراهب راسه وخرج

## الفصل الثاني والسبعين

مسنون

وبعد خروجه نهضت سالمة واصبحت رداءها كأنها تستعد للخروج وجعلت تخاطر في أرض الغرفة ذهاباً واياباً ثم وقفت إلى النافذة واطلعت على النهر ولبشق صامتة ومريم وهاني ينتظران امرها ويعجبان لاتك الحركة وذلك السكوت . ثم تحولت عن النافذة واقتلت اليها وقد تغيرت سخنتها واقطبت اسرتها وبذا الاهتمام في عينيها وذهب ما كان في حياها من

الابتسام الطبيعي وتحوّل الى هيبة وغضب . فلما رأها هاني على تلك الحال تهيب والتفت الى مريم فرأها اكثرا هناماً منه ولكنها ألمّا عن الكلام واصابها ذهول - اما سالمة فنظرت الى مريم وخطبته قائلة « اتعرفين من هو والدك يا مريم ؟ »  
فقالت « كلاً يا امه » وتورّدت وجنتها من الخجل وبعثت لذلك السؤال على غير انتظار ولم يكن هافى ئ اقل استغراباً منها ولكنها ظلّ صامتاً ليرى ما يكون  
قالت سالمة « اتعرفين من هي والدتك ؟ »

فازدادت مريم استغراباً وقالت « نعم هي انت .. »

ثم التفتت الى هاني وقلت « اعلم يا بني اني اوتفتت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة على ان لا ابوج به الا لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ولكن قضت الاحوال ان ابوج يبعضه قبل ذلك الحين لامير هو على ما اعلم يتلو القائد الا كبر ولضرورة احكام - لقد ضاق صدرني عن كثبان هذا السر بعد هذا الزمن الطويل وقد استقرت روح ذلك العزيز صاحب هذا السر ان اكشفه في هذه الساعة لابنائي ولائكم يا هاني على شرط ان تحفظوا به حتى تبلغاه الى الامير عبد الرحمن بعد هذه الواقعة - وليس قبلها . فاصغيا »

وكانت سالمة تكلم وهانى شاخص بيصره ومريم تكاد يجمد الدم في عروقها لفطر ناثرها من منظر امها وما شاهدته في سخنها من المعانى التي لم ترها فيها من قبل فقعدت سالمة واصلحت ثوبها واخذت في قص حديثها فقالت وهي توجه خطابها لمريم انت تعلمين يا مريم ان والدتك سالمة ولكنك لا تعلمين من هي سالمة هذه . وقد سألتك عن والدك قلت انك لا تعرفينه لانه توفي وانت طفلة ولم اذكره لك . قط ولم يكن احد يعرف نسبك غير ذلك الشيئ المسكون حسان وقد قتل ولو اصبت انا ببنية الذهب هذا السر ادراج الرياح ولذلك عجلت في كشفه لصاحبها - فاعلي يا مريم انت امك التي تسميتها سالمة هي أججلا امراً رودريك ملك اسبانيا الذي قتله العرب في واقعة فحص شريش منذ بضع وعشرين سنة لما جاء طارق لفتحها . وبعد ان قتل رودريك المسكون جاء موسى بن نصیر فاتم بالفتح حتى بلغ الى طليطلة عاصمة اسبانيا في ذلك الحين وكانت انا هناك فصالحت على نفسى بعد وفاة زوجي وافت مكرمة وعشت في هناك ورغد كا كنت في ايامه وكانوا يسمونني ام عاصم ولم يمسني احد بسوء . لان موسى رحمه الله كان عادلاً رفيفاً يعلم كيف يفتح البلاد . ولكن مدة حكمه لم تزد على بضع سنين فوشى به الواشون حتى استقدمه الخليفة الى الشام وسجنه . وكان نصب عيني موسى

بعد ابن فتح الاندلس وجمع غنائمها ان يوصل الفتح في هذه البلاد وما وراءها حتى يأتي القسطنطينية ويقطع منها الى الشام ويفتح ما في طريقه من البلاد <sup>(١)</sup> حتى يصل البحر الايض عاطلاً بال المسلمين من كل جهاته . ولو فعل ذلك يومئذ لكان هيناً على المسلمين لأن البلاد كانت في ضعف والحكام في اقسام

«فِلَا أَخْذَمُوسِي إِلَى الشَّامِ إِسْكَلْفَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ إِبْنَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُوسَى (قالت ذلك وتنهدت) وَكَانَ عَاقِلًا حَكِيمًا عَادِلًا وَقَدْ أَطْلَعَهُ أَبُوهُ عَلَى مَا كَانَ فِي عَزْمِهِ مِنْ فَتحِ هَذِهِ الْبَلَادِ الَّتِي يُسَمِّيهَا الْعَرَبُ الْأَرْضُ الْكَبِيرَةُ . وَكَنْتُ أَنَا لَا أَزَالُ فِي طَلَبِهِ فَلَمَا تَوَلَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَرَأَيَنِي وَرَأَيْتَهُ أَحْبَنِي وَاحْبَبْتُهُ فَطَلَبَ الْأَقْرَانَ بِي وَلَمْ أَكُنْ أَطْمَعَ بِرَجُلٍ أَرْفَعَ مِنْهُ مَقَامًا . فَقَبِلَتْ عَلَيَّ أَبْقِي عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ فَرَضَيْتُهُ وَلَكِنْهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ فَوَجَدْتُهُ كَثِيرَ الشَّبَهِ بِذَهَبِ أَجَدَادِنَا الْقَوْطِ (الْأَرْيُوسِيَّةِ) . ثُمَّ اتَّقَلَ بِي إِلَى اشْبِيلِيَّةِ فَأَقْهَنَاهَا ذَنَاكَ بَعْضَ سَنَوَاتِ كَانَ فِي اثْنَائِهَا مَثَالُ التَّعْقُلِ وَالْحَزْنِ وَقَدْ أَسْرَ إِلَيَّ أَمْوَالًا كَثِيرَةً كَانَ عَازِمًا عَلَى اجْرَائِهَا خَدْمَةً لِلْأَرْبَابِ وَالْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا فَتَحَّمَّلَ هَذِهِ الْأَرْضَ الْكَبِيرَةَ (أَوْرَبَا) وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ هِينَاً كَمَا قَدِمَتْ وَخَصُوصًا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ لَا نَهُ رَحْمَهُ اللَّهُ كَانَ يَعْمَلُ أَهْلَ الْبَلَادَ بِالْعَدْلِ وَالْمَحَاسِنِ وَالْوِرْقَنِ فَاصْبَحَ النَّاسُ عَلَى اخْتِلَافِ طَوَافِهِمْ يَجْبُونَهُ . وَشَاعَ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَى أَقْصَى بَلَادِ النَّصْرَانِيَّةِ وَلَوْطَالَ مَقَامِهِ لِفَتَحِ هَذِهِ الْبَلَادِ عَلَى اهْوَنِ سَبِيلٍ لَانَّ اهْلَهَا كَانُوا فِي انتِظَارِ مِنْ يَخْوِلُهُمْ حَقَوْقَهُمْ وَحَرَبَتْهُمْ وَلَا قَرْقَعَ فِي مَذْهَبِهِ عِنْدَهُمْ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ بَيْنَ لِي رَغْبَتِهِ فِي ذَلِكَ الْفَتَحِ وَأَنَا أَحْرَضُهُ عَلَى أَكْرَامِ الْأَهَمِيَّةِ وَالْأَحْسَانِ إِلَيْهِمْ وَهُوَ يَطْبِعُنِي لِمَا يَتَرَبَّعُ عَلَيَّ ذَلِكَ الْأَحْسَانِ مِنَ الْكَسْبِ الْعَظِيمِ . وَقَدْ بَذَلَ جَهَدَهُ مِنَ الْجَهَةِ الْأُخْرَى فِي جَمْعِ كَلْمَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْعَرَبِ وَالْبَرِّ وَغَيْرِهِمْ لَا نَهُ بِغَيْرِهِمْ إِلَّا اِلْتَحَادُ لَا يَسْتَطِعُ عِمَلاً

«وَانَّهُ لَنِي هَذِهِ الْآمَالُ مَا ذَوَّ بِهِ الْحَسَادُ كَمَا وَشَوَّا بِأَيْهِ وَأَتَمْوَهُ بِأَنَّهُ طَامِعٌ فِي الْمَلَكِ لِنَفْسِهِ وَقَدْ بَنَوْا أَدَلَّهُمْ عَلَى مُحَاسِنَتِهِ أَهْلُ الْبَلَادِ وَقَالُوا أَنِي غَلَبْتُ عَلَى عَقْلِهِ حَتَّى حَمَلَهُ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ اَصْحَابَهُ وَرَعِيَّتِهِ بِالسُّجُودِ لَهُ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ زَوْجِي رُودَرِيكَ عَلَى زَعْمِهِمْ . وَمِنْ مُفْتَرِيَّهُمْ أَنِي جَعَلْتُهُ يَفْتَحَ بَابًا قَصِيرًا فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ حَتَّى إِذَا دَخَلَ أَحَدَهُمْ مِنْهُ طَأَطَأَ رَأْسَهُ كَلَارَا كَعُ <sup>(٢)</sup> . وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ افْتَرَوْا عَلَيَّ ذَلِكَ افْتَرَاءً وَلَمْ يَفْقَهُوا سَرَّ الْأَمْرِ . وَلَمَا نَفَذَتِ الْوِشاَيَةُ بِهِ عَنْدَ الْمُلَكِيَّةِ لَمْ يَسْتَوْدُوْهُ إِلَيْهِ كَمَا

فملوا بأبيه ولکنهم دسواله من قته وهو في المسجد<sup>(١)</sup> والهفي عليه « ولما بلغت الى هنا شرقت بريتها ووقفت عن الكلام وهاني ومريم كلهم في حلم ولا يتجر آن على التلفظ لثلا يقطعا كلامها فقلت وهي تنظر الى مريم وتحاول الابتسام « و كنت قد ولدتكم منه وبلغت السنة الثالثة وكان يحبك حبا لا مزيد عليه خلافاً لمن ولدته من النساء الاخريات وكان لا يهنا له عيش الا اذا قبلك وضمك الى صدره صباحاً ومساءً و اذا رجع من مجلسه وتأتي قصره جعل يلاعبك ويبدل جده في ما يرضيك حتى نسيني من اجلك . فلما علم بما نصبوه له من الحبائل وتحقق وقوع القضاء دعاني ليلة مقتله قبل زواله الى المسجد فاتيته وانت على ذراعي فتناولك وجعلك في حجره وطفق يقبلك ويسكي بكاء منا وهو يشق شقيق الطفل فلم اتمالك عن البكاء معه لان احبيته حباً كثيراً لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن مقصدته . وبعد ان بكى وودعك نادى خادمه حساناً ووصاه بي وいく ثم التفت الي وقال (قد أبى هؤلاء القوم الا ان يضيعوا تعبي ويفسدو ما دبرته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به . اما موتي بفقضاء الله وقدره فلا اطلا بهم به بل انا اشتق على ما اضعوه وسيضيئونه بقتلني مما دبرته لهم لاني لا اظلمهم سيتوقفون الى رجل آخر يغار على الاسلام غيري ويتوافق له ما توفق لي من الاحوال المساعدة على الفتح وهي ارضاء الاهالي وجمع كلمة المسلمين وتوفير الاسباب الاجرى المؤدية الى ذلك) . ثم اشار اليك وقال (لو كانت هذه الحبوبة غلاماً لاوصيتك بتربيتها هذه الغاية ٠٠٠ سأموتك في الغد آسفاً على الفرصة التي اضعوها بجهالتهم ولكنني اوصيك ان تربى ابنتنا هذه تربية عربية وتعلميها ركوب الحيل ولا تخربها من هو أبوها ولا تحجملي عربياً يعرف بها الا من توسمت فيه الغرض الذي ذكرته وتوفرت فيه الاسباب المساعدة عليه . فاذا رأيت قائداً عربياً نهض للفتح وقد ادرك العوامل المساعدة على ذلك فان هذه الفتاة له زوجة او ابنة او كما يشاء )

وما قال ذلك أخرج من حبيه هذه المحفظة ( واستخرجت هي المحفظة من حبيها ) ودفعها اليه وهو يقول ( اذا توفق المسلمون الى ذلك الرجل فانه فاتح هذه البلاد لا محالة . فاذا تمكنت من الفتح حتى بلغ نهر لوار قصبي عليه خبرى واطلعيه على وصيتي وسلاحي هذه الابنة له وعمها هذه المحفظة فان فيها ما ينفعه وينفع المسلمين )

(١) جاء في صفحة ١٤١ من هذه الرواية انهم قتلواه في طليطلة والصواب في اشيهية

فأخذت المحفظة وحفظتها معي من ذلك الحين " ولم تفارقني يوماً واحداً ولا ساعة واحدة  
وأنا لا أعلم ما فيها . فلما قتلوا تلك القتلة الشنيعة سالمتهم الله لم يبقَ لي عيش في الاندلس  
فبرحثها ومعي حسان وعنده كل اسراري وقد كان خادماً أميناً مخلصاً رحمة الله  
« وقد تولى الاندلس بعد عبد العزيز عدة امراء وأكثراهم تحفزوا للفتح ولكنهم لم  
يظفروا به لطبيتهم وعثومهم وطعمهم . حتى اذا سمعت بعبد الرحمن وما أثاره قبل النبوض  
للفتح من طوافه باسبانيا وتعهداته أحکامها وعزل الضعفاء وأهل المطامع ومحاسنة أهاليها  
وسعيه في جمع كافة الجند من العرب والموالي قلت هذا هو الرجل المتظر ، وصبرت حتى  
آتى بوردو وفتحها وكان ما كان مما تعرفيه » ثم وجهت كلامها الى هاني ، وقالت  
« فالذى أرآه ان الامير عبد الرحمن هو الرجل الذى عنده الامير عبد العزيز . ففرم له  
وهذه المحفظة ( ودفعتها الى مريم ) معها أيضاً . ولكن بالطبع لا يكون له شيء من ذلك  
الا بعد قطع هذا النهر » فتناولت مريم المحفظة وخفتها بين أنوارها

## الفصل الثالث والسبعون

### الوداع

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصرف من جيئها ويتسرب على خديها حتى يقطر على  
ثيابها وقد احررت عينيها وتوردت وجنتها من شدة التأثر . أما مريم فانها تهض متاهة  
وقبلاً والدتها وهي تقول « أنت والدي والحمد لله فقد أفلقتِ بالي بسؤالك اذا كنت  
أعرف والدي فخفت ان اكون ابنة سوالك — فإذا أنا عربية والدي أمير عربي وأمي  
ملكة اسبانيا »

فقطع داني بكلامها وقد غاب عليه الغرام وسره تقويض امر مريم الى عبد الرحمن  
له ولة نيله اياماً على يده وقال « لا شك انك عربية الاصل عرقية في الحسب والنسب »  
والتفت الى سالمة وقال لها « ان حديثك ياسيدتي قد نفحت على صفحات قلبي وأراك فقت  
العرب بمحفظ الوداد ووفاء المهوود وتفضلات عليهم بالحب المتن لرجلك ونصرتهم بسعيفك  
وفديهم بنفسك فبورك فيك ، والله لو كان في رجالنا عشرة مثل ذلك أو مثل ابتك هذه

لتقى هنا العالم لا محالة . ولકستنا محاطون بجمائة لا يجمعهم الا الجموع وقلّ فيهم من يفهم معنى الفتح والنصر وإنما يفهمون الغنائم والسبايا . ونحن في كل يوم نقاسي العذاب في سيل التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم ولو كان أميرنا غير عبد الرحمن ما استطعنا الوصول إلى هنا . فنطلب إليه تعالى أن يأخذ بنا صرنا حتى نقطع هذا النهر وإذا قطعناه هان كل عسير » والتفت إلى مريم وضحك ففهمت أنه يشير إلى زواجهما ولكن قلتها لفراد والدتها شغافها عن الخجل وكانت سالمة في أثناء ذلك مشغولة بمسح أعرق عن وجهها وكأنها أحست بحمل نزل عن صدرها بعد كشف ذلك السرّ لكنها انتبهت لمحفظة فقالت لمريم اوصيك بتلك المحفظة اعني بها ولا تسلّمها إلا عبد الرحمن الغافقي بعد عبور هذا النهر »

فقالت مريم « والآن لا بد من ذهابك إلى السوق أود ؟ »

قالت « نعم ولا بأس على منه كوني في راحة وأعلي إنك في كفالة الأمير عبد الرحمن فقد أوصيته بذلك من قبل »

فتنسمت من هذه التوصية ان والدتها لا ترجو اللقاء بعد هذا الفراق واحست سالمة أنها تريد مراجعتها فنهضت وهي تقول « لقد آن لي اجابة طلب السوق » قالت ذلك وضمت مريم إلى صدرها واخذت في ثقبيلها تكراراً وكلامها تبكّيان وها متunganان متسكّنان كأنها لا تريدين الفراق . فأشعر منظرها في هانيء حتى كاد يبكي ثم خاف عليها فتقدّم وفرق بينها فرائى عيني سالمة حمروين من شدة البكاء وهي مع ذلك تنظر إلى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها « قلت إن هائلاً لا يجب التفريط به حاجة الجند إليه وإنما ما الفائدة مني دعوني أسيّر حيّثما تسيرين »

فقطع هانيء كلامها قائلاً « إن الجند لا ينفع شيئاً دونك »

فهمت أن هائلاً لا يريد فراقها وتدّرّكت شدة حبه لها فهان عليها فراق والدتها وسمعته سالمة يقول ذلك فلاحظت أنه يحبها ولكنها كانت تشق بشمامته وتعلم منزلته عند عبد الرحمن وزدادت ونوقاً به لما رأى عبد الرحمن إذن له أن يرافق مريم إلى هذا الدير ولما استعدت للخروج قال هانيء « اذهب إليها الأمير مريم قبل ذهابي ٠٠٠ »

قال « العفو أيتها الملكة الجليلة ٠٠٠ أي لا أخطو خطوة قبل أن أراك ذاتي باكرام ورعاية والا فلا يأخذوك وفي عرق ينبع ٠٠٠ »

قالت « حق أني سأذهب مكرمة وساقيم هناك لا أقول مكرمة ولكنني لا أخاف بأيّ لآن أود يعرف من أنا وليرجو أن يكون مكثي في معسكر أود هذه المرة مشرماً مثل

مكشفي المرة الماضية فقد كشفت فيه سرّاً كشف عنا شرّاً عظيماً»  
قال «ربعاً كان ذلك ولكنني استحيي من نفسي ان اخرج من هذا الدبر وحوله  
الجند يطلبونك فإذا كنت لا تسمحين ان امنهم من اخفك أفلأ تأذن لي ان أراك  
ذاهبة معهم ؟»

قالت مريم «ان هائياً مصيب برأيه»

قالت سالمة «فلا ذهب اذا الى رئيس الدبر لوداعه فانتظراني في الحديقة ٠٠٠»  
قالت ذلك وخرجت فتبعها فتحوت هي الى غرفة الرئيس وزلا لها الى الحديقة  
وكان مصيبة بالاقباس . وطلب هائىء من الباب ان يستحضر بالجوادين فامر جبى بهما  
دفع هائىء اليه صرة فيها دنانير فاستأنس الباب بذلك الكرم وأمر الخادم ان يحسن  
العناية بالجوادين . فوقف بهما وجواب هائىء يتجلى كالعروض بما عليه من العدة المتقدمة  
وما في عنقه من القلائد والعقود . وما على عدته من الحجارة الكريمة وخصوصاً  
اللؤلؤة الكبيرة المصوقة على شكل النجمة فوق جبهته ناهيك باجامه المذهب وما على  
صدره من سلاسل الفضة وهو ادهم شديد السوداد فاصبح كانه ليل تتلا فيه النجوم  
وكان هائىء واقفاً الى جانبه ينظر اليه نظرة والى مريم نظرة أخرى . ولم يبق احد من  
أهل الدبر في تلك الحديقة او بقرب الباب الا وقد جاء ينظر الى الادهم والى صاحبه  
وكلاهما غريب عندهم . وكان الادهم ادرك اعجاب الناس به فازداد دللاً واخذ يضرب  
الارض بيمناه ويصلح ويشخر كانه يطاب الزمال او كانه فهم من صهيل الخيل حول  
سور الدبر انهم اعداء صاحبه فأخذ يهددهم به . اما مريم فقد كانت تنسى فراق والدتها  
قبل ذهابها لاشتغال خاطرها بحب هائىء وخصوصاً بعد هذه السفرة وقد تحققت امنها  
عربية الاب ملوكة الحسب قد ذكرت المحفظة فافتقدتها — وعادت الى هواجسها

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدبر ثم خرج بعض الخدم يحملون الشموع  
ووراءهم جماعة من الرهبان يسيرون بين يدي سالمة ورفيقها الراهب وساروا بهما الى  
باب سور فروا بهائي . ومررت عليهم سالمة ومشت حتى خرجت من الباب وكانوا قد  
اعدوا لها جواداً ركبته وركب الراهب جواداً آخر ويضرب بالبوق فاجتمع  
الفرسان الافرنج ومشوا الى جانبهم وبعضهم الى ورائهم برعاية وآكام وهائي ومريم  
ينظران . واحست مريم في تلك اللحظة ان امه اقتلت من قلبها فغلب عليها البكاء  
ولكنها كتمت بكاءها

## الفصل الرابع والسبعون

ضوء القمر

اما هانيء وبعد ان سار الركب بسلامة ركب ادهمه وأشار الى مريم فركبت جوادها تفرجا وتحوها لا نحو المعسكر فلما بعدها عن الدير احسا بالانفراح . وكان الليل مقمراً وقد صفا الجو وهدأت العناصر وسكن الهوا كأن الطبيعة شاركتهما في التهيب والاعتبار . فلم يسمعا الا وقع حواري الجوادين على التراب . وكان الجوادين احسا بما يتقد على ظهرهما من لوعة الغرام فاعتبرا وطاطاً ومشيا مشية الاحترام والحب سلطان تطاوطى له الهم — ظل الحيبان مدة صامتين تهيباً من منظر الطبيعة وتفكيراً بما رأياه وسمعاه تلك الليلة من الامور الهامة وقد اعجبهما الاطلاع على ذلك السر فاصبح ارتباطهما بعده اوثق منه قبله . وقد علما انهما اقرب نسبياً واوثق عهداً واحست مريم انها مطالبة بنصرة العرب عملاً بوصية والدها

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه ولم تكن تزهر لهم عن بعد لتغلب ضوء القمر فاسف هانيء لوصوله الى المعسكر قبل ان يخاطب مريم بشيء بعد ما عرفه من امرها . فامسك شكيمة جواده ليسير الهoinia فاقتدت به مريم وهي تتوقع ان تسعد منه شيئاً فاذا دو يقول على سبيل المداعبة « أراك صامتة يامریم العل ما عالمته من شرف اصلك خف شيئاً من حبك؟ »

فأوقفت جوادها بعنة ونظرت اليه كأنها تستطلع تصدئ من تلك العبارة فلما رأته يبتسم علمت انه يمازحها ولكنها قالت « اذا سامت بشرف اصلي فلا فضل لي بشرف ورثته من الاجداد وانما الشرف من نال الشرف بحمد حسامه كماله الامير داني » . فقال وقد هاجت عواطفه وهو يمسك جواده عن المسير والجواد لا يطيعه « زانت اذا صاحبة الشرف طارفاً وتليداً فقد رأيت منك في واقعة دردون ما يعجز عنه اعظم الفرسان فسبحان من جمع فيك شجاعة الرجل ورقه النساء »

فقطعت كلامه وقالت « اني لم افعل شيئاً ياهاني وادساعدي القدر سألهاني في افاد وصية ابي ولو لم اكن ذكرأ كما قال فان الشجاعة لم تخنس بالذكور دون الاناث آه ياهاني » . وسكتت كأنها تكم امراً

فنظر اليها هانىء والقمر تجاه وجهها وقد وقعت اشعته على تجاهها وحوله النقاب الاسود .  
فأوزعها شاعر عربي لقال مقابل القمران . والحقيقة ان القمر ليس له ما في وجوه الملاوح من المعاني الجاذبة والخالبة . وخصوصاً فتاتنا العريمة سلالمة الملاكون فقد كان في وجهها افضل عن الجمال ملامع الحبوبة والذكاء وجاءها الحب فزادها رونقاً وزاد الحب افتناناً - فنظر هانىء الى وجهها وقد اطربت كأنها تكتم امرأة ينبعها الحياة من افشاهه وتشاغلت باصلاح الشعر على عنق جوادها . والجواد مستأنس ببرور اనاملها على عنقه . واراد هانىء ان يساً لها عما تكتمه فإذا هو بفارس قادم عليهما من جهة دير مرتين ينهب الارض نهباً فامسك هانىء جواده وتفرس في القادر فما لبث ان علم من قيافته انه افرينجي ورأى معه على ايض فتحقق انه رسول من شارل . ولم يكن هانىء يعرف الاfricanية فلادنا الفارس منها امسك شكيمة جواده ومشي المويناء خاطبته مريم بالافرنجية قائلة « من الرجل ؟ »

فقال « اني رسول من الدوق شارل الى الامير عبد الرحمن فاين هي خيمته ؟ »  
فافهمت هانىء ما قاله فقال « ائها رسالة ذات بال والاحسن ان نسير به لنرى ما سيكون »  
فقالت مريم للرسول « نحن ذاهبون اليه تعالى في اثينا » ومشيا وقد انصرف خاطرها الى ما يهدد هذا الجندي من الامر العظيم وتذكرت مريم حساناً لانها كثيرة ما كانت تراه قادماً بهش هذه المهمة فما تمالكت ان قالت « مسكن حسان » وكان هانىء كله آذان لسماع اية كلامه تخرج من فم مريم فلما سمعها تذكر حساناً تذكر عباره قالتها سالمه في ذلك المellar عند سماعها مقتل حسان فقال هانىء « سمعت والدتك تقول لما علمت بقتل حسان انه مات ولم ير حفيده - فمن هو حفيده ؟ »

قالت « علمت من بعض ما كان يدور قدماً بين حسان ووالدتي انه كان له ابن سار في حرب لا ادرى ما هي وكان لابنه غلام فقهه في تلك الحرب ضياعاً وهو حفيده وكان حسان كثيراً ما يتحسن لضياع ذلك الغلام ولانه لا يعرف مقره . فلما قالت والدتي تلك العبارة ظلت في خاطري وسألتها تفسيرها بعدئذ فقلت انها عثرت على الغلام المذكور في معسكر اود وتد صار شاباً والاfrican يحسبونه منهم ويسمونه رودرييك وانها تزكته في معسكر اود عند فرارها ولم تعد تعلم مقره » . وكان هانىء اراد مباصطتها للتلذذ بالفاظها ولشفتها ولم يكن يهمه امر حسان كثيراً . لكنه ما لبث ان سمع حكايتها حتى اسفه لفقده

فلما اقتربوا من المعسكر امسك هانىء شكيمة جواده ونظر الى مريم فادركت انه يريد ان تتصرف الى الاخبارية حيث تقيم النساء فقالت « هل اذهب الى اطباء ؟ »

قال «نعم يا حبيبي لتكوني هناك في مأمن حق يقضي لنا الله بالنصر وذهب معًا إلى نهر لوار وارجو ان يكون ذلك قريباً . . .»

قالت «اما اذا خيرتني فاني افضل البقاء هنا لامر اراني مسئولة عنه مثل سوالك او سؤال الامير الكبير ولكن الطاعة واجبة — فالآن لا ينبغي ان تنسى السر الذي عهد اليها بمحفظه ولا بد من كتمانه الى حينه» قالت ذلك وافتقدت الحفظة فوجدهما فقال هانف «ارسل معك بعض الخفر لا اقول خراستك لانك في غنى عن ذلك واغا ارسل لهم خدمتك . . .»

قطعت كلامه وقالت «لا حاجة لي بالخدم يا هانف وانا سائرة في ظلك وانتي معي حينما توجهت» قالت ذلك واومأت برأسها للوداع وادارت شكيمة الججاد وانصرفت نحو الاخبارية . فلما توارت عنه عاد الى الفارس وسارا معاً حتى دخل المعسكر ولم يعترضهما الخفر لانهم عرفوا الامير هانف من ادمه . حتى اذا وصل فسطاط الامير ترجل هانف وهو يستفهم من الحاجب هل عند الامير احد فقال «كان الامر اهون عنده من ذهنها وانصرفوا»

## الفصل الخامس والسبعون

دخل هانف وأشار الى الرسول بالبقاء خارجًا وكان عبد الرحمن جالساً وقد سمع صوت هانف قبل دخوله فصاح فيه صيحة الوالد بولده «ما الذي اعاقك يا هانف لقد شغلت بالنا . . .» فقص عليه ما جرى لها بعد وصولها الدين وكيف بعث اود جندًا اخذوا سلمة اليه وكيف ارادا انقاذها وهي لم ترض . ولكنها لم يذكر شيئاً من السر . واحبره ان مريم رجمت معه وقد توجهت الى الاخبارية الى ان قال «وقد اتيتك برسول من قارله (شارل) قائد جند الافرنج اذنه يحمل اليك كتاباً وهو بباب الان . هل يدخل؟»

فصفع عبد الرحمن فدخل بعض الحجاب من غلاته فقال له «ادع لنا احد المترجمين فإذا جاء ادخله مع الرسول» فخرج الغلام وظل عبد الرحمن صامتاً كأنه بغير خبر جديد ولم يكن هناك شيء جديد ولكنه تسمم رائحة القتال وتصور له عظم الامر الذي هو قادر عليه . وادرك هانف اهتمامه فتهيب وظل ساكتاً حتى عاد الغلام ومعه الترجمان وهو من يهود اشبيلية وكانت يعرف عدة لغات ول المسلمين ثقة كبرى فيه مثل ثقتهم بسائر اليهود

الاندلس لأنهم كانوا عوناً كبيراً لهم في فتح تلك البلاد . ثم دخل الرسول وتأدب في موقفه فسألَه عبد الرحمن بواسطة الترجمان عن غرضه فقال انه قادم برسالة من الدوق شارل صاحب اوستراسيا . فقال عبد الرحمن « وَيْنِ الرِّسْلَةُ ؟ »

فَدَّ الرَّسُولُ يَدَهُ إِلَى شَبَهِ خَرْجِ مَعْلَقٍ تَحْتَ أَبْطَهُ وَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ لَوْحًا مَلْفُوْقًا مِنْدِيلَ مِنْ الْحَرِيرِ الْأَحْمَرِ وَقَدْ شَدَّ حَوْلَ الْمِنْدِيلِ بِشَرِيطَةٍ مِنْ الْحَرِيرِ الْأَزْرَقِ . فَتَنَاهَى عَنْ دُرْجَةِ الرِّسْلَةِ وَأَشَارَ إِلَى الرَّسُولِ نَخْرَجَ . ثُمَّ حَلَ الشَّرِيطَ وَفَتَحَ الْمِنْدِيلَ وَاسْتَخْرَجَ مَا فِيهِ وَهُوَ عَبَارَةٌ عَنْ لَوْحٍ مِنَ الْخَشْبِ الرَّقِيقِ مَكْسُوٌّ بِالشَّعْمِ وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهِ حَفْرًا فِي ذَلِكَ الشَّعْمِ عَلَى جَارِيِ الْعَادَةِ فِي مَكَاتِبَاتِ تَلَكَ الْأَيَّامِ فِي أُورْبَا . فَلَمَّا ظَهَرَ اللَّوْحُ عَلَمَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ أَنَّ رِسْلَةَ افْرِنجِيَّةَ بَدَوْنَ إِنْ يَقْرَأُ هَا لِعَلْمِهِ أَنَّ الْعَرَبَ يَكْتَبُونَ عَلَى الْجَلْدِ أَوِ الْقَرْطَاسِ أَوِ النَّسِيجِ . فَدَفَعَ اللَّوْحَ إِلَى التَّرْجِمَانَ فَقَرَأَهُ وَهَاكَ تَرْجِمَتُهُ :

« بِسْمِ الْأَبِ وَالْأَبْنَى وَالرُّوحِ الْقَدِيسِ »

« مِنَ الدُّوْقِ شَارِلَ قَائِدِ جَنْدِ الْأَفْرِنجِيِّ وَصَاحِبِ اُوْسْتَرَاسِيَا إِلَى الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَائِدِ جَنْدِ الْعَرَبِ — امَا بَعْدَ فَانِّي الدُّوْقُ اَوْدُ صَاحِبِ اُكِيَّانِيَا اَخْبَرْنِيْ بِمَا تَعْمَدُهُ مِنْ اِيْغَالٍ فِي بِلَادِهِ لِغَيْرِ سَبِيلٍ يَدْعُوا إِلَى الْحَرْبِ يَيْتَنَا وَيَيْنُوكُمْ . فَإِنَّمَا تَطَابِقُونَ فَتْحَ الْقَاهْرَةِ لِلْكَسْبِ وَقَدْ اطْمَعْتُمْ فِي ذَلِكَ مَا رَأَيْتُمْ مِنْ ضُعْفِ الْذِينِ وَاقْفُوكُمْ مِنْ جَنْدِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْهِمْ . وَقَدْ يَلْغَى مَا اَنْتُ عَلَيْهِ مِنَ السُّبْحَانَةِ وَالْتَّعْقِلِ وَعَلَوْهُ الْمَهْمَةُ فَرَأَيْتُ اَنَّ الصَّحَّكَ لِتَرْجِعِهِ عَنْ قَصْدِكَ بَدَوْنَ سَفْكِ الدَّمَاءِ . وَلَا اَكُنْكُ تَسْلِيْمًا بَلْ اَطْلَبُ إِلَيْكُ اَلْاِسْنَابَ مِنْ هَذِهِ الْبِلَادِ بِمَا تَحْمِلُهُ مِنَ الْغَنَائِمِ إِلَى حَدُودِ اسْبَانِيَا عَلَى الْاَقْلَى اَذْلَالًا قَبْلَكُمْ بِالْوَقْوفِ اِمَامَنَا .

هَذِهِ نَصِيْحَتِيْ لَكُمْ وَاِذَا لَمْ تَقْبُلُوهَا فَمُوْعِدُنَا فِي النَّزَالِ قَرِيبَ وَالسَّلَامِ »

فَلَمَّا فَهِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ نَحْوَى الْكِتَابِ بِمَا فِيهِ مِنْ التَّهْبِيدِ ظَهَرَ الغَضَبُ فِي وَجْهِهِ لَكَنْهُ اَمْسَكَ نَفْسَهُ وَنَظَرَ إِلَى هَانِئٍ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فَقَالَ هَانِئٌ « يَبْهَرُ اَنَّ الرَّجُلَ مَعْرُورَ بِنَفْسِهِ فَارِيٌّ اَنْ يَكُونَ جَوَابِنَا السِّيفِ »

فَتَبَسَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنَ وَصَفَقَ بِفَاهِهِ الْغَلامُ فَقَالَ لَهُ « اَدْبَعَ الْأَمْرَاءَ لِمَفَاوِذَةِ » فَادْرَكَ هَانِئٌ اَنَّهُ لَا يَقْضِي اَمْرًا اَلَا بِالشَّوْرِيِّ خَوْفًا مِنَ الْعَتْبِ اَوِ الْفَشَلِ . وَبَعْدَ سَاعَةٍ جَاءَ الْأَمْرَاءُ قَتْلَى الْكِتَابِ عَلَيْهِمْ فَفَوْضُوا إِلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَوابَ عَلَيْهِ فَاَشَارَ إِلَى التَّرْجِمَانَ اَنْ يَكْتُبَ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« مِنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ قَائِدِ جَنْدِ الْمُسْلِمِينَ فِي اُكِيَّانِيَا إِلَى الدُّوْقِ قَارِلِهِ قَائِدِ جَنْدِ

الافرنج . اما بعد فقد قرأت كتابك وساي في اعتبارك بنفسك مع ما بلغني من علومتك وبسالتك . فاعلم ليها الدوق انت لم تجز هذا الجند لفتح اكيتانيا وحدها ولكننا نهضنا لفتح هذه الارض الكبيرة . ولم تأت انت ملاقاتنا هنا لانقينا بك في بلدك ثم نحمل على رومية فالقسطنطينية حتى يدين لنا العالم كله كما وعدنا نبينا - فتنصح لك ان تعبر بما اصاب اخاك صاحب اكيتانيا والا فلوك على نفسك والسلام »

ولف الكتاب وختمه وارجعه الى الرسول فحمله وعاد وانصرف الامراء الا هانئا فظل عند عبد الرحمن وقد توسيط الليل فقضيا ساعة في المداولة ثم انصرفوا الى المساء

و قضيا اليوم التالي في التأهب وتدبير الشؤون . وكان في اصيل اليوم الثالث يطوفان بفرسيها جناح الجندي الاسر اذ جاءها بعض الطلائع بانه شاهد غباراً يتصاعد في عرض الافق بجوار دير القديس مرتين فادركا ان شارل لما وصله الجواب زحف بجنده للقتال . فصعدوا الى اكمة اطلاق منها فرأيا غباراً يتصاعد ايضاً من جهة الجنوب حيث معسكر اود فعلموا ان الجيشين متهدان عليهم فقال عبد الرحمن «لقد آن العمل يا هاني وهذه جنود الافرنج قادمة فينبغي لنا انت تتيقط وتأهب ليلآ مهاجمونا على غرة . فامض الى فرسانك واجعلهم على ابهة التهوض وانا ماضٍ الى تحذير سائر الامراء» قال ذلك وتحول فتحوّل هاني في اثره ونفسه تستيق الى النزال

على ان الجيشين لم يواصلوا الزحف على العرب ولكنها عسكراً تجاه معسكرهم وما ينفعها ويبينه الا ساحة القتال . فلما رأى عبد الرحمن نزول الافرنج على انهم لا ينون الهجوم في ذلك اليوم بعث الى هاني ، سرراً وبعد صلاة العشاء خرجا من المعسكر ماشيين الى اكمة قريبة كان عبد الرحمن قد عاينها بنفسه في الامس فصعدا اليها ونظرا الى ما بين ايديها وقد طلع القمر وارسل اشعته في الفضاء فوق ذلك السهل فكشفت عن معسكريين معسكراً شارل في الشرق ومعسكراً اود بازائه نحو الجنوب تجاه معسكر العرب . ونظر عبد الرحمن الى مضارب ذينك الجيشين وامعن نظره ليقدر عددهم فوجدهم كثيراً يزيدون على جند المسلمين وودّ لوانه يلتقي بمن ينبعه عن قوة الجيشين ومعداتهم وسائل احوالها

وكان يفك في ذلك ويحيط لحيته بأعماله وهانئا واقف بجانبه يفك في نحو ذلك الامر وقد تبادر الى ذهنه ان حسانه لو كان حياً لكان احسن وسيلة للاستطلاع لانه يعرف لغة البلاد وعادات اهلها وهو حسن الاسلوب ذكي مخلص . فاراد ان يخاطب عبد الرحمن في هذا الشأن على سبيل فتح الحديث فرأه يتغير في عرض الافق كأنه يرى شيئاً جديداً

فالتفت هو الى هناك فرأى شبحاً كأنه رجل يُعدو من جهة معسكر الدوق شارل وعليه لباس الافرنج ولكنها لا يحمل راية ولا يظهر من قيافته انه رسول ف قال هاني « ما رأيك بهذا القادم ايهه الامير »

قال « لا أظنه رسولًا فربما كان جاسوساً او صديقاً »

وما أتم كلامه حتى أصرخ الرجل على بضعة عشر متراً منها فتباطأ في مشيته حتى اقترب وهو لا يكلمه فلما دنا منها قال بالفظ عربي مكسر « أين الامير عبد الرحمن » فقال له هاني « وما الذي تريده منه »

ذاؤماً باصبعه الى لسانه مع اشارة التي أي انه لا يعرف العربية ثم اومأ انه قادم من معسكر اود باسم خاص بالامير عبد الرحمن

## الفصل السادس والسبعون

معسكر شارل

فالتفت عبد الرحمن الى هاني وقال « لو قلنا له اني الامير عبد الرحمن لا يصدقنا فالافضل ان ندخله على خيمتي ثم ندخلها من باب آخر ونوجهه انساناً كنا هناك » فاشتر هاني بيده الى فسطاط الامير وامامه النار ومشى قبعله الرجل ومضى عبد الرحمن من جهة أخرى حتى دخل خيمته من باب سري ثم دخل هاني وبعد قليل جاءه الحاجب ان شاباً افرنجياً بالباب فأمره عبد الرحمن بادخله فادخله وعاد لاستقدام الترجمان وخيمته بقرب خيمة الامير فلما دخل الشاب نظر اليه عبد الرحمن فذا هو في مقتبل العمر عليه قيافة الافرنج وملامح العرب اسرى البشرة حقيق اللتحية صغير العارضين من حداثة فلما جاء الترجمان أمره عبد الرحمن ان يسأله عن غرضه فسأله فقال الشاب « اني لا أخاطب أحداً غير الامير عبد الرحمن وإذا كان غائباً فالامير هاني »

فلما سمع هاني اسمه تعجب فقال عبد الرحمن بواسطة الترجمان « أنت في حضرة الاميرين معاً » قال « اني رسول من سالمة »

فليما سمعوا ذلك الاسم توسموا خيراً فقال عبد الرحمن « وain هي الآن ومن أنت » قال « هي في معسكر الدوق اود وأما أنا فاني رجل عربي الاصل اتنى بي الامر

إلى الانظام في جند الدوق أود ولني حديث طويل تقصصه على سالمه من ذبرهه وحينه  
وقد قبض علينا أود وسجين كلاً منا في مكان ثم افترتنا ففررت هي من سجنها وطللت  
أنا في المعسكر ثم اطاق الدوق شرائي وأحسنظن بي وأعادني إلى خدمته ثم علم أود  
من عدلان الأحوال أنها في دير مرتين فبعث فرساناً لاستقدمها كنت أنا في جلتهم  
فقال هانيء « الملك رودريك؟ »

فبعث الشاعر والنفت إلى هانيء وابتسم وقد استأنس بذلك السؤال وقال « نعم  
يا سيدي هذا هو بسمي »

وكان عبد الرحمن يسمع ذلك ويتعجب ونظر إلى هانيء نظرة الاستفهام فقال هانيء  
بصوت منخفض « إن هذا المسكين حفيد حسان وله قصة تعرفها صريم »

فالتفت عبد الرحمن إلى رودريك وقال « فاقصص علينا سبب مجئك »

قال « لما رجعنا من الدير المذكور ومعنا سالمه ذهناها إلى خيمة باتت فيها تلك  
الليلة وفي الصباح التالي جاءوا بها إلى مجلس الدوق وكنت في جملة الحرس الواقعين ببابه  
ورأيت عنده امرأة جميلة كانت جالسة بجانبه عرفتُ بعد ذلك أنها ابنته لمباجة وانتها  
كانت في معسكر العرب وفررت إلى أبيها في تلك الليلة — فاما دخلت سالمه خفتُ عليها  
من غضب الدوق ولكنني رأيت من اجله ايها واحترامه لها ما كاد يذهب برشدي  
وسمعتها تخاطبه بحسارة وقوه وهو يتحمل منها ويستعطفها كما يستعطف المحب حبيبه . وقد  
سمعته يسميها بغير اسمها ويعباتها وأخيراً أمر برجاعها إلى خيمتها . وكانت قد لاحت منها  
النفاثة وهي خارجة فرأيتها وعرفني فاومات إلى خاصه ان اقابلها . فاختلت في مقايلها تلك  
الليلة . فلما رأته قال « إنك عربيّ وأولى بنصرة العرب مني » فامض إلى معسكر  
الدوق شارل فاستطاع أحواله وأخبر أمير جند العرب بذلك لأنهم اذا عرفوا قوه  
عدوهم دان عليهم حربه » والجث على بسرعة الذهاب فخرجت في تلك الساعة والمعسكران  
متقاربان وبت في معسكر شارل وتضيي طول الامس واليوم في الاستقصاء ولما أمسى  
المساء فررت إليكم كارأيسوني

فأعجب الاميران بشهامة سالمه وتذكر هانيء قوله أنها ستكون في معسكر أود انفع  
لهم مما في معسكر العرب فقال عبد الرحمن « ما الذي عرفته من أحوال ذلك الجند »  
فقال « اعلم يا مولاي ان قائد هذا الجندي رجل شديد اسمه شارل (قارله) ابن بين  
وهو رئيس حاشية ملك نوسيريا من العائلة الميروفييجانية ونظرًا لضعف ذلك الملك كان

حظ شارل من تلك المملكة دوقية اوستراسيا وراء نهر لوار . لكنه لم يقنع بالدوقية بل طمع بلبس القاتح ولذلك كان اود هذا من اكبر منافيه ولم يستجده حمل العرب الا بعد اليأس الشديد . فلما استجده حرج ما يستطيع تجاهه قبائل الافرنج وما يمكن حمله من العدة السلاح واستقر في هذا المعسكر » ٠٠

قطع عبد الرحمن كلامه قائلاً «كم هو عدد جنده؟»

قال «لم استطع معرفة عدده تماماً ولكنني علمت انه كثير ربما زاد على ضعفي حيشكم على اني تحقق اه مؤلف من عدة قبائل تختلف في لغاتها وعاداتها وآخلاقها وان كانت تعدد على الاجمال من الافرنج او الاوربيين<sup>(١)</sup> ولكنها عند التفصيص تراها مؤلفة من شعوب عديدة من جملتهم الاوستراسيون اهل البلاد الاصليين والأتويون والبروكتيون والطورنجيون والهيسيون وغيرهم وعلهم الادراج من الجبل وعلى صدور خيولهم ادراع من الحديد النقيل . اسلحتهم السيف الطويلة المعتدلة ذات الحدين والقوس الحادة والرماح المستطيلة والدباس الثقيلة في رؤوسها حشائط الحديد . والجند مؤلف من المشاة والفرسان اما الفرسان فلهم قليون وهم وحدهم يرمون البنال ٠٠<sup>(٢)</sup>

وكان رودرييك يتكلم باهتمام عبد الرحمن وهانيء مصغيان لكل كلمة يقولها فلما بلغ الى هنا ابتسם هانيء واقترب الى عبد الرحمن وقال «نحن بلا ريب غالبون لأن فرسانا كثيرون وقد عرفت بسالفهم وبخبرتهم وفيم الرماة وحملة السيف والفارس العربي يعادل ثلاثة من فرسان الافرنج ولا نمشى نحن فيهم الرماحة والرماة والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء ٠٠

والتفت عبد الرحمن الى رودرييك فرأه يتحفظ للهوض فقال له « وهل عندك خبر آخر؟

قال «كلا يا مولاي ولكنني عائد الى معسكر اود بأسم سالمه فهل من جواب؟

قال « هي أمرتك بالرجوع؟

قال «نعم لعلها تطلع على أمركم من هذا المقابل فتبغي بي به

فقال عبد الرحمن « اهدها سلامنا وقل لها اتنا حافظون لها هذا الفضل

فهض رودرييك واستأذن وخرج ثم خرج الترجمان ومكث عبد الرحمن وهانيء

برهة يتداولان في أمر الجيش فاقرأ على الاسراع في الهجوم ما أمكن قبل ان يستعد

الافرنج للدفاع . وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر نفع في التفير فاجتمع حيوش المسلمين

يُفْعَلْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمَشَاهَةُ فِي الْوَسْطِ وَالثَّرْسَانِ فِي الْجَنَاحَيْنِ وَجَمْعُ الْأَمْرَاءِ عَلَى  
اِخْتِلَافِ قَبَائِلِهِمْ فَيَحَاوِلُهُمْ وَعَلَى رُؤُوسِهِمْ الْعِصَائِمُ مَكَانُ الْخُوذِ وَقَدْ تَقْلِدُهُ  
السِّيُوفُ . فَوَقْفُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِمَامُهُمْ مَوْقِفُ الْخَطَيْبِ وَقَالَ « اعْلَمُوا أَيْهَا الْأَمْرَاءُ أَنَا  
قَطْعَنَا أَكْيَانِيَا كَلَّهَا وَالظَّفَرُ خَادِمُ لَنَا وَلَا يَئِسُ عَدُوُّنَا مِنَ الْفُوزِ اسْتِبْدَدَ عَدُوُّهُ صَاحِبُ  
اوْسْتَرَاسِيا وَقَدْ جَاءَنَا بِجِنْدِهِ وَكَفَانَا مَؤْوِنَةُ الْذَّهَابِ إِلَيْهِ وَهَذَا مَعْسَكُهُ وَفِيهِ كُلُّ قَوَافِهِ  
وَالَّذِي نَصَرْنَا عَلَى صَاحِبِ أَكْيَانِيَا سَيَنْصُرْنَا عَلَيْهِ وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ أَضْعَفُ مِنَا عَدَدًا وَعَدَدًا  
وَالنَّصْرُ مَوْقُوفٌ عَلَى الصَّبَرِ فَاصْبِرُوا وَتَكَافَلُوا يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَتَقْتَلُونَ بِلَادًا طَلَّا تَشْوِقُ  
الْمُسْلِمُونَ لِفَتْحِهَا وَيَتَمُّ عَلَى يَدِكُمْ مَا وَعَدَ اللَّهُ نَبِيًّا مِّنْ فَتْحِ الْعَالَمِ فَيَكُونُ لَكُمُ الْفَخْرُ وَيَخْلُدُ لَكُمُ  
الذَّكْرُ مَدْيَ الدَّهْرِ وَإِنَّا وَاتَّقَيْ أَنْكُمْ فَاعْلُوْنَ بِاذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ »

وَلَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ تَقْدِيمَ هَانِيَّةٍ عَلَى أَدْهَمِهِ وَعَلَى وَجْهِهِ اِمَارَاتِ الْبَشَرِ وَقَالَ وَهُوَ  
يَسْتَمِعُ « أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَوْعِدِ الْعَظِيمِ سَنَتَالَهِ بِالصَّبَرِ وَالْجَلْدِ . يَكْفِيْنَا سَعَادَةً أَنَّا تَوْفَقَنَا إِلَى  
أَمْرِ طَلَّا تَخْسِرُ اَسْلَافُنَا عَلَى الْوَصْولِ إِلَيْهِ وَسِيَحْسِدُنَا عَلَيْهِ الَّذِينَ سِيَخْلُفُونَا وَيَتَمَّنُونَ لَوْ  
شَارَكُونَا فِيهِ بِدَمَائِهِمْ وَاعْنَاقِهِمْ — وَسِرْتُ وَنِيَّ وَأَنَا أَضْعَفُكُمْ عَزِيزَةً وَاقْلِمْكُمْ بِسَالَةً باذْلًا نَفْسِي  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِذَا فَزْنَا فَتَحْنَا عَلَمًا جَدِيدًا وَإِذَا مَنْحَنَا الشَّهَادَةَ فِي الْجَهَادِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَنَا عِنْدَ  
اللَّهِ . . . » قَالَ ذَلِكَ وَالْعَرْقُ يَتَصَبَّبُ مِنْ تَحْتِ عَمَاهَتِهِ وَالْحَمَاسَةُ بَادِيَةٌ فِي كُلِّ جَارِحةٍ  
مِنْ جَوَارِحِهِ

تَمَّ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ « فَلِيَكُمْ أَيْهَا الْأَمْرَاءُ أَنْ تَسْتَخْتُرُوا رِجَالَكُمْ وَتَوْصُوهُمْ بِالصَّبَرِ  
وَالثَّبَاتِ وَأَخْبُرُوهُمْ بِالْفَخْرِ الَّذِي سَيَنْلَوْنَهُ بِمَحْدِ سِيَوْفِهِمْ فَضْلًا عَنِ الْفَنَائِمِ فَإِنَّهَا أَضْعَافُ مَا  
نَالَهُ حَتَّى الْآنَ » ثُمَّ تَلَمِّنَ إِيَّاتِ الْقُرْآنِ مَا يَرِيْدُهُمْ حَمَاسًا وَشَجَاعَةً . فَتَقْدِيمُ كَيْرِ اِمَارَاءِ  
الْبَرَابِرَةِ وَقَدْ تَحْمِسُ خَصْوَصًا بَعْدَ أَنْ سَمِعَ بَكْرَةَ النَّهَائِمِ وَقَالَ « لَا يَخْفِي عَلَى مَوْلَانَا  
الْإِمَرَى أَنْ جَنَدَ الْبَرَبِرَ مِنْ أَشْدُجَنِودِ الْمُسْلِمِينَ بَطْشًا وَأَكْثُرُهُمْ بَيْتًا فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ  
وَكَلْمَمْ مِنْ الرَّمَاءِ الْمَاهِرِينَ فَاجْلِعُوهُمْ فِي الْمُقدَّمَةِ . . . »

فَارَادَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ تَشْجِيعَهُمْ فَقَالَ « يَفْعَلُ ذَلِكُّ » وَأَمَرَ أَنْ يَتَقْدِيمَ الْبَرَبِرَ بِأَوْسِهِمْ  
وَيَعْدِهِمُ الْعَرَبُ وَالْفَرْسَانُ فِي الْجَنَاحَيْنِ

وَكَانَ شَارِلُ مِنْ الْجَهَةِ الثَّانِيَةِ يَتَأَهَّبُ لِمَهَاجمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَخَابِرَاتِ جَارِيَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ  
أَوْدِ فِي كِيفِيَّةِ التَّعاوِنِ عَلَى ذَلِكُّ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَوَقَّعُ هَذِهِ السَّرْعَةَ . فَلَمَّا أَخْبَرَهُ الطَّلَائِعُ  
بِاصْطِفَافِ الْمُسْلِمِينَ لِلْحَرْبِ بِرَتْبِ جَنُودِهِ صَفَوْفًا مَتَلَازِمَةً بِشَكْلِ الْكَتَابِ فَاصْبَحُوا كَاهِمَ

سور من الرجال وأكثُرُهم من الجنود المحنكة وقد حاربوا تحت راية شارل غير مرة فوقفوا موقف الدفاع والرماح نائلة من بينهم صفوافاً بعضها فوق بعض لمنع العرب من اخراق ذلك السور المتين

## الفصل السابع والسبعون

### الحرب

قف معي هنـيـة قبل الهجوم وانظـرـ الى ذـيـنـكـ الحـيـشـينـ وـهـاـ يـخـلـفـانـ جـنـساـ وـلـغـةـ وـدـيـنـاـ ويـتـبـاـيـنـانـ مـطـعـمـاـ وـمـشـرـ بـاـ وـمـلـبـسـاـ وـيـتـبـاـعـانـ خـلـقـاـ وـأـدـبـاـ وـاجـتـمـعـ اـحـدـهـاـ مـنـ اـقـاصـيـ اـسـيـاـ وـافـرـيـقيـاـ مـنـ اـمـمـ شـقـىـ لاـ يـجـمـعـهـمـ غـيرـ الاـسـلـامـ اـلـىـ بـلـادـ لـمـ يـطـأـوـهـاـ مـنـ قـبـلـ وـاقـلـيمـ لـمـ يـتـعـودـ دـوـرـاـ بـرـدـهـ وـمـطـرـهـ وـقـدـ رـأـواـ اـمـمـهـمـ وـجـالـاـ اـدـرـاعـهـمـ مـنـ الـجـلـوـدـ وـعـلـىـ رـؤـوسـهـمـ خـوـذـ مـنـ الـجـلـوـدـ وـرـأـيـهـمـ مـسـتـطـيلـهـ وـعـلـيـهـ شـارـاتـ النـصـرـانـيـهـ وـجـاءـ الـآـخـرـ مـنـ شـهـاـلـيـ اـوـرـيـاـ وـهـمـ قـبـائـلـ مـخـلـفـهـ وـقـدـ قـضـواـ زـمـنـاـ فـيـ الـقـيـامـ بـعـضـهـمـ عـلـىـ بـعـضـ وـاـنـهـ اـجـتـمـعـواـ الـآنـ لـدـعـ عـدـوـ غـرـيـبـ جـاهـهـمـ بـدـيـنـ جـدـيـدـ وـشـكـلـ جـدـيـدـ وـقـدـ دـهـشـوـاـ الـفـرـاـةـ ماـ بـدـاـ لـهـمـ مـنـ اـصـطـفـافـ تـلـكـ الـعـمـائـمـ الـمـزـاـصـهـ فـيـ تـلـكـ السـاحـةـ الـرـحـبـةـ كـأـنـهـ بـحـرـ يـتـلاـطـمـ بـالـمـواـجـ يـتـناـ منـ بـيـهـاـ رـاـيـاتـ مـتـشـابـهـهـ عـلـيـهـاـ كـتـابـهـ لـاـ يـسـتـطـعـونـ قـرـاءـهـاـ وـلـوـ تـفـحـصـتـ مـاـ يـجـبـولـ فـيـ خـوـاطـرـ ذـيـنـكـ الـحـيـشـينـ لـرـأـيـهـمـ مـتـصـاغـنـيـنـ مـتـشـاخـنـيـنـ يـتـضـرـعـ كـلـ مـنـهـمـاـ إـلـىـ رـبـهـ اـنـ يـنـصـرـهـ عـلـىـ الـآـخـرـ تـأـيـدـاـ لـلـحـقـ وـفـاـذاـ اـعـتـبـرـتـ اـسـبـابـ الـقـيـامـ دـعـتـ إـلـىـ ذـلـكـ القـتـالـ لـمـ رـأـيـتـ سـبـبـاـ غـيرـ الـجـمـعـ الـذـيـ خـصـ بـهـ الـإـنـسـانـ دـوـنـ سـائـرـ اـصـنـافـ الـحـيـوانـ وـفـاـنـاـلـمـ نـسـمـعـ بـسـرـبـ مـنـ الـحـيـوانـ يـجـتـمـعـ لـقـتـالـ سـرـبـ آـخـرـ مـنـ نـوـعـهـ وـفـاـذاـ تـنـازـعـ حـيـوانـ فـأـمـاـ يـتـنـازـعـ عـلـىـ لـقـمـةـ يـلـمـسـ كـلـ مـنـهـمـاـ سـدـ جـوـعـهـبـهـ فـهـمـاـ مـعـنـوـرـاـنـ عـلـىـ الـخـصـامـ وـاـمـاـ الـإـنـسـانـ فـاـنـهـ يـقـتـلـ اـخـاهـ عـلـىـ شـيـئـاـ لـاـ يـعـبرـ عـنـهـ بـغـيرـ الـوـهـمـ بلـ هـوـ لـاـ يـقـدـمـ عـلـىـ قـتـلهـ الـآـلـىـ شـيـعـ وـاـمـاـ يـطـلـبـ وـهـاـ يـعـبرـ عـنـهـ بـالـسـيـادـهـ اوـ الشـهـرـهـ وـكـلـهـمـاـ لـاـ تـسـدـهـ اـنـ جـوـعـاـ وـلـاـ تـرـوـيـانـ عـطـشاـ طـلـعـتـ شـمـسـ ذـلـكـ النـهـارـ وـهـوـ عـلـىـ ثـقـيـرـهـ سـبـتـ مـنـ سـبـوـتـ شـهـرـ اـكـتوـبـرـ سـنـةـ ٧٣٢ـ (١)ـ فـبـدـاـ الـعـربـ بـالـهـجـومـ وـأـمـطـرـواـ عـلـىـ الـأـفـرـيـقـيـجـ عـارـضاـ مـنـ الـنـبـالـ وـأـنـقـضـواـ عـلـيـهـمـ

(١) رومي ج ٣

انقضاض الصاعقة فتلقاهم هؤلاء بالثبات واللجم ولم يتزحزحوا من أماكنهم . فانقضى النهار ولم يلتسم الفريقان الأَسطجيًّا . وقد تقابلوا وتناديا وتصاححا ولكنها لم يتغافلا لان كل منها يعده لغة الآخر رطانة وطمطانية — وربما كان التفاهم أقرب فيما بين خيولهم مما بينهم — ولكنهم تعارفوا بالوجوه ولم ينفعهم التعارف لانه لم يزد هم الأَضعفية وحداداً . ثم افترقا على ان يبعدوا الكرة في الغد

رجع هاني وهو منقبض النفس وامر فرسانه ان يعودوا الى مضاربهم وتحول بادهمه بجانب الساحة ليطل عليها من آكمة . واذا هو بفارس ملتف بعباءة قد ساق جواده نحوه فامسك شكيمة الادهم وتفرس فيه . ولا تسل عن دهشته لما رأى مريم على ذلك الجواد ينفق قلبه وصاح فيها « مريم ! ما الذي جاء بك الى هنا ؟ »

فقالت « جئت لأشاهد حبيبي هائلاً بيـدـ الـكتـائبـ وـيفـلـ الجـيوـشـ . . . . »

فاحس عند ساعده قولها كأنها طعنته بمحربة في صدره وحمل كلامها محمل التوبيخ لجوعه بلا طائل وبدا الناشر في وجهه . وادركت مريم ذلك فاستدركت فائلة « لقد رأيتكم تصول صولة الاسد ولكن الحرب سجال . على اني كنت اتوقع النصر لكم ولم تجعلوا اوئلك البرابرة في مقدمة الجندي فهم لا يستطيعون اختراق صفوف الافرينج ولن يستطيع اختراقها الا الفرسان . فلو قدمتم فرسانكم وانت معهم لبدتم شملهم لأن خالية الافرينج ضعيفة »

فرأى في قوله حكمة لانه كاتب يرى رأيها وقد هم بعرضه على عبد الرحمن فابتسم ونظر اليها نظر الحب والعجب وقال « بورك في بطن حملك فقد عهدت فيك لطف النساء وبسالة الرجال ولكنني لم اكن اعرف فيك مهارة القواد . انتا عاملون برايك في الغد باذن الله وهو رايب ايضًا . ولكننا قدمنا البرابرية مسيرة لهم كما تعنين حالنا معهم . ولماذا عرضت نفسك للنبال . . . . فقد كنت وانا اجول في ساحة الوعي اتصوروك في انتباه لتوقعين رجوعي ظافرًا . فما رجعنا كما ترين انقضت نفسى . . . ولورايتكم بجانبي وكانت النتيجة غير ذلك . . . . »

فادركت ان علمه بوجودها يزيده بسالة ونشاطاً فقالت « موعدنا الغد »

فقال « لا . لا تعرضي نفسك للخطر فاني اخاف عليك المباء فكيف النبال . . . . »

فقالت « العلي لا اخاف عليك ذلك ؟ وهل اذا اصيـبـ هـانيـ بـسوـءـ اـيـقـ اـنـاـ ؟ دعـناـ منـ هـذـاـ الانـ وـغـدـاـ لـنـاظـرهـ قـرـيبـ » وكـانـاـ يـتـكـلـانـ وـفـرسـاـنـاـ يـسـيرـانـ حتىـ اـصـجاـ بـهـجـابـ المعـسـكـرـ فـهـمـزـتـ جـوـادـهـاـ نـحـوـ اـنـتـبـاهـ وـهـيـ تـقـولـ « اـسـتـوـدـعـكـ اللـهـ اـلـىـ الغـدـ »

فها زال ينظر اليها وهي تسيوق فرسها حتى توارت والظلام يتكاثف فتحول حق اق خيمة عبد الرحمن واطلعته على رايه فوافقه عليه وبعث مالي الامراء فقاوضهم في الامر فوافقوه على هذا الرأي

قضى عبد الرحمن ليمله قلقاً وهو يقدر المواقف ويحسب الخاوف تجنياً للفشل وازمع اخيراً انه اذا خاف على جنده من التقهقر طلب قائد الافرينج للنزال فإذا غلبه تشدد العرب اذا غلب له فالموت خير من الحياة . واما هانيء فقد كان اوسع أملاً واوثق بالصرم مع انه لم يكن يجهل شيئاً من شؤون الجند يعرفه عبد الرحمن — ولكن للشعبية آمالاً تسهل الصعب

واصبح الصباح فاجتمع المسلمين للصلوة وتلاوة آيات القرآن ورتبوا الجند فجعلوا الفرسان في المقدمة والمشاة في الجنادين البربر في الجناح اليمين والعرب في اليسار وعبد الرحمن وهانيء وسائر الحاشية في القلب . ومشت تلك الجملة نحو الافرينج وكانوا قد اصطفوا اصطافاً الامس وفرسانهم في الجنادين واخذوا في رمي النبال على العرب بسرعة وكثرة حتى كادت تحيط اشعة الشمس دون الغبار . ولكن العرب ظلوا سائرين وهم لا يبالون حتى اذا دنو من صفوف الافرينج صاح هانيء في فرسانه واطلقوا الاعنة نخيولهم واستخشوها وهو على ادهمه في مقدمتهم وقد شرع سيفه . فلم يستطع الافرينج الوقوف في وجه ذلك السيل فتضعضعوا وامرأوهم يخرج ضوئهم ويستخفونهم . والتحم الجيشان وقد رجحت كفة النصر للعرب وهانيء يزداد حماساً وبسالة حتى خيل له لما آنسه من ضعف الافرينج وتفهومه انه يطارد اغناناً وهو في ذلك اذ سمع صوتاً خرق احساءه واستلفت كل جوارحه وقائلاً يقول « الله درك ايهما الامير .. » فعلم من غنة الصوت والشدة انه صوت مريم فالتفت فرآها على جواردها وقد التفت بعيتها واعتنقت على رأسها فوق الخمار ولم يقع ظاهراً من وجهها غير عينيها وحاجبيها وانفها وقد تحملت الحماسة في تينك العينين فاُبرقتا . وأخرجت ميناها من العباءة وفيها سيف مسلول واخرجت اليسيرى وفيها درقة لطيفة من الجلد وأغارت بجانب هانيء . وخلفه والناس يفرون من بين يديها كأنها قضاة نازل . فاحس هانيء لما رأه في تلك الحال ان قوته تضاعفت وايقن بالفوز ولكنه خاف على مريم من نبل قصبيها في مقتل . على انه اصبح بعد ما شاهده من تباشير النصر لا يختلف خطراً والانسان اذا سلمته الحوادث يظن الالقدار ابرمت معه عهداً ان لا ترميه بسوء . وظل هانيء هاجماً وهو يستhort رجاله وينهيم بالظفر . وكان ادهمه احس بالنصر فتجسس وازاد داد صهيلاً وهو يشتر ويلهث والعرق يتصبب

من عنقه على صدره وقد تجلب الرغاء من فيه وتساقط على رغاء العرق تحت حزام صدره وهانىء كلما سمع صتهيل جواده إزداد حماساً . ثم رأى ان يختتم اسباب النصر بيارزة شارل فطلب به بين يديه فلم يجده فجعل يتذكر للبحث عنه وهو يمتاز عن سائر الجندي بقيافته ورایته والصلیب على خوذته فلم يجده عن بعد كأنه بجانب الامیر عبد الرحمن فاراد ان يتحول شکیمة الادمی الى هناك فسمع مریم تصيح فيه « احضر ایها الامیر . احضر . . . التفت » فالتفت وهو يحس بها تحذره من فارس يحاول اغتياله من الوراء فلم ير خلفه احداً غير بعض العبيد او الخدم من سعاة العرب الذين يطوفون ساحة القتال في اثناء المعركة لانتقاد النبال المتساقطة واعطائهم الى الرماة او لاسعاد فارس سقط سيفه او قوسه فيلتقطونه له وقد تعودوا المروء بين قوائم الخيل مرور السهام — فالتفت هائلاً الى مریم ليشتعل سبب ندائها فراها تسوق جوادها في اثر احد اولئك السعاة وهو يعود امامها وفي يده خنجر يقطر دماً وما عنيت ان ادركته خارج المعركة فأطارت راسه بجسمها فوق يخبط بدمه ورجعت وهانىء مندهش مما يراه فسمعها تقول له « تحول عن جوادك فانه مقتول وخذ هذا الجواد » قالت ذلك وهي تحول عن جوادها

فلم يفهم هانىء قصتها ولكنها التفت الى فرسه فرأى الدم ينسكب من احشائه انسكاب الماء من القربة فانقضت نفسه فتحوّل عنده وجاهه احد فرسانه بفرس ركبها وأشار الى مریم ان تعود الى فرسها فعادت وهي تقول « قبح الله ذلك الاحوال فقد خاصنا منه » ففهم هانىء ان الاحوال تزيها بزي السعاة واغفال الجواد . ثم التفت هانىء الى الادمي فرأاه قد سقط فاسف على موته اسفًا شديدًا وتشاءم من سقوطه على ان امله بالنصر انساب الجواد فعاد الى الهجوم حالاً ثللاً يتضعضع رجاله

اما عبد الرحمن فكان يراقب الجندي من القلب فلما رأى تغلب الفرسان اشرح صدره واخذ يتنقل بفرسه على امراء القبائل يستخدمهم ويحرضهم ويبشرهم وينهيهم وخصوصاً قبائل البربر لعله بشدتهم وشجاعتهم اذا همروا فلا يقف في طريقهم سور ولا خندق ولا سيل

وكان شارل قد اسر في ضميره مثل ما اسره عبد الرحمن فلما رأى تضعضع جنده وقد مالت الشمس الى الاصليل اخذ يبحث عن امير جندي العرب لياريـه . فلما رأاه عبد الرحمن عرفه من الراية التي كانت الى جانبية . فاقبل شارل على جواده كأنه جبل ماش وعليه درع من الفولاذ بشكل الحراشف المترآكة تغطي صدره وكتفيه وذراعيه وتترسل على ذفنه وبه ومقدم ساقيه الى القدمين حتى الركابين ، وعلى راسه خوذة في قبتها صليب وقد استرسل من

جانبي الخوذة وفها نسيج من زرعة الفولاذ يغطي خديه وفها راسه . وعلى صدر جواده صفيحة من الحديد بشكل الدرع معلقة بقدم السرج . وقد رفع يميناه دبوساً من حديد راسه بشكل الصليب . وامسك بيسراه راية عليها رسم الصليب وعلى الصليب رسم السيد المسيح مصلوباً . وقد استند قناد الراية الى الركاب اليسري

واما عبد الرحمن فكانت خوذته العامة مثل سائر العرب وهي مع خفتها وليتها ثقب في الرأس كما نقىء الخوذة وعلى صدره درع تحت العباءة وقد ثقله السيف والخنجر . وكان بالاجمال اخف حملاً واسرع حركة من شارل . وقلا كان مختلف في قيافته وشكاه عن سائر شرسانه . اما شارل فقد كان ممتازاً بخوذته ودرعه ورايته وجواذه فعرفه مشهور بيده فتلقى شارل الضربة بدبسوه واخلي منها وتقهقر لا عن فرار فتبعده عبد الرحمن ثم خاف ان يكون في ذلك التقهر مكيدة . فتراجع على ان يتذهب لطاعنه اذا عاد اليه . واذا هو بالصياح قد علا في الجناح الایمن من معسكره بين البرابرة وعلت الضوضاء وهم يصيحون «ذهبت غدائنا ضاعت اتعابنا . . . » فالتفت فرآهم يتقدرون ويتحوالون الى الوراء فرساناً ومشاة . ورأى جيش اود هاجماً على مخازن الغنائم في الخيلام<sup>(١)</sup> فاستعاد بالله وجعل يصبح في البربرة ان يثبتوا في موافقهم وان غدائهم لا تغنى عنهم شيئاً فلم يلتفت احدٌ الى قوله وبعد ان كان جند العرب فائزًا تضعضع . واغتنم الافرنج ذلك التضعضع فاعدوا الكرة ولو لا هانيء وفرسانه لانكسر العرب شرّ كسرة

ولكن هائلاً لما علم بما اصاب البربرة بذل جهده في ثنيت رجاله ومرم معه وقد نزعت العامة والخمار عن راسها والقت العباءة عنها وظهرت بشوها النسائي الاسود وقد استرسل شعرها على كتفيها وخدديها وهجمت والسيف مشهور بيدها . وقد اخسر كلها عن زندها وهي تقول «عار على العرب ان يفزوا كما فر البربر . إن هؤلاء يطلبون الغنائم واما انت فتطلبون الجهاد وغنمتم الفخر والنصر والحسين في الدنيا والآخرة »

وكان الفرسان يحسبونها رجالاً فلما رأوها فتاة وشاهدوا جمالها وهبها مع تلك البسالة والغيرة خيل لهم انها ملائكة نزل لتصترتهم من السماء فتحمسوا وثبتوا في هجومهم وجمموا على الثنائي اجاية لندائها ونداء هانيء . ولكن الظلام فصل بين الجيدين ففتح في الابواب

فتراجع كل منها الى معسكره

## الفصل الثامن والسبعون

بعد المعركة

فلا تراجع الجيشان طلب هانيٌ مكان عبد الرحمن فلم يجده فسأل عنه فلم ينبه أحد بخبره فاركتض فرسه للبحث عنه هنا وهناك فلم يقف له على اثر . فما صر فرسانه بالرجوع الى اماكنهم وترجل هو ومرميم عن فرسها وجعلها يطوفان المعركة بتفحصان القتلي على نور الشفق . ثم طلع القمر فأضاء تلك البقعة المغطاة بمحش الناس وفيهم المائت والميت والجرح والعاجز وبينهم الافراس في نحو ذلك بين صهيل وشخير وانين وزحير . ففقدا كل مكان فلم يجدا عبد الرحمن — واذا هما بصهيل يشبه صهيل فرسه عن بعد فاجفلا واستبشرَا فالتفتا الى اطراف تلك الساحة فرأيا في بعض جوانبها مما يلي الجنوب فرساً واقفاً وهو يصهل وي Finch the الأرض فصاح هاني : « هذا فرس الامير » واسرع اليه ورميم تبعه حتى اتى الجماد فرأاه واقفاً وامامه شبح ملقي عرفا حالاً انه عبد الرحمن . فاسرع هاني الى يده نفسه فإذا هو جثة هامدة وقد استلقى على ظهره وبسط ذراعيه وعيناه شاختان نحو الشرق كأنها تستقبلان نور القمر عند طلوعه . وشاهدادا سهماً مغروساً في عنقه فعلم انه سبب وفاته . بعثا هانيٌ عند راسه وصاح « وأسفاه عليك يا اميري يا والدي يا اخي ويا نصيري بل يا نصير المسلمين ... ولكنك فوت بینات التعم لانك قتلت عجاهداً فعسى ان الحق بك عاجلاً ... »

وكانت مرميم واقفة تنظر الى تلك الجثة وتتأسف لقتل ذلك القائد لكنها كانت تعزى ببقاء هانيٌ حياً وهي ترجوه النصر فإذا فاز بالفتح اصبح أكبر قواد ذلك الجند . وقد نظرت سمعها من تنبيه الخالق عاجلاً بعد الرحمن فقالت « دعنا من الندب فإنه أليق بالنساء وهم بنا الى المعسكر نذربشون الجندي قبل الفشل وإذا فزنا في واقعة الغد ونحن فائزون ان شاء الله في ذلك تعزية عن كل خسارة » فاستتصوب هانيٌ قولها وقال « فلا بدّ لنا من دفته » قالت « متي وصلنا المعسكر ارسطنا من يأتي بالجثة ثم نصلون عليها وتدفونها ... » قالت ذلك ومشت وهي لا تزال مسترسلة الشعر مكتشوفة الذراعين لاتبالي بما يرافق صفاً ذلك الليل من برد انطريـف . توسيـي هانيٌ والسيـف يحيـي وراءـه وقبـه في شاغـل ثـنـازـعـه عـوـاملـ الفـشـلـ وـالـأـسـفـ وـالـأـمـلـ وـتـظـلـلـ عـيـاهـبـ الجـبـ وـالـوـجـدـ وـمـرـمـيـمـ تـسـيرـ الىـ جـانـبـهـ وـهـيـ فـيـ مـثـلـ حـالـهـ وـقـدـ وـلـيـاـ وـجـيـهـاـ نـحـوـ الـمـعـكـرـ وـسـاحـةـ الـمـعرـكـةـ الـىـ يـيـنـهـاـ وـمـعـكـرـ اوـدـ الـىـ يـسـارـهـاـ وـلـيـسـ

فقط يا برهة بتشيان وهما صامتان من الدهشة والاستغراب ثم تكلم هاني ؟ قائلاً « ما الذي اراه ؟ .. اين ذهب الجندي اين الخيل اين الخدم امتظاينهم ذهبا نحو الاخيبة ليجعلوا هذا النهر الصغير ترساً لهم في الدفاع » ..

قالت « ربما فعلوا ذلك .. هل نذهب الى الاخيبة ؟ »

قال « نذهب .. » وخرج جامن بين الخيام كأنها خارجان من خربة حتى عدّيا النهر الصغير الى الاخيبة فلم يجدوا فيها انساً . فقال هاني « اذا فرضنا ان البربر جبنوا وفرّوا فابن العرب بل اين النساء والاطفال ؟ .. ما اسرع نهوضهم وفرارهم ! يظهر ان وجود عبد الرحمن وجده كان جاماً لهم .. فلامات ماتت قلوبهم .. »

ثم اطرق حيناً لا يتكلم وقلبه يكاد يتقطع حنقاً ويأساً لا يدرى ماذا يقول وقد حدثه نفسه بأمور كثيرة اكبران يذكرها . وكانت مريم تسير بجانبه لا تقول شيئاً وهي تكتم امرأ آخر التتصريح به حتى تسمع راييه قبلًا .. وبعد المسير مدة على هذه الصورة بين الاخيبة والخيام وكل منها غارق في افكاره يتعثر بالاطناب والاوتاد قال هاني « يجب علينا قبل كل شيء ان نواري جنة اميرنا رحمة الله لئلاً تذهب فريسة العقبان او يمثل بها الاعداء » قال ذلك وتحوّلا نحو ساحة المعركة فعرفا مكان الجثة من صهيل الجباد فتعاونا في حملها على الفرس الى حفرة في مكان منفرد وضعاها فيه وغطياها بالتراب ولم يفه أحد منها بكلمة .. فكان لذلك الدفن على بساطته هيبة ووفاره بما كان يضطرم في قلبيها من نيران الحزن والاسف الصحيحين غير نيران الحب ولواعج الغرام

## الفصل التاسع والستون

### القاء الدائم

فرغا من الدفن وها صامتان وكان القمر قد تكبد المسماء واصبح نوره مثل نور النهار ف وقالت مريم « وما العمل يا هاني ؟ »

فتنهى وقال « لو كان معي خمسون رجلاً لما جئت بهم هذين المسكرين .. على ان وحدتي لا تمنعني من الهجوم ولو كان فيه فنائي ولكنني اخاف على مريم اذا انا قبلت ان يلحق بها عار او اهانة .. »

فالتفتت اليه وقالت « هل تبقي مریم بعْدك ؟ ذلك لا يكون وقد فرأتَ وصيحةِ مالدي (ونبهدت) فانها تحب الى الحاق بهما الى دار الآخرة ولا اشك بانها هناك الان .. فاذا كنت تحب مریم وتريد ان تتعذر عن حياتها وعزها اسمح لي ان الحق بوالدي اذ لافائدة من بقائي . واما انت فان الاسلام يحتج لليك وللة تفقر الى سيفك وذراعك .. فلما سمع كلامها هاج فيه غرامه حتى انساه موقفه فقال « ان الملة منفقة الى مثلك اكثر من افتقارها الى مثلي . انك ابنة الملکين وقد حزرتِ فضائل الجنسين .. ووالله لو صبر او شئت الجبناء الى الغد وكنتِ انتِ رائدتهم في حومة الوعي لفازوا وقطعنامن لوار .. آه من هذا النهر .. لقد امتنع علينا عبوره فامتنع ابجع اعنة .. اتطيعيني يامریم ؟ قال : « اف اطع لك من بناتك — الا اذا اردت بقائي بعدك »

قال « لقد فشل جندنا وفرّ من بقي منه حيًّا وفي الفرار بقاءٌ ترتاح له نفس الجنان . وقد اجتمعنا الآن ولا رقيب علينا وكلُّ منا يودُّ البقاء من أجل صاحبه ولا يقاء الآخر بالفارار ونفسى تابِ ذلك . ولا يخفى عليك ما همتي أن فوَادينا قد ذابا نطلاً إلى اليوم الذي قطع فيه ذلك النهر لأن في قطعه الحنة أعني العبرة التي يمنعنا من الاجتماع فيه الآن ؟ .. . »

قال «بل في قاعده *General Library* كتب جمعاً فلاديمير *Vladimir* لا كيف تكون» قال ذلك وثبت حتى ركب جواد عبد الرحمن *Abd al-Rahman* فاردها وراءه واركب الفرس وهي مسكة عباءته واتجها نحو شهرزاد *Mehrzaad* خارج مدينة تورس حتى وصل الى ضفة من الريمال تكسر عليها مياه النهر بعد تفوح ضعيف وسطح النهر يتلالاً في ضوء القمر ويتلدون نحو لعن الفرس واطلقوا له العنان فعاد الى المعسكر . وظلاً هناك منفردين والجو هادئ ساكن لا يسمع فيه غير خرير الماء ونقيق الضفادع . نغلعا نعلما ومشيا على الرمل المرطب بالماء وزرع هانيء عيامته وعبأته فأصبح حاسرا الراس والذراعين مثل مريم وله ضفيرة كانت العامة تقططها فاسترسلت مثل خفاثير مريم . فمشيا على الرمل حتى أصبح تكسر المياه يصيب كعبيها فوقنا هناك ومهن هانيء يديه الى مريم قبض بها على يمناها . فاحسن ببرودتها ولينها ولم يشعر بقشعريرتها لاشغاله بقشعريرته . فضغط علي يدها بكلتا يديه فارتعدت فرائصها جيئماً . ولم تعد مريم تستطيع الوقوف لاصطدراك ركبتيها فاسندت رأسها بيسراها على كتف هانيء فاسكرتها رائحة عرقه كما اسكنته رائحة طيبها ولا مس شعرها وجهه واشتبك بغضه بشعر لحيته فاحسن بقشعريره دبت في جسمه دبيب النمل بين اللحم والعظم . وخاف

أشدّة تأثّرها ان تخونه قدماه فيقع فابق يسراه قابضة على ينها وادار ينها الى كتفها وتسانداً  
وهما صامتان والموي يتكلّم . ثم رفعت راسها عن كتفها ونظرت في وجهه وعينها قد ذلتا  
من شدة التأثير وغضيها الدمع وقالت بصوت مخفي «أتحبني يا هاني؟ ..؟»  
فأعاد يده الأخرى فامسك ينها . يديه واندتها الى صدره وقد غلب عليه الحب  
ونسي موافق القتال وقال «نعم احبك .. احبك ..»  
قالت «آه ما ألطف الحب والذّه ..»

قال «لا لذّه له بغير الاجتماع - هل في الدنيا اثنان يتعان بالذّه مما نحن فيه  
الآن؟ ضمّيني يا مريم يا حبيبي .. ضمّيني الى صدرك .. الا تشعرین بمحنة قلبي؟ ..  
اني اشعر بدقّات قلبك» قال ذلك واحدى يديه فوق كتفها والاخرى قابض بها على يدها  
اما هي فرفعت بصرها الى السماء فرأرت القمر مشرقاً اشراقاً باهراً وعلى وجهه يشبه رأسين  
مشقاريين كأنهما حبيبان يتعانقان فقالت «اني ارى صورتنا ارتبّت على وجه القمر ..  
انظر يا هاني، آلا ترى وجهين مثل وجهينا هنّاك؟»

قال «لا ارى في الدنيا من يشبهنا ولا من نجده تشبه حانيا ..»  
وكانت مريم قد جفت دمعتها فلما سمعت قوله تذكرت حالها فقالت وهي تنفس بريتها  
«ان حالنا عجيبة يا هاني .. ، نحننا: الاجتماع وسعينا فيه فامتنع علينا فلما ثقينا ساءنا  
الاجتماع خوفاً من الفراق ..»

فاجاها وبصره شاخص في وجهها وقال «اني لا ارى ما يشفي غليلي بعد طول  
التحسر الا ان نجتمع اجتماعاً متواصلاً لا يخلله فراق .. ولا يكون ذلك الالموت معنا ..  
هل تمويني معي يا مريم؟ ..»

فالتفتت اليه ويدها ملتفة بيده الى الكتف وعينها ذابلتان ولم تتكلّم هي لتتكلّمتا  
ثم قالت «الموت معك حياة يا حبيبي .. يا حبيبي .. آه ما الذّه هذا اللفظ بعمي وكم كنت  
الذذ بتكراره في خلوتي وتحسر على سماعه من فيك ههـ ..»

قال «صّدقت .. ولا يعرف لذّه هذا اللفظ غير العجّين . وقد كفانا من جبنا المتبادل  
التعّ مع هذا اللفظ لأننا مقيدان بهود لا تجيز لنا ما رواه ولو كتب لنا النصر وقطعنا هذا  
النهر لكان اجتماعنا اطول ودائرة ملذاتنا اوسع .. على اننا لم نكن مع ذلك نأمن الفراق  
ونكِد العيش والدنيا تأتي بالعجب العجاب .. اما الان فإذا متنا متعاقدين فكأننا عشنا  
الدهر معـاً ولم ينفعنا عيشنا فراق»

قالت «عجل اذاً ولا تطل بنا الوقوف لثلاً يحدث ما يحرمنا هذه السعادة» قالت ذلك ومدت يدها الى جيئها واستقررت المحفظة ونظرت اليها لحظة ثم قبلتها وخفتها الى صدرها وبكت وهي تقول «اماً .. يا اماً .. والهني عليك ما كان اشقاك .. قضيت العمر في التكتم والسترو والتذر .. ثم ذهبت قليلة ذلك السر محافظة على عهد حبيبك واكراماً لوصيته .. ولو عرفت ذلك من قبل لاستغربت مثل هذا التعلق .. واما الان فقد ذقت طعم الحب فلا الومك .. بل انا فاعلة مثل فعلىك .. وهذا اني عاملة بوصيتك .. ثم اعادت المحفظة الى جيئها وهي تقول «هذا سرك ذاهب معنا الى غياه الابدية» وكان هاني يسمع كلامها وهو يراعي حركات شفتيها وعينيها ويشاركها بكل جارحة من جوارحه .. فلما فرغت من قولها اشار بعينيه الى جسمها الغض وقال لها «اليس غبنا ان تذهب هذه الاعضاء طعاماً لاسمك البحر»

قطعت كلامه قائلة «ذلك خير لها من ان يفترسها وحوش البر الذين يسمون انفسهم بني الانسان .. عجل ياهانى .. قبل ان يغلب علينا حب البقاء ..» فمد يديه ومدت يديها وتتجاوزا من جانب ومتاسكا من الجانب الآخر ومشيا على الرمل حتى غرفت اقدامها في الماء فاحسأ يبرد وبانزلاق الرمل تحت الاختصين .. وكانوا كلما تعمقا في الماء ازدادا تعائقاً بدل الازرع وازدادا تجاذباً حتى أصبحا كأنهما جسم واحد وغطسا في الماء وكل منها يتلذذ بذلك اسم الآخر .. وبعد دقيقة عاماً فبدأ بعض الرأسين والشعر ساقع على سطح الماء ثم غطسا الى قاع النهر ولا يعلم مصيرها الا الله اما جيش الافرنج فانهم اصبحوا في اليوم التالي وهم يتوقعون هجوم العرب عليهم فرأوا الارض قفراء واثليام خالية فاستولوا على ما كان باقياً فيها من القنائيم<sup>(١)</sup> وكان ذلك آخر عهدهم بالعرب هناك على ما دونه التاريخ

تمت الرواية

(١) رومي ورينو